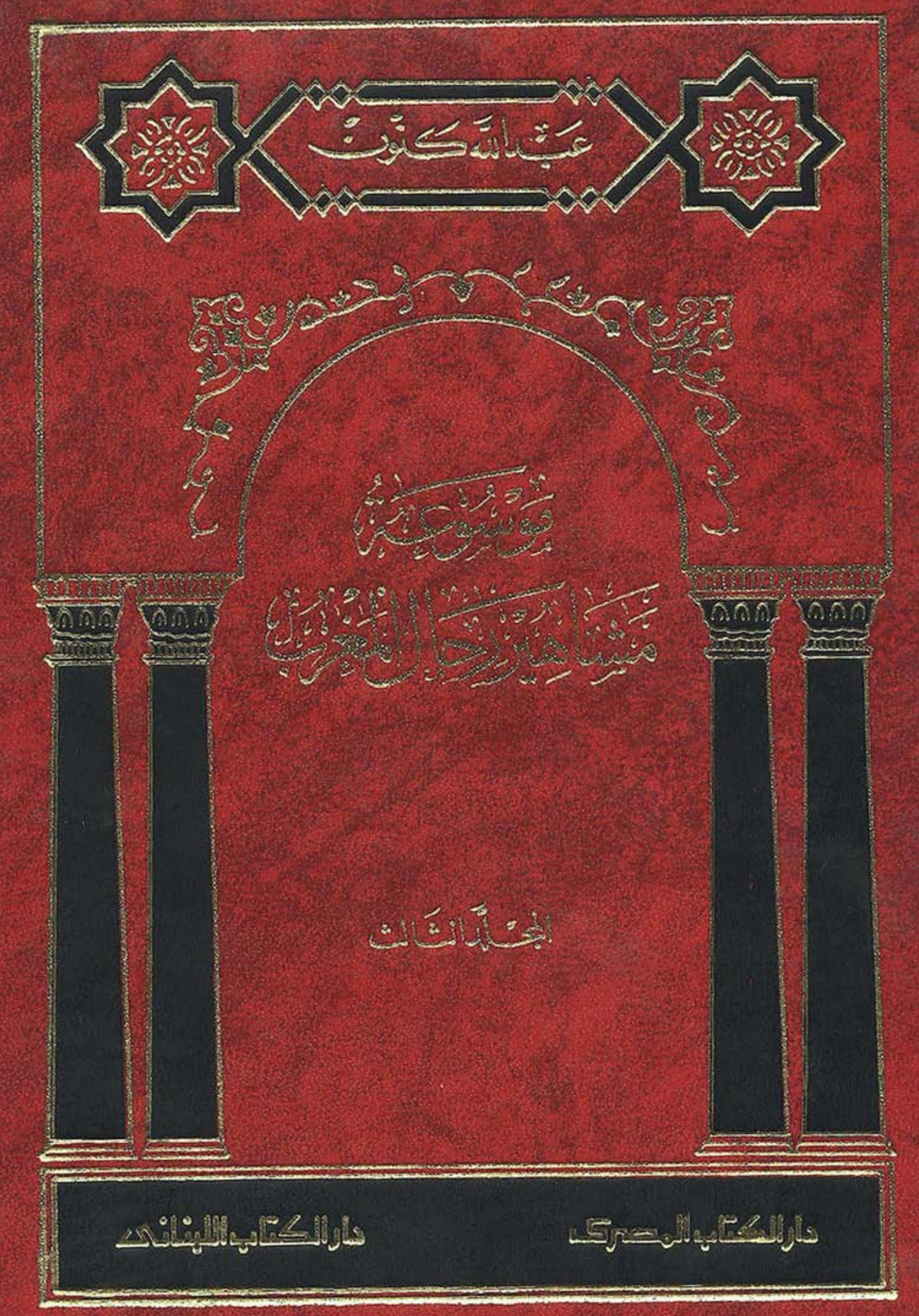
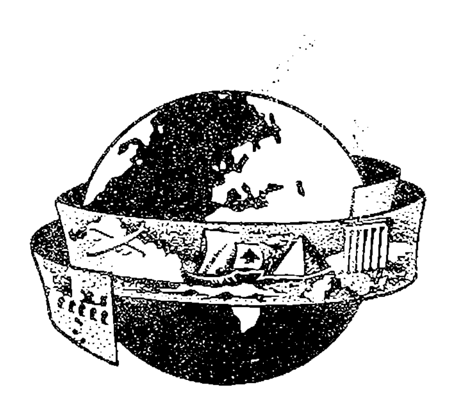

عبد الله كنون
موسوعة
مشاهير رجال المغرب
المجلد الثالث
دار الكتاب المصري
دار الكتاب اللبناني



دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - ف كسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧

ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقياً: كتامصر

TELEX No. 23081 - 23381 - 22181 - 22481 · ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN

FAX: (202) 3924657 CAIRO - EGYPT

المجلد الأول	المجلد الثاني	المجلد الثالث	المجلد الرابع	المجلد الخامس
عبد العزيز الفشتالي	عثمان السلاليجي	أبو القاسم الشريف	إبن الياسمين	أحمد بن شعيب الجرنائي
أبو القاسم الزياني	ابن غازي	ابن الحاج الفاسي	ابن البناء العددي	ابن هاني السبتي
الوزير ابن ادريس	ابن زكور	أحمد زروق	الإمام إدريس	محمد المسناوي
إكنسوس	ابو الطيب العلمي	الشريف الإدريسي	أبو عمران الفسي	محمد بن المدني كنون
أبو جعفر بن عطية	ابن الونان	ابن بطوطة	السلطان محمد بن عبدالله	عبد الملك المعتصم
ابو العباس الجراوي	ابن عبدون المكناسي	عبد المهيمن الحضرمي	الأصيلي	محمد الخامس
ميمون الخطابي	أبو بكر بن شبرين	ابو العباس العزفي	عبدالله بن ياسمين	محمد بن عبدالكريم الخطابي
مالك بن مرحل	إبن رشيد	عبد الواحد المراكشي	يوسف بن تشفين	سابق البربري
عبد العزيزالملزوزي	أبو موسى الجازولي	ابن أبي زرع	ابن حبوس الفاسي	النابغة الهوزالي
الأمير سليمان الموحد	ابن أجروم	أبو حفص بن عمر	ابن زنباع الطنجي	أبو الحسن المسفر

ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم
عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

21

ابو القاسم الشريف

وزارة المعارف المكتبات المدرسية

ابو القاسم الشريف

شهرته بالغرناطي ـ نسبهـ ولادته ونشأتهـ أخلاقه ـ تفوقه في العربية فوائده ـ مجالسه ـ انتقاله إلى غرناطة ـ ولايته القضاء ـ عزله ـ اعادته إلى القضاء ـ مقتل سلطانه ـ محنته ـ وفاته ـ تصانيفه ـ ديوانه ومقدمته ـ كتابته ـ نادرة في استحضاره ـ شعره ـ رثاؤه .

شُهِر بالشريف الغرناطي ، ولكنا لا نعتبر هذه الشهرة ؛ لانه كفَى ما طمسته هذه الاندلسُ من مآثرنا ، وأتت عليه من مفاخرنا ، فأما الاشخاص الذين احتوتهم وأنستْنا ذِكرَياتهم حتى لم نعد نعرف واحداً منهم وبقيت هي معتزة بهم ، والآثار التي استحوذت عليها وصارت لا تنسب الا إليها ، فاننا نُسوّغها ذلك ونجعلها في حِلٍّ منه لوجه الله عز وجل والرّحِم والجِوار منشدين مع كُثَيّر قوله :

هنيئاً مريئاً غيرَ داء مخامر لِعَزّة من « أمجادنا » ماستحلّتِ

واما من عُرِفَتْ مَغْرِبيّتُه من الاشخاص ، وما تحققت نِسبتُه الى

المغاربة من الآثار فاننا لا نتسامح فيه بحال . وسنجدّ في كشفه واظهاره للملإ بحول الله وقوته معتقدين أن ذلك من البرور بهذا الوطن المبخوس الحظ المغموط القدر وخدمته التي هي من اول الواجبات على من يحترم نفسه ويريد ان يسعد هو وامته .

ومُترجمُنا هذا مغربي ليس عليه غبار . شريف النّجار ، سَبْتِيّ الدار فلنُشَطّب على الغرناطي من اسمه ولندعُه بما يجب ان يدعى به وهو اسمه المجرّد « أبو القاسم الشريف » او المنسوب الى بلده « الشريف السبتي » ان كان لا بد من هذه النّسب الضيقة التي تجلب كثيراً من الشحناء بين ابناء الوطن الواحد خصوصاً عند ضعف التّربية الوطنية .

وهو محمد بن احمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن محمد بن علي ابن موسى بن ابراهيم بن محمد بن ناصر بن جَنّون(1) بن القاسم بن الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله عنه . كذا في الاحاطة ذاكرا انه نقل من خطه وثبت زيادة ابن احمد قبل عبد الله وبعد محمد الجد الادنى له في الدّيباج من الطبعة الفاسية والطبعة المصرية وفي بُغية الوعاة ، وبما ان ابن فَرْحُون والسيوطي انما نقلا ترجمته عن ابن الخطيب فلا شك انه سقط في نسخة المطبعة من الاحاطة على ان القاضي ابا الحسن النباهي في المَرْقَبة العُليا ابدل احمد هذا بمحمد .

وليس هذا فقط فان في هذا النسب خللاً لا يخفى على النّسابة النقّاد اذ ان

---

1) تصحف هذا الاسم في الاحاطة المطبوعة بخبوز والصواب ما ذكرناه .

القاسم بن الحسن لم يُعقب وهو في جُمْلة ابناء الحسن الـذين نبّه مُصعب الزّبيري وابن حَزْم على انهم لم يُعقبوا فرَفْعُ النسب من طريقه لا يصح فبقي ان فيه خللاً . إلا انه لا يقدح في صحة نسب المترجَم لانه لا يُشترط في النسب الرفْع حتى يتصل الادنى بالاعلى بل ان الحوْز والشهرة كافية في ذلك ومُغنِية عنه ، وقد نبه على الخلل المذكور في الدرالسّنِـي الا انه عنده في رفع نسب المترجم من طريق محمد بن الحسن لا من طريق القاسم بن الحسن وقـد قال إنه كذلك عند ابن الخطيب فيظهر ان نسخة الاحاطة التي كانت عنـد صاحب الدرالسني فيها رفع نسب ابي القاسم من طريق محمد بن الحسن ، واياً كان فكل من القاسم ومحمد ابني الحسن لم يُعقب(1) .

---

1) وجاء رفع هذاالنسب بطريقين مختلفين في مخطوطتين نثير فرائد الجمان ونثير الجمان لابن الأحمر ، ففي الأولى هو محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن محمدبن علي بن موسى بن ابراهيم بن محمد بن ناصر ابن جنون بن القاسم بن الحسن بن الحسين بن ادريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبـي طالب وفي الثانية هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن موسى بن ابراهيم بن محمد بن ناصر بن جنون بن. القاسم بن الحسن بن الحسن بن ادريس بن الحسن بن محمد بن الحسن بن علي بن ابـي طالب ، ففي الأول سقط أحمد الذي هو الجد الثاني للمترجم وسقط محمد الذي هو الجد السادس فانهم ثلاثة محمدين في نسق واحد وكلا الاسمين موجود في الطريق الثاني وزاد هذا محمداً آخر بين أحمد وعبدالله ثم اتفقت الطرق إلى جنون بن القاسم وطريق الاحاطة يجعل القاسم إبن الحسن بن علي وقد علمت ما فيه ، واحد الطريقين المذكورين هنا يجعله حفيداً لادريس بن عبدالله من ولده الحسين وما جعل الله لادريس من ولد إلا سميه وخليفته باني مدينة فاس والثاني ينسبه لادريس بن الحسن ويرفعه من جهة محمد بن الحسن بن أبـي طالب وقد علمت ان محمداً هذا لم يعقب ولعل هذا العمود هو الذي كان في نسخة الاحاطة التي اطلع عليها صاحب الدرالسني فنبه على ما فيه من الغلط ، والخلاصة ان عمود نسب المترجم فيه اختلاط كثير وان كان نسبه صحيحاً لا مطعن فيه ولذلك اقتصر الكثير من مترجميه على جدوده الادنين والله أعلم .

والمترجَم على كل حال شريف حَسَني كما رأيت فما وقع في الديباج من أنه حُسيني ، تحريف ظاهر ، وفي بغية الوعاة الحُسْنَي وهو غلط شديدالافتقار الى الاصلاح .

ولد ابو القاسم ببلده سبتة في 6 ربيع الاول سنة 697 فنشأ نشأة صالحة في حجر والده ،الذي كان معلماً للقرآ ن الكريم وكان بيتهم بيت علم ،وسبتةُ يومئذ في اوج مجدها العلمي والادبي حافلة بالمشايخ الذين كان ابو القاسم يتردد على مجالسهم للاخذ عنهم والتزود من بضائعهم : كالامام النظار ابي القاسم بن الشاطّ والخطيب المحدث ابي عبد الله بن رُشَيْد وشيخ العربية والآداب في زمنه ابي عبد الله بن هانيء وأضرابهم .وكان ظاهر النجابة قوي ملكة الحفظ فما عمّ ان نبغ وبرع وأتقن جملةعلوم كالنحو واللغة والبيان والعروض والفقه والاحكام الى النظر السديد والادراك الاصيل والتؤدة والوقار والنزاهة والحياء وجمال العشرة وحسن المداراة ، فحق له ان يكون مَفخَر أهل بيته كما يقول عنه ابن الخطيب.

وجلس للتعليم فكان رُحلَةَ الوقت في علوم اللسان اذ حاز الخصل في ميدانها وتصرف باستقلال الفكر في فنونها . ذكر المقري من فوائده أنه قال فيما جاء من الحديث في صفة وضوء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل بهما وادبر : ان احسن الوجوه في تأويله أن يكون قدم الاقبال تفاؤلاً ثم فسر بعد ذلك على معنى ادبر واقبل قال : والعربُ تقدم في كلامها ألفاظاً على ألفاظ أخر تلتزمه في بعض المواضع كقولهم : قام وقعد ولا تقول قعد وقام وكذلك أكل وشرب ،

ودخل وخرج وعلى هذا النمط كلام العرب فتكون هذه المسألة من هذا قال ويؤيد ما قلناه وهو موضع النكتة تفسيره لا قبل وادبر في باقي الحديث على معنى ادبر ثم أقبل ولو كان اللفظ على ظاهره لم يحتج الى تفسير .

ويعني بالتفسير قوله باثر ذلك : بدأ بمقدّم رأسه ثم ذهب بهما الى قفاه ثم ردهما حتى رجع الى المكان الذي بدأ منه والحديث في الصحيح .

وحدث ابو القاسم الشاطبي عنه قال : قال لي الشيخ القاضي الكبير الشهير ابو القاسم الحسني يوماً وقد جرى ذكر حتّى التي للابتداء وان معناها التي يقع بعدها الكلام سواء كان ذلك متعلقاً بما قبلها لم يتم دونه اولا بل لا يكون الامر الا كذلك قال وحدثني بعض الاصحاب انه سمع رجلاً يصلي أشفاع رمضان فقرأ من سورة الكهف الى قوله تعالى (ثم اتبع سبباً) فوقف هناك وركع وسجد قال فظننت أنه نسي ما بعدُ ثم ركع وسجد حتى يتذكر بعد ذلك ويعيد اول الكلام فلما قام من السجود ابتدأ القراءة بقوله (حتّى اذا بلغ) فلما اتم الصلاة قلت له في ذلك فقال أليست حتى للابتداء قال القاضي الشريف المذكور فيجب ان يفهم ان الاصطلاح في حتّى وفي غيرها من حروف الابتداء ما ذُكِر .

وهكذا كانت مجالس ابي القاسم غزيرة الفائدة جمة النفع فهي بذلك مثابةُ النبهاء من الطلبة كأبي اسحاق الشاطبي ولسان الدين بن الخطيب وابن زَمْرك ومن اليهم . قال ابن الاحمر في حق ابن زمرك « كان يتردد الاعوام العديدة الى قاضي الجماعة ابي القاسم الشريف فاحسن الاصغاء وبذّ الأئمة البلغاء »

وكان ابو القاسم رحمه الله دؤوباً على التدريس حمالاً لأثقاله صبوراً على مشاقه لا يصرفه عنه الا أعباء الخطة وتكاليف الخدمة والاشغال اذا تكاثرت ولم يجد منها مخلصاً . فنفع الله به كثيراً ونشر علماً غزيراً .

ولم تستقر الدار بأبي القاسم في بلده طويلاً بل انه رحل الى غرناطة في عنفوان شبابه فوطنها الى الوفاة . وذلك هو سبب شهرته بالغرناطي على ما مر قال ابن الخطيب : « قدم على الحضرة في دولة الخامس من ملوك بني نصر كما استجمع شبابه يفهَقُ علماً باللسان ومعرفةً بمواقع البيان وينطق بالعذب الزلال من الشعر فسهّل له كنف البر ونظمَه في قلادة كتاب الانشاء الخ »وفي هذه الفقرة ما يدل على سبب انتقاله من سبتة مسقط رأسه ومألف نفسه الى غرناطة وليست له بدار ولا بموضع قرار وذلك هو التعلق بالخدمة ونشدان العمل لا سيما وحاله بسبتة لم يكن على ما يرام حسبما يظهر من هذه « الألُوكة » التي ارسلها الى اهل سبتة يصف فيها حاله بعد حلوله بغرناطة. وقد كتب بها اليّ صديقي الاوفى المؤرخ البحاثة السيد عبد السلام ابن سودة من فاس وثبتت في المرقبة العليا :

ياايها الراكبُ المزُجِْي ركائبَه	يحثّها السير بين الغَور والأكم
أبلغ بسبتة أقواماً ودونهم	عرض الفلا وذميل الأينُق الرّسُم
ولُجّ ذي ثبَج طام كأن به	أعلام لبنان او كثبان ذي سلم
ألُوكةً عن غريب داره قذف	مرماه لا صدد منهم ولا أمَمِ
أني بأندلس آوي إلى كنَف	للمجد رحْبٍ وظِل للعلا عمم

وان غرناطة الغرا حللتُ بهـا | فصرت من ريب هذا الدهر في حرم
ليست كأخرى بلى ربعٌ بها وجفا | رهط وأخفر ماللمجد مـن ذمم
وأنكرتني مغانيها ومـا عُرفـت | الا بقومي في أيامنـا القُـدم
لولا مضاربُ من آل النبي بهـا | وشنّ ماهنّ من طيب ومن كرم
وفتيةٌ من بني الزهراء قـد كرموا | لهم اواصر من ود ومن رحـم
لقلت لاجادها صوبُ الحيا ابـداً | الا بناقع سم أو عَبيـط دم
لايُسفحنّ عليها الدمع مـن جزع | يوما ولا يُقرعنّ السن من ندم
ما ضرني أن نباني او نـأى وطني | منها ولي شرف البطحاء والحرم

فهذه نفثة مصدور تدل على ما لاقاه الشريف – ويلاقيه كل شريف – من قومه في بلده من جحد ونكران وتضييع وحرمان فكيف لا يزمّ مطايـاه للرحيل ويراوح عليها بين الوخذ والذميل :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى | وفيها لمن خاف القلا متعزّل

وما كاد ابو القاسم يلقي عصاه في غرناطة حتّى شاع فضله وذاع نبله وعرف الناس قدره فآحاوه المحل اللائق به والحقه السلطان بجملة كتابه ثم ما زال ينقله في وظائف الخدمة حتى ولاه منصب القضاء وما زال يتولاه في جهات مختلفة أنبهُها (مالقة) حتى نقل الى قضاء العاصمة في 4 ربيع الثاني 737 متقلداً معه بالكتابة والخطابة .

وهنا بلغ الشريف اوج مجده وظهرت كفاياته التي طالما عاقتْها صُروف

الدهر عن الظهور « فاضطلع بالاحكام مطبقاً مفصل العدل نافذ الامر عظيم الهيبة قليل الناقد ... وصدع في مواقف الخطابة بكل بليغ من القول مما ترِقّ ديباجتُه ويشِفّ صقاله وتبرأ من كلال الخطباء اطرافه وبلغت بـه الحظوة وشفوف المنزلة ان استُعمل في السفارة للعدو ناجحَ السعي ميمون النقيبة » كما يقول ابن الخطيب .

وهكذا قضى هذه الفترة من حياته في سعد متكامل وصعود متواصل الى ان عُزل عن القضاء في شعبان 747 من غير زلة تحفظ ولا هَنَة تُوثر مُعوضاً بشيخ الجماعة ابي البركات ابن الحاج فتحيز الى التحليق لتدريس العلم فقهاً وعربية غير مُنتقِص ذلك من قدره شيئاً ولا مؤثر في شرفه بوجه من الوجوه ويرحم الله العلامة السيد محمد التيدي قاضي طنجة في اواخر القرن المنصرم حيث قال لما اراده بعض نواب السلطان على أمر يضاد الشريعة فابى فهدده النائب : « غاية ما بيدك ان تكتب للسلطان فيعزلني ، وانا إذا عزلت عن القضاء لم اعزل عن شرف العلم وشرف النسب ، فانظر لنفسك انت اذا عزلت عن النيابة فإنك تبقى « فُليّن » فقط . وسماه باسمه مصغراً .

وكذا ابو القاسم لما عُزل عن القضاء لم يُعزل عن شرف العلم وشرف النسب بل يصح ان يقال ان القضاء هو الذي عُزل عن شرفه ولذا خاطبه شيخه أبو الحسن بن الجيّاب حين ذاك بهذه القطعة مُولياً خطةَ القضاء الملامةَ :

لا مرحباً بالناشز الفارك	إن جهلت رفعةَ مقدارك
لو أنها قد أوتيت رشدَها	ما برِحت تعشُو الى نارك

اقسمتُ بالنور المبين الذي منــه بــدت مشكــاة انوارك
وَمظهر الحكم الحكـيم الـــذي يتُلى عليــه طيــبُ أخبـارك
ما لقيتْ مثلَك كـفــواً ولا آوت الى أكـرمَ مـن داركْ

ومع هذا فلم يصح استغناؤهم عن ابي القاسم كما قال ابن الخطيب « ولم ينشب اميره المنطوي على الهاجس المغري بمثله أن قدمه قاضياً بوادي آش بنتِ حضرته ... ثم اعيد الى القضاء بالحضرة فولّيـَها واستمرت حالة ولايته على مُتقدّم سَمْته من الفضل والنزاهة الى ان هلك السلطان مُستقضيه مأموماً بـه مقتدياً بسجوده يوم عيد الفطر من عام 755 » .

والسلطان المذكور هو ابو الحجاج يوسف ابن اسماعيل السابع من بني نصر اصحاب غرناطة . وحادثةُ قتله اشار لها في اللمحة البدرية بقوله :« وافاه امر الله جل جلاله اتم ما كان شباباً واعتدالاً وحسناً وفخامة وعزاً من حيث لا يحتسب . فهجمَ عليه يوم عيد الفطر من عام 755 في الركعة الاخيرة ممْرُورٌ ورمى نفسه عليه وطعنه بخنجر كان قد اتخذه واغرى بعلاجه وصاح وقُطعت الصلاة وسُلّت السيوف وتُقُبّضَ على الممرور واستُفهِم فتكلم بكـــلام مختلط واحتمل الى منزله مرفوعاً فوق رؤوسنا على الفور ولم يستقر به الا وقد قضى رحمه الله . واخرج ذلك الممرور للناس فمزق ثم احرق بالنار ودفن السلطان رحمه الله عشية اليوم في مقبرة قصره لِصْقَ ابيه وولي الامر اكـبر ولـــده » .

وقد كان ابو القاسم كما علمت هو الامام في هذه الصلاة فدارت عليه محنة عرَكتْه عرْكَ الاديم وطحنته طحن الرحى بثِفالها من جرّاء تطارح بعض الامراء عليه وتداوُلِه بالارجل وزاد الامرَ شدّة التفافُ مُرسَل طيْلَسانه عليه ساداً مجرى نفَسه فعالج الحِمام مُدة ثم نفّس الله عنه .

وبعد استقرار الولد على عرش ابيه جدد لابي القاسم ولاية القضاء واكّد تَجِلته ورفع رتبته فبقي فيها حتى توفي في اوائل شعبان 760 على ما عند صاحب الاحاطة وقال ابن الخطيب القسنطيني الشهير بابن قنفذ في وفياته وهو تلميذ المترجم ايضاً انه توفي سنة 761 . اما ابو الحسن النباهي فقد ضبطها باليوم والساعة فقال انه توفي ضحى يوم الخميس الحادي والعشرين لشهر شعبان من عام 760 فهو على هذا أثْبتُ .

قال في نفح الطيب : وكان للشريف ابي القاسم المذكور ابنان نجيبان احدهما قاضي الجماعة ابو المعالي والآخر ابو العباس احمد ثم حكى حكاية عن اولهما في زهده وانقطاعه اولا ثم اقباله على الدنيا والرياسة اخيراً رحم الله الجميع .

انقضت حياة ابي القاسم ولم ينقض الحديث عنه لان من كان مثله جم المواهب ضخم المآثر كان الحديث عنه طويلاً مديداً .

صنف رحمه الله تصانيف بارعة منها :

1) رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة . وهو شرح على مقصورة حازم التي مدح بها المستنصر الحفصي تنقطع الاطماع عنه كما قال فيه ابن الخطيب . وقال المقري فيه من الفوائد ما لا مزيد عليه . رأيته بالمغرب واستفدت منه كثيراً ؛ وليس في قولهما معاً مبالغة فان الشرح المذكور حوى من الفوائد اللغوية والنحوية والادبية والانشادات ما عزّ وجوده في غيره وهو وهو وحده دليل على جلالة مؤلفه ومقامه العلمي الرفيع . وقد طبع بمصر .

2) رياضة الابيّ في شرح قصيدة الخزرجي وهي شرح على الخزرجية الشهيرة في علمي العروض والقافية . قال ابن الخطيب : ابدع فيه بما يدل على الاطلاع وسداد الفهم . وقال المقري ويكفيه فضلاً انه شرح الخزرجية وافترع هضاب مشكلاتها بفهمه من غير ان يسبقه احد الى استخراج كنوزها وايضاح رموزها . وهو كذلك ومن كُتِب عليه ان يتطلب العروض من القصيدة المذكورة علِم مقدار الصعوبة في الحصول على المراد منها بالتوقيف من الشراح والمعلمين . فكيف بمن يحل تلك اللغوز من عندياته ويستكنه تلك الرموز من تلقاء ذاته .

3) شرح على التسهيل لابن مالك بديع قارب التمام .

4) تقييد على الجزء المسمى بدرر السمط في خبر السبط .

5) مختصر في الوثائق مشتمل على العقود وفقهها وهو لطيف في نحو

الكراسين وقد كثر نقل الفقهاء عنه . ومن الغريب أني لم أر من ذكره في مؤلفاته حتى من يؤلفون في طبقات الفقهاء ويذكرون المترجم على انه أحدهم ، وهو مطبوع بفاس .

6) اللؤلؤ والمرجان ، من بحر أبي البركات بن الحاج يُستخرجان ، وهو مختاره من ديوان شعر المذكور الذي سماه العذب والأجاج من كلام أبي البركات بن الحاج .

7) ديوان شعره الذي سماه (جهد المقل) وسنتكلم عليه فيما يأتي اتصالاً

هذه جملة ما وقفنا عليه من كتبه اسماً وعيناً أو اسماً فقط وهي كافية في تخليد ذكراه لما اشتملت عليه من الجودة والاتقان حيث العبرة في هذا الصدد بالكيفية لا بالكمية . وديوانه المذكور هو جزء جمعه بنفسه وأهداه إلى تلميذه لسان الدين بن الخطيب . وقد صدّره بصورة الإهداء هذه :

« الحمد لله الكبير المتعال ، فهو المسؤول أن يعصمنا من خطل القول وزلل الأعمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الارسال ، هذه أوراق ضمّنتُها جملة من بنات فكري ، وقِطَعاً مما يجيش في بعض الأحيان في صدري ولو حزمتُ لا ضربتُ عن كتبها كل الاضراب ، ولزمت في دفنها وإخفائها دِينَ الأعراب لكني آثرتُ عل المحو الإثبات ، وتمثلت بقولهم : إن من أحسن ما أوتيته العرب الابيات ، وإذا هي عُرِضت على ذلك المجد ، وسألها كيف

نجت من الوأدِ ، فقد آويتها من حرمكم إلى ظل ظليل ، وأحللتها من فنائكم إلى مُعَرّس ومَقيل ، وأهديتها علماً بان كرمكم بالإغضاء عن عيوبها كفيل . فاغتنم قليل الهدية مني ان « جهل المقل » غير قليل ، فحسبها شرفاً ، ان تبوأت في جنابك كنفاً وداراً ، وكفاها مجداً وفخراً ، ان عَقدت بينها وبين فكرك عَقْداً وجواراً » .

وهذا التصدير هو خير مثال نقدّمه للقارىء من النثر الفني الذي كان أبو القاسم يكتب به ، فهو على تقيده بالسجع قد استوفى غرضه من غير أن يلجأ إلى اطناب أو اغراب ، ثم هو مع ذلك يدل على حسن تصرفه في مروياته من من عوائد العرب وأوابدها فيضمن كلامه ما يناسب من ذلك ويشير إليه بابدع إشارة . كيف وقد كان وِعاءً مُلِىء علماً بأيام العرب وأخبارها وفنونهـا وآدابها فلا عجب أن ينظم في سلوك كلامه بعض هاتيك الدرر فكل إناء يرشح بما فيه .

وأورد المقري حكاية عنه تدل على قوة استحضاره نوردها هنا لمناسبة ما ما ذكر قال : « ونقلت من خط من نقل من خط الفَقيه محمد بن علي بن الصبّاغ العُقَيْلي ما صورته : كان الشريف الغرناطي (بل السبتي) رحمه الله تعالى آيةَ زمانه ، وأزِمّة البيان طوع بَنَانه له شرح على المقصورة القرطاجنية أغرب ما تتحلى به الآذان ، وأبدع ما ينشرح له الجَنان ، إلى العقل الذي لا يُدرك والفضل الذي حُمد منه المسلك ، حدثني بنادرة جرت بينه وبين مولاي الوالد

من أثق به من طلبة الأندلس وأعلامها قال دخل والدك يوماً لأداء شهادة عنده فوجد بين يديه جماعة من الغزاة يؤدون شهادة فسمع القاضي منهم وقال لهم هل ثمّ من يعرفكم ؟ فقالوا نعم يعرفنا علي الصباغ فقال القاضي : أتعرفهم يا أبا الحسن فقال نعم يا سيدي معرفة محمد بن يزيد ! فما أنكر عليه شيئاً بل قال لهم عرف الفقيه أبو الحسن ما عنده فانظروا من يعرف معه رسْمَ حالكم فانصرفوا راضين ولم يرتهن والدي في شيء من حالهم ولا كشف القاضي لهم ستر القضية .

قال محمد بن علي بن الصباغ أما قول والدي معرفة محمد بن يزيد فاشارة إلى قول الشاعر :

اسائل عن ثُمالةَ كلّ حي — فكلهم يقول وما ثُماله
فقلت محمد بن يزيد منهم — فقالوا الآن زدت بهم جهاله

فتفطن القاضي رحمه الله تعالى بجودة ذكائه إلى أنه لم يرتهن في شيء من معرفتهم ممتنعاً من إظهار ذلك بلفظه الصريح فكنى واكتفى بذكاء القاضي الصحيح رحمهما الله تعالى » فهذا من ذاك بل انه إذا استحضر مروياته الأدبية وهو يقضي فَلأنْ يستحضرها وهو يكتُب أولى وأحرى والذي نحفظه في البيتين المذكورين :

سألنا كل حي عن ثمالة — فكل قد اجاب ومن ثماله

وثمــالة بالثاء المثلثة بطن من الازد كان ينتسب اليه المبرد ، وللبيتين ثالث وهو :

فقــال لي المبــرد خــل عــني فقومــي معشــر فيهم نذالــه

ونُسبتْ هذه الأبيات لعبد الصمد بن المعذل وقيل ان المبرد وضعها لانه كان يحب أن يشتهر بالنسبة إلى هذه القبيلة .

ومما يناسب هذه الحكاية في قوة الاستحضار وسماحة الخلق ما ذكره في المرقبة العليا بعد التنويه بما كان له من المهابة في المجالس السلطانية على أنه إذا خلا بخاصته رأوا من تنزله عجباً قال :

«ولقد بتنا معه ليلة بحشه من خارج الحضرة في أناس منهم الشريف أبو عبدالله ابن أرجح السوسي والأستاذ أبو علي الزواوي والوزير أبو عبدالله بن الخطيب اللّوْشي فمالت ذبالة الشمعة في أثناء الليل إلى الذبول فذهب أحد الحاضرين ليقويها فأمسكه القاضي وبادر هو بنفسه لها فأذكى نارها وقوي نورها وقال هم السراج أن يخمد ليلة عند عمر بن عبد العزيز رحمه الله فوثب إليه رَجاءُ ابنُ حَيْوَةَ فأقسم عليه عمر بن عبد العزيز فجلس ، فقام هو فأصلحه فقال رجل أتقوم يا أمير المؤمنين قال قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز ثم قال لنا واضطربت عمامة هشام بن عبد الملك فأهوى الأبرش الكلبي إلى تعديلها فقال له هشام : مَهْ فانا لا نتخذ الاخوان خَوَلا ! »

ولم يصلنا من نثر ابي القاسم الفني غير تلك النبذة المتقدمة .

واما نثره العلمي في شرحيه على المقصورة والخزرجية وفي وثائقه فمُرسَل بيِّن لا تكلف فيه ولا خفاء ويغلب عليه استعمال المصطلحات القديمة وقد يجمع بينها وبين مصطلح المتأخرين والشواهد منه على طرف الثّمام وكثيراً ما يستطرد جملة من الفوائد للمناسبة الكلامية وذلك دليل على مزيد تبحره وكثرة تفننه كما سبق القول .

واما شعره فقد تقدمت منه قطعة وبيدنا قطع اخرى نتعرف منها شاعريته المطبوعة ونظمه المصقول الا اننا نبقّى متعطشين الى مورده العذب حيث ان تلك الصّبابة لا تشفي غليل الباحث ولا سيما اذا كان هاوياً مدفوعاً بحب الاستطلاع وحب المتَاع الى الاستزادة من تلك المحاسن والتملي بهاتيك المفاتن ويقول ابن الخطيب عنه : « واما الشعر فله فيه القِدْحُ المُعَلّى والحظ الاوفى والدرجة العليا طبقة وقته ودرجة عصره وحجة زمانه كلامه متكافىء في اللفظ والمعنى صريح الدلالة كريم الخيم متين الحَبْك خالص السبك واقتنيت منه جزء خصّني به سماه « جهد المقل » اشتمل من حُرّ الكلام على ما لا كفوْ له » .

فهذه شهادة لسان الدين لشعره . وناهيك بها من معاصر مشارك في البضاعة بل من شاعر يقولون عنه : إنه شاعر الدنيا وإليك نماذج من هذا الكلام (الحر) على حد عبارة ابن الخطيب او (الشريف) كما يحق أن يعبر عنه . قال وقد زاره المشيب وابلى شبابه القَشيب :

دعتْني الى لهو التصابي ومادرت بأن زمان اللهو عنيّ ذاهــــب

فقلت لها ما لي وللّهو بعـــد مـــا تولى الصّبا وازورّ للغيد جانب
وقد وخطت بيض من الشعر لمّتي تخبّر ان البيض عني رواغب
أألهو وفجر الشيب قد لاح بدوّه بفودي فقالت اول الفجر كاذب

وقال يصف زيارة من يهواه له وتحقيقه في ذلك أمله :

زارت بأكرم ليلة وفى بهـــا حقّ الزيارة زائـــر ومـــزور
نتطارح الشكوى وقد شرّد الكرى عنا فننجد في الهوى ونغـــور
ثم انجلى الاصباح فانفلتَـــتْ كما يرنو غَزالٌ الربرب المذعُور
حتى اذا قامت تمـــد بنُورهـــا مُتبلّجَ الإصبـــاح حين ينور
طار الفؤاد فصرتُ اعجبُ وهوَ في شرك الهوى قد صِيدَ كيف يطير

وقال في لثْمـه :

ظفِرتُ بلثمها فبدا احمـــرار بوجنتهـــا يزيد القلب وجـــدا
فاغراها بي الواشي فظلّـــــت تلوم ولم أكـــن ممن تَعـــدّى
فما كانت سوى قُبَلٍ بفيهـــا جنَيْن أقاحيـــاً وغَرسْن وردا

وقال في خاله مُوَريا :

كم قلت للرشإ الذي مـــا عنه لي صبر ولا لي عـــن سواه بَـــراح
مالاح خدُك والسوادُ شِعـــاره إلا انثنيتُ ودمْعِيَ السفّـــاح

وقال في شعره :

غزالٌ إنس كم اسيدنيتُه فنأى عني واعــرض مُزوراً بجانبه
طالت عليّ ليالٍ في هواه كمــا طالت عليه ليــالٍ من ذوائبه

وقد يصف رمحاً :

وأصمّ ممطول الكعْوب اذا اقتضى مُهَجَ الكماة فدينه لا يمطَل
متوقــد حتى أقــول أذابِــلٌ بيديَّ منــه أم ذُبال مُشعَــل
لولا التهاب النّصل اينعَ عُــوده مما يُعَلّ من الدمــاء ويُنهَل
فاعْجَب له ان النّجيع بطــرفه رمَــد ولا يخفى عليــه مقتل

وقال يصف دولاباً :

وذاتِ حَنينٍ تستهل دموعُهــا سجاماً اذا يحذو ركائبها الحادي
تعجبت ان ليست تَريم مكانَها ولم تخلُ من تأويب سَير وإسآد
وأرصد تُها في الروض أية عُدة فكانت لدفع المحْل عنه بمرصاد
تخالف ماء المزن حكماً وماؤُها وكلٌ على روض الرّبى رائح غاد
فينجد هذا بعد ما كــان مُتهماً وذاك تراه مُتهمــاً بعد إنجاد
لئن قذفت ذوبَ اللجين على الثرى لقد خلصته القُضب حلياً لأجياد

وقال في ذلك ايضاً :

ومُترعة يعَلّ الروض منهــا اذا عُلّت مــن المــاء الفرات

بدا دُولابها فَلَكاً وراحت بدائرة كواكب سائرات
اذا ما الروض قابلهن كانت عليه بكل سعد طالعات
تراها إن شُعاعُ الشمس لاقى بياض الماء مشرقةَ الايات

وقال وفيه تورية بديعة :

واعجَبُ انها دارتْ بنَوءٍ غزير وهي تَغرُب خاويات
حدائق انبتت فيها الغوادي ضروبَ النور رائقة البهاء
فما يبدو بها النّعمانُ الا نسبناه الى ماء السماء

وله في دواة ، وهو مما انشده في روح الشعر :

وناصعة البياض تخيروها من العاج المُوشّح بالنّضار
اقول وقد صببتُ الحبر فيها كذاك الليل يولج في النهار

وقال على سبيل الفكاهة :

قالوا ابو بكر متى ما حضر الاكلُ طلع
وان تكن وليمةٌ يخُبّ فيها وَيضَع
ما اعجب السعدَ الذي ساعد ذلك اللُكَع
فقلت حقا قلتُم لكنه سعْدُ بُلَع

وانشد له في نثير الجمال هذه القصيدة البليغة وهي مما لعب فيه بالالفاظ

لعباً يدل على قوة عارضته وكان فيها تصحيف كثير صححناه على حسب الوسع :

دعيني من مقال العاذلَين — وخلي بين تَهيْامي وبيني
ومن يك ساليا فلدي حب — سلو القلب عنْه غير هين
عَلِقتُ فمقلتي للنوم حرْب — بأعزلَ وهو شاكي المقلتين
مليح الدّل شاقت كلَّ قلب — شمائلُه وراقت كل عين
جنى وحمى فلم اطلب بثاري — محا جِره ولم اتقاض ديني
اهيم بخده وبمبسِمَيْه — فأنسُبُ بالحمى والابرقين
عقدت مع الغرام ، فبعت فيه — وقاري والتصبر ، صفقَتين
وهمت بناعم العطفين فيه — عذابُ الصب عذبُ المرشفين
تُديرعلى عيناه كؤوساً — كأن سُلافها من رأس عين
فاحلفُ بالمحصّب والمصلى — واعلام الصّفا والمأزِمَين
لأنتصِرنَّ بالاجفان حتى — تكون دموعُها في الحب عوني
وحين تعرّفوا كلَفي ، وقلبي — يصون السر عنهم كل صون
كففتُ المقلتين ليشهدا لي — فجرحت الدموع الشاهدين
فلو أبصرتَ ناظريّ المُعَنىّ — وماء الدمع فوق الوجنتين
بصرتَ بوردتين يسحّ منها — سكيبُ القَطر فوق بهارتين
اذا اعرضتَ اعرض كلُ صبر — وآذن نومُ احداقي ببَين
ولم تبدُ الرياض بحسن زي — ولم تزه الربا بكمال زين

كـأن نسيمهـا ممـا اقـاسي ... يهبُ عليلُـه بـالابـردَيْن
كـأن الـزّهـر غِبّ سما بكته ... لمـا أبدي ، حَمـامُ الشاطئين
أهيجُ لها الهوى وتهيجُـه لي ... فنُلفَي في الهوى مُتطارحـين
وقد هاج الحمامُ الـوجـد قبلي ... لِتوبـة عند بطْـن الواديين
بِعَيْشك هل تُرى ثـاني وحيدٍ ... يُرى بـك ثالثـاً في النيرين
وهل يدنو من الآمـال صـب ... بعيـد بين هُـدب الناظريـن
فان يكن الجمـال حبـاك مُلكا ... وايـد نـاظريـك بحـاجبين
فما أرضى لملكـك أن كِسرى ... وقيصرَ في مَقـام الحـاجبين
إنّ اقلّ حظ يُبتغَى مـن ... رضـاك يفي بمُلْك الحـارِثين
تُخبّرني وفي عِطفَيـك لِين ... فعالُك أن قلبـك غيرُ لَيّن
واعرفُ في لحاظك مـا رأت في ... ظُبـا الثقفِيّ قاتِلـةُ الحسين
وألقي في الهوى بيدي ومـالي ... على فتكات لحظـك من يَدين
على مَ الغيبّ عنى لا أغبّـت ... بـك الخيراتُ هـامية اليدين
ولا جـرّت الرياح عليـك الا ... صَبا وسَقى محلّك كـلّ جَوْن

ونختم الكلام بايراد بعض ابيات من مرثية تلميذه ابن زَمْرَك التي قـال فيها ابن الاحمر : « ومما بَذّ به يعني ابن زمرك سبقاً وتبريزاً ، وعرّضه على نقَدَة البيان فرأيت منه كل مذهبة خلصت إبرازاً مرثيتُه للقاضي المعظـم الشريف ابي القاسم الحسني من شيوخه وهي :

أغرّى سُراةَ الحـي بـالاطراق ... نبـأ أصـمّ مَسامـع الآفاق

امسى به ليل الحوادث داجيـاً والصبح اصبحَ كـاسف الاشراق
فُجع الجميع بواحد جُمعت له شتّى العلا ومكارم الاخـلاق
ماذا تُرجّى من زمـانك بعدما عَلِق الفنـاء بـأنفس الاعلاق
مَن تحسُد السبعُ الطّباق عـلاءه عالَوْا عليه من الثـرى بطبـاق
اسفاً على ذاك الجـلال تقلصـت افياؤه وعُهدن خيـر رواق »

وهي طويلة جداً نكتفي منها بهذا . واطلبها ان شئت في نفح الطيب .

طبع على
مطابع دار الكتاب اللبناني

ابن الحاج الفاسي

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٢٢ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٦١١ - ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقياً: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٠١٥٦٣ - ص ب: ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



22

ابن الحاج الفاسي

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

ابن الحاج الفاسي

ولادته ونشأته ـ شيوخه الذين أخذ عنهم ـ هجرته إلى المشرق وتقدير تاريخها ـ من دواعي ضياع ترجمته ـ أسرة بني الحاج العبدرية ـ تصدره ـ مدرسة ارباب القلوب ـ الآخذون عنه ـ كتابه المدخل تحليله وتقويمه ـ تاريخ فراغه منه وتاريخ وفاته ـ نقول مختلفة عنه ـ صور من المجتمع المغربي على عهده ـ فصل في تربية الأولاد .

لم يكن اهتمام الناس بابن الحاج الفاسي صاحب كتاب المدخل على قدر اهتمامهم بمدخله ، فقد اشتهر هذا الكتاب وانتشر ما بين الاوساط العلمية والعامية منذ اواسط القرن الثامن اعني من لدن فراغ مؤلفه منه ولكن ذلك لم يكن باعثاً لأحد على البحث عن ترجمة ابن الحاج هذا وتقصي اخباره وتتبع آثاره على حسب ما تقضي به مكانته العلمية والدينية التي كان هذا الكتاب ثمرة من ثمراتها الناضجة . وعلى ذلك فنحن امام اسم من اشهر الاسماء وحياة لا نعرف من تفاصيلها شيئاً وان تكن لصاحب ذلك الاسم المشهور ، فلعلنا نكشف شيئاً من اسرارها في هذه السطور .

ولد ابو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العَبْدَري الفاسي الشهير بابن الحاج بيلده فاس على ما نظن في اواسط القرن السابع لانه توفي سنة 737 وقد بلغ الثمانين او جاوزها على ما عند ابن حجر في الدرر الكامنة ، وفي الطبقـــات الكبرى للشعراني انه عاش بضعاً وثمانين سنة . وقد نشأ ودرس اولا ببلده وان كان هو لا يذكر من مشائخه الفاسيين الا ابا عبد الله الفاسي الذي هو لشيوخ الصوفية اقرب من شيوخ العلم .

وثم شيخ آخر من اهل تلمسان يذكرون انه اخذ عنه وذكره هو في صدد التنويه بورع اهل العلم وان كنا لا ندري اين أخذ عنه وهذا الشيخ هـــو ابو اسحق التنيسي من اهل العلم والعمل الذين تغلب عليهم النزعة الصوفية ايضـــــاً .

واما عمدته وسنده الذي لا يلهج الا به ولا يستوحي مُثُلَه الا منه فهو ابو محمد عبد الله بن ابي جَمْرة الفقيه المحدث الزاهد المعروف وهو اندلسي ولا ندري اين لقيه اول مرة ، وانما نعرف انهما تصاحبا في مصر زمناً طويلا ، وكان اول ما جاء للقراءة عليه قال له ابن ابي جمرة : « اما تقرأ على العلماء؟» فقال ابن الحاج : « أريد ان اقرأ عليك » فقال له : « كيف تــترك العلماء وتأتي تقرأ على مثلي ؟ » فقال « أريد ان اقرأ عليك » فقـــال « استَخِر الله تعالى » قال « فاستخرت الله تعالى ثم جئت اليه فقلت اقرأ ! قال عزمت؟ قلت : نعم ! فقال لي : لا يخطر بخاطرك ولا يمر ببالك أنك تقرأ على عـالم

ولا انك بين يدي شيخ انما نحن إخوان مجتمعو ن نتذ اكر اشياء من احكام الله تعالى فعلى اي لسان خلق الله الصواب والحقّ قَبِلْناه وان كان صبياً من المكتب » .

ويظهر من هذا الكلام أنه لما لقيه كان على جانب من العلم وإلا لم يقل له ابن ابي جمرة انما نحن اخوان ! وهذا الكلام بقدر ما يدل على تواضع ابن ابي جمرة يدل على حسن نظر ابن الحاج في اختيار الشيخ الذي يتتلمذ له.

وهناك ايضاً من الشيوخ الذين اخذ عنهم وأثروا كثيراً في مجرى حياته الشيخ ابو محمد عبد الله بن محمد المَرْجاني وهو من اهل تونس وقد كانت رحلتهما الى المشرق في وقت واحد كما يؤخذ من الحكاية التي ذكرها في المدخل عن هياج البحر واضطراب المركب بهم ولجوء اهل المركب الى الشيخ فامرهم بالصدقة واحتازها منهم ووزعها على الفقراء الذين بالمركب فسكن البحر ، بل ان عبارته تعطي انه خرج في صحبة هذا الشيخ من اول وهْلة ، فهو اذن كان السبب في هجرته الى المشرق وذلك غاية ما يكون من تأثير الاستاذ على تلميذه .

ولم يذكر مع الاسف تاريخ هذه الرحلة على عادته في جميع الاحداث التي يتعرض لها لانه انما يقصد فيها لوجه من الاعتبار وشيء من الاستذكار ولا يريد بحال الحدث الزمني والواقع التاريخي .

وذكر ابن حجر انه لما قدم لمصر سمع الموطأ من الحافظ تقي الدين عبيد الاسعردي وحدث به والاسعردي هذا توفي سنة 692 وعليه يكون قدوم ابن الحاج الى مصر قبل هذه السنة ، ولو انا جعلناه قبلها بعام فقط لكان قد أقام بها اربعين سنة وهي مدة تقرب من نصف عمره فكيف اذا كان قدم اليها قبل ذلك بكثير ؟

والمقصود من هذه الملاحظة انه خرج من بلاده قبل ان يشتهر واقام ببلد غربة فلذلك لم تتوفّر الدواعي على كتابة ترجمة مستوفاة له ، وهو كان من الهَضْم لنفسه بالمكان الذي يجعله لا يتحدث عن شخصه ولا يذكر من ماجرَيات احواله الا ما فيه عبرة للقارىء لا فائدة المؤرخ وهكذا ضاعت معالم ترجمته كما ضاعت تراجم كثير غيره ممن كان على هذه الحال ومن المغتربين .

ورأيت في رحلة ابن رُشَيْد رواية عن احد الشيوخ اسمه ابو عمرو عثمان ابن محمد بن عبد الله بن ابرهيم العَبْدري الفاسي عرف ابن الحاج كان حياً في العشرة السادسة من القرن السابع فهل يعني هذا انه كان بفاس أُسرة علمية منسوبة الى بني عبد الدار وتعرف ببني الحاج كما ان هناك أُسرةً بهذا الوصف منسوبة الى بني سُلَيْم وتعرف ببني الحاج ايضاً ؟ واذا كان هذا صحيحاً فماذا يكون مُتَرجَمُنا من هذا الشَيخ في صلة النسب ؟ اننا لا نستطيع الاجابة عن شيء من ذلك لان مصادر ترجمة ابن الحاج هذا قليلة جداً وشحيحة جداً .

وعلى كل حال فقد وصلنا من هذه التحرّيات الى انه ولد ونشأ بفاس وأخذ عن بعض اعلامها فشدا طرفاً من العلم قبل ان يرحل الى المشرق وربما اخذ بتلمسان ايضاً عن بعض اعلامها وصحب الشيخ ابا محمد المرجاني في تونس ورافقه في رحلته الى المشرق ، ويكون لِزاماً علينا ان نقول انه حجّ في رحلته هذه ثم استقر بمصر حيث لازم الشيخ ابنَ ابي جمرة الى ان توفي في سنة 699 فحل محله في الهداية والارشاد .

وقد اجمع من ترجموه على انه كان احد العلماء العاملين المشهورين بالزهد والورع وان صحبة ارباب القلوب عادت عليه بالخير والبركة فلُوحظ بالجلالة والمشْيَخة وقام على ساق الجد في احياء السنة واماتة البدعة وهدى الله به الى طريق الحق والرشاد خلقاً كثيراً . وعبارة ارباب القلوب هذه مما اختصت به او كادت الجماعة التي تتألف من بعض شيوخ المترجم كالمرجاني وابن ابي جمرة وبعض شيوخ هاذين ايضاً ويمثلها هو احسن تمثيل ، ولقد كوّنت هذه الجماعةُ طريقةً او قُلْ مدرسة هذا شعارها ؛ فهي كانت تعنى باعمال القلوب اشد العناية وتعمل على تنمية الاجور بالنيات الحسنة فضلاً عن ملازمة سبيل السنة في الحركات والسكنات واسقاط الدعوى بالمرّة وتحكيم الشرع في البواطن والظواهر وعدم الاغترار بلوائح الغيوب او الكرامات ومن ثم كانت هـــذه الطريقة ابعد الطرق الصوفية عن الانحراف وانجاها من الضلال وقد جعلهـا الشيخ زروق في قواعده طريقةَ الفقهاء حيث قال : « وللفقيه تصوّف رامَه ابنُ الحاج في مَدْخله » وحُبِّب الينا نحن ان نسميها مدرسة لا طريقة لبُعْد

ما بينها وبين الطرق في الوسيلة والمقصد وكان الشيخ زروق ممن سار على هديها في القرن التاسع وكذلك الشيخ ابن ناصر في القرن الحادي عشر والشيخ كَنّون في القرن الثالث عشر [1] .

اصبح ابنُ الحاج من العلماء الذين يشار اليهم بالبنان في مصر وصارت اليه مشيخة هذه الجماعة من ارباب القلوب ، وبما انها جماعة قليلة لانها ممن يصدق عليهم قول الرسول (ص) لا تزال طائفة من امّتي ظاهرين على الحق فإنّا نجد قِلّةً في الآخذين عنه والمتخرجين به وان كانت هذه القِلةُ مما يرجح بالكثرة في ميزان الفضائل النفسية والرسوخ في العلم والعمل ؛ ناهيك منها بالشيخ عبد الله المنوفي امام أهل العلم والورع في وقته وبالشيخ خليل بن اسحق الجندي الفقيه الزاهد عمدة المالكية صاحب المختصر الفقهي المشهور قال ابن حجر « كان ابوه حنفياً لكنه كان يلازم الشيخ ابا عبد الله ابن الحاج ويعتقده فشغّل ولدَه مالكياً بسببه » فلو لم يكن ممن اخذ عنه وتخرج في مدرسته الا احد هذين الفاضلين لرجح بالعدد الكثير الذي لا غِناء فيه فكيف بهما معاً وقد ذكر ابن حجر في ترجمة شمس الدين الرفّاء الملقب حَمام الحرَم انه كان يذكر انه سمع المدخل لابي عبد الله بن الحاج منه فهذا تلميذ آخر للمترجم على نهجه وطريقته ولا تغفل عما في هذه الصيغة « كان يذكر انه سمع المدخل ... » من اكبار لشأن هذا السماع !..

---

1) ونشير للمناسبة بأن طبع كتاب المدخل لأول مرة كان على أصل من خزانة الشيخ كنون كما حدثني بذلك بعض الأعلام .

والمدْخَلُ هو كتاب ابن الحاج الوحيد الذي وصل الينا بل لا نظن انه ألّف غيره وهو نفسه كان عُرضَةً للعدم لو لم يُقيّض الله له احد الفضلاء ممن عرف قيمته فأُنقِذ على يده ، والحكاية كما ذكرها مؤلفه هي انه لما بلغ فيه الكرّاس الثاني عشر حصل له قلق وانزعاج في اخذ العلم عنه قال : ولست عند نفسي اهلا لذلك » ولا يخفى ما في هذا من الهضم لنفسه والتواضع الجم واسقاط الدعوى مما هو من صفات هذه الطائفة كما تقدمت الاشارة الى ذلك : ثم قال: « فعزمت على ان أُعدم تلك الكراريس فاخذتها وشددت عليها ودفعتها لبعض الاخوان وقلت له يثقلها بحجر ويلقيها في البحر فمكثت عنده اكثر من عام. ثم جاء الفقيه الخطيب ابو عبد الله محمد بن عبد المعطي المعروف بابن سَبُع خطيب جامع الظاهر بالحسينية وفقه الله وايانا فطلب الكراريس فاخبرته بما جرى فشق عليه وقال لي اسأل عنها فلعله ان يكون لم يفعل ما امرته به الى الآن فقلت له ان له مدة فقال ولعل ان تكون قد بقيت فسألت الشخص الذي امرته بتغريقها فقال لي هي باقية الى الآن فسألته عن موجب تركه لها فاخبر انه وضعها في موضع في بيته حتى يتفرغ فيلقيها في البحر قال فعزمت على ذلك مراراً ثم اني أنسى وهي الى الآن عندي لم اغرقها بعد فطلبتها منه واخذتها ودفعتها للفقيه الخطيب المذكور فطالعها ثم أتاني بها فقال لي يحرم عليك اتلافُها وحضّني على اتمامها وسألني مراراً ان اعين اسمه فيها وانه كان داخلاً في جملة من اعان عليها لكي يدعى له لكونه كان سبباً في اتمامها » اذن فنحن مَدينُون باتمام هذا الكتاب وبقائه لهذا الفاضل . ولذلك لا نظن ان يكون لابن الحاج غيره. ولعل معركة حامية نشبت بينه وبين ابن سبع في شأن الابقاء على هذا التأليف

وفي مسألة التأليف من اصله وطرق الدعوة والتبليغ ولذلك نجده يلح عليه في ذكر اسمه في جملة من اعان على اتمام الكتاب وانقاذه من العدم لينال بركة الدعاء ممن يقف عليه وليشجع المؤلف بتحمله مسؤولية اخراجه للوجود فرحمه الله على ذلك .

وكانت فكرة هذا الكتاب مما اوصى به اليه استاذُه ابن ابي جمرة كما ذكره هو في اوله ، وحقيقتها وما تهدف اليه هو العمل على ايجاد مجتمع صالح اشبه بما فكر فيه الفلاسفة الاقدمون من المدينة الفاضلة ولكن عن طريق التدين والتشرع بتجريد الاعمال صغيرها وكبيرها ولو كانت عادية من المقاصد الخاصة وإلباسها بالنية الحسنة لباسَ المقاصد العامة فيكون الانسان في عمله الذي يكسب به قُوتَه وهو كأنه في عبادة لا تنقطع بما يحتسب من النيات العديدة التي يكتسب بها الاجور العظيمة .

وليس هذا امراً جديداً في هذه الفكرة فانه مما وردت به السنة وكثُر حديثُها عنه ولكن الجديد فيها هو تفصيل هذه النيات والتوسع في بيانها مما لا يُمكن ان يخطر ببال كل واحد ويستحضره كل محترف ، فالتوقيفُ عليه وتلقينُ جزئياته التي لا تنحصر هو الجديد وهو موضوع الكتاب . ولعل القارىء لا يدرك وجه الارتباط في الفكرة بين تحسين النيات وإيجاد مجتمع صالح على نحو ما فكر فيه الفلاسفة المتقدمون ولكن ادراك ذلك جِدّ سَهْل اذا علم ما تُحدِثُه هذه النياتُ في نفس المرء من الانعطاف نحو بني جنسه واخلاص النصح لهم وتكريس جهوده لتيسير مصالحهم فهو يعُدّ نفسه عضواً من جسم

واحد لا يمكن ان يسعى الا في منفعة ذلك الجسم وراحته ولا يمكن ان يصدر منه ما يؤذيه او يضُرّ به . قال في اثناء كلامه على صناعة الخياطة وما يجب على صاحبها من الاحتياط لدينه والنصح لاخوانه :

« فان قال الصانع مثلاً إذا تحرزت مما ذكرتموه ذهبت المعيشة او قلّت والحاجة تدعو الى الصنعة لاجل الضرورات والعائلة وقَلّ ان تتأتى الصنعة مع ما ذكرتم فالجواب ان التحرز من تلك المفاسد هو الذي يجلب الرزق جلْباً ويسُوقه سوْقاً لان الله تعالى مع المتقين الموفين بالامانة ، ولا شك ان من نصح في صنعته فقد نصح لاخوانه المسلمين ومن فعل ذلك كثر الحلال لديه لانه إذا عُرف بذلك بادر اليه أهل الغلم والصلاح وكان كثير من اشغالهم على يديه وكسبهم على ما يعلم من الحلال يعين على الطاعة ويكسل عن المعصية كما تقدم . فاذا امتثل الخياط ما تقدم ذكره ومشى على ما وقع التنبيه عليه او على اكثر منه وتحرى لنفسه فلا يبالي في اي وقت يفجوءه الموت ليلاً كان او نهاراً كان في دكانه او في بيْته كان في صنعته او في صلاته لانه متى جاءه الموت وجده على الاستقامة والطاعة والامتثال لامر الله ونهْيه كما تقدّم » .

وقال في فصل تاجر البَزّ : « قد تقدّم ان الرزق لا يسوقه حرصُ حريص ولا يجلب بالحِيَل والتدبير . الا ترى ان كثيراً ممن لا يُحسن التصرف ؛ المال لديه كثير وعكسه ممن يحسن التصرف بسبب حذقه ونباهته فقير لا شيء لـه . وكذلك تجد بعض من لا يحسن صنعةً لديه الرزق كثير وبعض من يحسن

صنائع جملة لا يقدر على قوت يومه الا بمشقة وتعب الى غير ذلك من أحوالهم وهي كثيرة . واذا كان ذلك كذلك فيتعين على التاجر ان يجلس بنية التيسير على اخوانه المسلمين واعانته لهم بما يحصله في دكانه من السلع حتّى يأتي من هو مضطر او محتاج فيجد حاجته متيسرة دون تعب لان بعض الناس يحتاج الى عشَرة اذرُع مثلاً او اكثر من ذلك او اقل فلو كلف هذا ان يشتري سوسية او مقطعاً على الكمال حتّى يأخذ حاجته منه لشق ذلك عليه وصعب ، فاذن قد تعين ان ما يحاوله في دكانه من باب التيسير على اخوانه المسلمين وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام (والله في عوْن العبد ما دام العبدُ في عون اخيه) ... » ثم مضى في بيان نيات هذا التاجر ومعاملته مع زملائه وجُواره في السوق ومع زبنائه والمشترين منه رجالاً ونساء مما يطول تتبعه ، ومدارُه كغيره من الصناع والمحترفين على النصح والاخلاص واستحضار انه متعبد بفعله ذلك وسببه .

هذه هي فكرة التأليف في أصلها وان كان قد خرج عنها الى ذكر البدع وحوادث الوقت والتشنيع على اهلها وزجر مرتكبيها كما انه رد في الجزء الاول على تأليف لبعضهم في جواز القيام للداخل ولأهل الفضل مطلقاً فاشبع الكلام في ابطال حجج هذا المؤلف بما لا كفاء له في الحسن والقوة وقد استغرق رده هذا ما ينيف على مائة وخمسين صفحة . وكذلك رد في الجزء الرابع على تأليف لآخر في تجويز صلاة الرغائب في المسجد فتتبعه بنقض ادلته واثبات ان ذلك بدعة منكرة لا قائل بها قبل هذا المؤلف ولا دليل عليها من كتاب او

سنة وقد اطال في ذلك ايضاً ولكن دون رده الاول .

والحقيقة ان خروجه هذا عن فكرة الكتاب الاصلية هو توسّع في أغراضه وشرح لمُراده وليس حشْواً ولا استطراداً ، على ان اسم الكتاب مما يشمل هذه الامور كلها ويستوفيها استيفاء وهو (المدخل الى تنمية الاعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها وقبحها) . وقد كان القسم الثاني من مقاصد الكتاب مَثار نزاع لا يخلو منه مَن ألّف في البدع فلم يسلم له العلماء كل ما فيه ونبهوا على انه ينبغي التحفظ في بعض ما انكره وعدم الاخذ بقوله في ذلك حتى عمل منه الشيخ ابو العباس بنُ عَجيبة مختصراً في نحو الخمسة كراريس اقتصر فيه على نيات العامل من مدرس وصانع وتاجر ومحترف على ما كان يقتضيه الوضع الاول للكتاب .

يقول ابن حجر فيه « وجمع كتاباً سماه المدخل كثير الفوائد كشف فيه عن معايب وبِدَع يفعلها الناس ويتساهلون فيها واكثرها مما يُنكَر وبعضها مما يُحتمَل » .

وفي ترجمة ابن ابي جمرة من نيل الابتهاج ان الامام ابن مرزوق الحفيد ذكر في شرحه على مختصر خليل ان ابن ابي جمرة وتلميذه ليْسا من الائمة المعتمَد عليهم في نقل المذهب قال هكذا رأيته في شرحه مُعترضاً به على خليل ولا يخفى ان خليلاً يعتمد على صاحب المدخل ونقل عنه في التوضيح في غير موضع فتأمل ذلك .

ولعل كلام ابن مرزوق هذا مما يؤول الى قول ابن حجر في المسائل التي تحتمل فهي مما لا بأس به عند الفقهاء ولكنها عند ارباب القلوب مُنكَر لا هَوادةَ فيه كمسألة القيام والسماع والذكر جماعةً وصلاةِ الرغائب في المساجد ونحو ذلك اما اذا كان يقصد غير ذلك فهو من التعصب المذهبي الذي كان ابن الحاج خلْواً منه وحذر كثيراً منه في كتابه ولعلنا ننقل بعض كلامه في ذلـــك .

ومما يحسن ذكرُه في التعريف بقيمة المدخل انه يعطي صورة واضحة عما كان عليه المجتمع الاسلامي في مصر والبلاد الشرقية على العموم في القرن الثامن الهجري من انحلال في الاخلاق وخراب في الذمم وابتداع في الدين وذلك على عكس ما كان عليه الحال في المغرب في ذلك كله او جله فان المُفارقات التي يذكرها بين البلادين في هذا الصدد تعطي ان المغرب كان على قدَم صِدْق في دينه وانه كان اقرب حالا الى الاصلاح من كل قطر اسلامي غيره وان القانون الخُلُقي فيه كان دائماً هو السائد في علاقات الناس بعضهم مع بعض والسبب في ذلك هيمنةُ أهل العلم والصلاح على المجتمع وبنــــاء الاحكام وسياسة البلاد على القانون الفقهي الاسلامي الذي استنفد من جهود الباحثين في المغرب ما لم يستنفده علْمٌ سواه وسنعرض لامثلة مما ذكره شاهداً في هذا المقـــــام .

وثم فوائد اخرى مما امتاز به المدخل وهي مما يرجع الى نظر سديد للمؤلف

في بعض المسائل او تأويل حسن لبعض النصوص او تنبيه على بعض النكت الخفية وغير ذلك من ادلة عالِميّته وتعمّقه في البحث والنظر .

وان ننس فلا ننس اسلوبه الكتابي السهل الممتنع الذي قَلّ ان يوجد له نظير في كتابات الفقهاء امثاله فانك تقرأ له الصفحة والصفحتين ولا تشعر بأدنى تعب أو قلق في الفكرة او الصورة الكلامية التي يؤديها بها فاذا ما نقل كلاماً لغيره شعرت للحال بالفرق العظيم بينه وبين كلامه وجعلت تتلمس الفائدة منه والغرض الذي لاجله جاء به ، وفيما ننقله من كلامه بعد برهان واضح ما نقول .

وقبل ان نستعرض النماذج التي اختّرناها من المدخل كشواهد على ما قدمناه من الآراء والافكار نختم الكلام عن ابن الحاج بانه لم يزل على ما عُهد منه من الانقطاع للعبادة والوقوف عند حدود الشريعة الى ان اختَرَمَتْهُ المنية في جمادى الاولى من سنة 737 عن بضع وثمانين سنة على ما تقدم وكان قد أضَرّ في آخر عمره وأُقعِد رحمه الله ونفعه بذلك . وفرغ من تأليف المدخل في 7 محرم عام 732 قبل وفاته بخمسة اعوام واشهر .

والى القارىء الآن بعض الفصول المختارة من هذا الكتاب المفيد ، فمن ذلك هذا الفصل في حض العالم على تعليم الناس السنة وعدم الاقتصار على اقوال الفقهاء :

« (فصل) وينبغي له ايضاً ان يتفقد اخوانه وجلساءه في اثناء المسائل

والفروع بمعرفة السنة والعمل بها والتنبيه عليها ومعرفة فضلها وعُلُو قدرها وقدر من يعمل عليها ويتبعها والتجنّب عن البدعة والتحذير منها وما يحصل بها من المقْت لفاعلها ، فان هذا العلم اليوم هو الاصل وهو الذي يتعين فرضَ عين على اكثر الناس ، لأنّا نجد كثيراً من طلبة هذا الزمان يقعدون في مجالس العلماء وهم صغار ثم يَتشيبون وهم على ذلك الحال من حضور المجالس وقلّ ان تجد منهم من اذا ذُكِرت له سُنة او بدعة يعرفها او يتنبه لها لما قد تربى عليه من ترك هذا الفن إلا قولَه إن كان حاذقاً نبيهاً : ذهب الشافعي الى كذا وذهب مالك الى كذا وقال ابنُ القاسم كذا وقال الرّبيع كذا فيبحث في بعض الفروع ولا يعرف غير ذلك . وهذا قبح عظيم شنيع ان تكون هذه الطائفة المنسوبة تسأل احدَهم عن السنة في بعض تصرّفه لا يعرفها او بدعة في زمانه لا يعلمها بل يحتج على جوازها لاجل العوائد المستمرة كما تقدم فاذا نبهَهم على ما ذكر تيقظوا للسنة في تصرفهم فاحبوها وتنبهوا للبدعة فابغضوها وهذا اليوم متعين على كل من يتكلم في مسألة فكيف بهذا العالم الذي قعَد يُعلّم الاحكام وواجب عليه التغيير باللسان ، فاذا تكلم بذلك في مجلسه عُرفَت السنة اذ ذلك منه وعُرفت البدعة ، وأقل ما يحصل فيه من الفائدة ان يبقى كل من حضر يعلم من اي قسم هو وفي اي شيء يتصرف وهل هو في سنة او في بدعة . وهذا خير عظيم لبقاء هذا المنصب الشريف نظيفا لا يُنسب اليه غير ماهو فيه ، فتزول بسببه هذه الثلمة التى وقعت لنا في زماننا من البدع المحدثة التي تنسب الى انها من السنة . فاذا نبه عليها هذا العالم عُرفت ومع

ذلك فالاكثر منهم يتبع ويمتثل لان الخير والحمد لله لم يُعدَم من الناس وان عدم في بعضهم فهو موجود في آخرين ».

وهناك ما كتبه في ذَمّ التعصب المذهبي اثناء كلامه على آداب المدرس :

«ثم يوجه مذهبَهُ وينتصر له ، وذلك بشرط التحفظ على مَنصِب غير إمامه أن ينسُب اليه ماينسب بعض المتعصبين من الغَلط والوهْم لغير امامة .

فان كنت على مذهب مالك مثلا فلا يدخلك غضاضة لمذهب الشافعي او غيره من الأئمة رضي الله عنهم لانهم الكل جعلهم الله رحمة لك لانهم اطباء دينك كلما اعْوَجّ امر في الدين قوّموه ، وكلما وقع لك خلل في دينك اتفق الكل على ذهابه عنك وتلافي امرك واصلاحه واختلفوا في كيفية الدواء لك على ما اقتضى اجتهاد كل واحد منهم على مقتضى الاصول في تخليصك من علتك وحِمْيَتِك وإعطاء الدواء لك ، فاذا رجعت الى طبيب منهم وسكنتَ الى وصفه وما اقتضاه نظرُه من المصلحة لك فلا يكن في قلبك حَزازة من الاطباء الباقين الذين شفَوْا مرض غيرك من اخوانك المومنين وقد اقامهم الله لمصلحة الامة وتدبير دينهم فاياك اياك ان تجد في قلبك حزازة لبعضهم وان قام لك الدليل ووضح على بطلان قول من قال ، لان من قال ما قال ما قاله مجّاناً بل مستندا الى الاصول ولو كان حاضرا يبحث معك لرأيت مذهبه هو الصواب لما يظهر لك من بحثه واستدلاله .

الا ترى الى قول مالك رحمه الله لما ان سئل عن ابي حنيفة فقال رأيته رجلا

لو اراد ان يستدل على هذا العمود انه من ذهب لفعل، فيكون قلبك واعتقادك مع لسانك مُجلاً لهم ومعظّما ومحترما وان كنت قد خالفتهم بالرجوع الى امامك في بعض الفروع فانك لم تخالفهم في اكثر الفروع فالاصول قد جمعت الجميع والحمد لله .

الا ترى الى جواب مالك رحمه الله للخليفة لما اراد ان يكتب الى الاقاليم بكتاب الموطا وبالامر ان لا يقرأ احد الا اياه فقال له مالك لاتفعل يا أمير المؤمنين فان اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قد تفرقوا في الاقاليم وقد اخذ الناس عنهم ، فانظر هذا الكلام منه مع اعتقاده فيما ذهب اليه انه هو الأولى والأرجح على مقتضى الاصول والنظر فلم يطعن على ماذهب اليه غيرُه ولم يَعِبْه ولم يقل الأولى ان يرجع الى مارأيته فيكون هذا العالم يتأسى بهذا الإمام في التسليم لمذاهب الناس في الفروع والاحكام مع اعتقاد الصواب فيما ذهب اليه دون تغليط غيره او توهيمه» .

ومما سجله من المفارقات بين الحالة الاجتماعية في المشرق وبينها في المغرب :

1) العلماء في المشرق يتنوّقون في اللباس ويتميزون بهيئة مخصوصة حتى ان بعضهم لَيغْرِزُ الابَر في الطيْلسان مع العمامة كيلا يكشفه الهواء كما تفعل النساء ومنهم من يفصل من كمه ثوبٌ لغيره من كثرة سَعته وقد ادى ذلك الى ان بعض المُخايلين من اهل اللهو واللعب اذا عملوا الخيال بحضرة بعض العوام وغيرهم في بعض الاوقات يُخرِجُون في اثناء لعبهم لعْبة يسمونها (بابة القاضي) فيلبسون زيّه من كبر العمامة وسعة الأكمام وطولها وطول الطيلسان فيرقصون به ويذكرون عليه

فواحش كثيرة ينسبونها اليه فيكثر ضحك من هناك ويسخرون به ويكثرون النّقوط عليهم بسبب ذلك فلو أنهم اتبعوا السنة المطهرة لسلموا من هذه الإهانة...
مع ان علماء المغرب الى الآن لايعرفون ثياب الدروس ولا يعرجون عليها فالحمد لله (الذي) بقي من الامر بقية تعرف في بلاد المغرب العالم الكبير المرجوع اليه في الفتوى والمقلد في النوازل الذي يحضر عنده من الفقهاء الجمع الكثير اذا قعد لأخذ الدروس لا يعرف من بينهم بل هو اقلهم لباساً لانه أزهدهم واورعهم فهو اقلهم تكلفا من الدنيا وربما يخرج للسوق لشراء حاجته بيده لانهم لا يتخذون لانفسهم خادما ولا يتخذون مركوبا بل يحمل احدهم حاجته بيده وربما اجتمع في يده الخضرة والكانون واللحم والعجين وغير ذلك وربما أتاه القاضي بجماعته ليستفتيه في بعض النوازل وهو على تلك الحالة في السوق فيقف معهم ويفتيهم وهو على تلك الحالة ثم يرجعون ويمر هو الى بيته وليس فيهم من يجسر على ان ياخذ شيئا من يده او يمشي معه اتقّاء على خاطره وعملا على مايختاره منهم واذا تفرق الناس عنه من الدرس خرج وحده لاسبيل الى من يتبعه اتقاء على خاطره .

ويذكر بعد ذلك مخالطتهم للعوام ومداخلتهم لهم في البيع والشراء والأخذ والعطاء وتخصيصهم الاوقات التي يكون العوام فارغين فيها للدروس العامة كبَعْدَ صلاة الصبح مباشرة وغير ذلك من الامور التي تعود بركتها على الناس كافة حتى قال : «الا ترى الى ماجرى للامام الطّرْطُوشي رحمه الله تعالى وكان من المتأخرين لما ان ورد الديار المصرية ليحج فلما ان حج ورجع وجد الديار المصرية شاغرة من العلم ولا يتكلم احد في مسألة جهاراً ولا يقدر

ان يمسك في يده كتاباً لغلبة الامر من السلطنة على ترك ذلك لبدعة كانت فيهم تدينوا بها فلما ان رأى الامام الطرطوشي رحمه الله هذا الحال ودّع رفيقه من الاسكندرية وارسل السلام الى ولده بالمغرب وقال هذه بلاد لايحلّ لي ان اخرج منها لـمّا غلب فيها من الجهل فجعل رحمه الله يقعد على دكان بيّاع فيعلمه ما يحتاج اليه في عقيدته وفرائض وضوئه وسننه وفضائله وكذلك تيممه وغسله وصلاته ثم ينظر لما عنده من السلع فيعلمه ما فيها من الأحكام التي تلزمه وكيفية تعاطيه بيعها وشراءها وكيفية دخول الربا عليه والسلامة منه ان كان مما فيه الربا فاذا فرغ منه يقول له علّم جارك ثم ينتقل الى دكان آخر حتى قام العلم على مناره وزال الجهل في حكاية يطول ذكرها .. الخ

وهنا نتساءل هل كان هذا هو السبب في اقامة المترجم ايضا بتلك الديار وعدم رجوعه الى وطنه ؟ ..

2) المساجد تجد الجامع الأعظم في غالب الاوقات اذا صلى الامام يستره عوامّ الناس ممن لايعرف العلم وقد يطرأ عليه سهو فلا يجد من يُسَبّحُ له ومن يستخلفه ان جرى عليه امر يحوجه للخروج من الصلاة فيكون سبباً لافساد صلاة المامومين ثم انك اذا نظرت الى الصف الاول لا تجد فيه في الغالب من يُقتَدى به عكس ماكان عليه السلف والخلف رضي الله عنهم اجمعين وقد قال عليه الصلاة والسلام (ليَلِيني منكم اولوُ الاحلام والنهى) ...

وهذه سنة قد أميتَت وتُرِكت في الغالب في هذا الزمن لكن والحمد

لله بقي منها بقية خير قائمة بهذه الشعيرة في بلاد المغرب فانك تجد بها المساجد مُصانَة مُرفّعة عظيمة لا ترفع فيها الاصوات ولا تُدخَل الا للصلاة او لمجالس العلم . وما قدمناه من الترتيب في الصف الاول وغيره فهم مَاشُون على ذلك الاسلوب او قريب منه ولهم عادة حسنة وهي ان الذين يعمرون الصفوف الامثلُ فالأمثَل لكن الذين يسترون الامام هم اكثر امتيازاً من غيرهم في الفضل والدين وهم معلومون قلما يغيب احد منهم فان غاب لضرورة قدموا موضعه من هو مثله او يقاربه فيصلي الامام وهو مطمئن القلب مما يطرأ عليه في صلاته اذ انهم في الفضل والعلم بحيث لا يغفلون عن حركاته واحواله وهذا عكس ما الحال عليه اليوم حتّى انه لو حضر احد ممن يقتدى به في المسجد لرأيته بعيدا من الامام وقد لايُصلي في الصف الأول ثم مع ذلك تتقدمه السجادة ...

«وقد كان سيدي ابو محمد (ابن ابي جمرة) رحمه الله يقول اذا اخذك وقتُ الصلاة بمسجد من المساجد ، فان كنت في بلاد المغرب فصل حيث كنت وليس عليك اعادة وان كنت في الديار المصرية وما اشبهها فيقع التفصيل بين تعلم حال الامام ام لا فتعمل على ما تعلم من حاله فان كان فيه اهلية مضت صلاتك والا فتُعيدها . وكان رحمه الله يعلل ذلك فيقول ان بلاد المغرب لا يتولى الامامة في المسجد الاعظم الا من اجمع اهلُ تلك البلاد على فضيلته وتقدمته في العلم والخير والصلاح ، وسائر المساجد لا يتولى الامامة فيها الا من اجمع اهل تلك الناحية على فضيلته عليهم . واما الديار المصرية وما

اشبهها فان الامامة فيها بالدراهم غالبا وهي اذا كانت كذلك لا يتولاها الا صاحب جاه او شَوْكة ومن اتصف بذلك فالغالب عليه رِقّةُ الدين فاذا صلى خلفه وهو لا يعرف حاله اعاد صلاته لقوله صلى الله عليه وسلم (أئِمتُكم شفعاؤكم فانظروا بمن تستشفعون)...»

3) الشعبذة والتخييل قال : «ومنهم من يظهر الكرامة بامساك الثعابين والأنس بها وهذا فيه مافيه من مخالفة الشرع الشريف والتمويه على الامة بما لاحقيقة له اذ ان مثل ذلك يفعله كثير من الناس لمعيشتهم فكيف يُعدُ كرامة. ومن ذلك ايضاً مايفعلونه من اكلهم الثعابين بالحياة بمرأى من الناس وذلك محرّم اي لو كان صحيحا لان اكلها لا يجوز الا بعد تذكيتها عند من يرى اكلها وهم ياكلونها من غير تذكية بل يُؤدّبُون على كل أكلة من اكلاتهم تاديبا بليغا رادعا ثم ان كان ذلك من غير حقيقة فهو من صنعة النارنجيات والسيمياء وما شاكلها وليس من باب الكرامة في شيءٍ ... وكنت اعهد مثل هذه الأشياء ببلاد المغرب تفعل على ابوابها ويتضاحك الناس عليها في لهوهم ولعبهم ويستغنون بسببها وهم في هذه البلاد في بعض الاماكن يعدُونها من الكرامات ويعتقدونهم بسببها .

ويطول بنا الأمر لو تتبعنا هذا الباب اعني باب المفارقات فلننظر في شيءٍ من الفوائد العلمية والنكت الحسنة التي يشتمل عليها المدخل وربما عز وجودها في كتاب غيره :

فمن ذلك قوله في القراءة على القبور : «ولا يقرأ الزائر عند قبر الميت لما

تقدم من شغله بما ذكر من الاعتبار وقراءة القرآن يحتاج صاحبها الى التدبر واحضار الفكرة فيما يتلوه وفكرتان في قلب واحد في محل واحد لا يجتمعان... وقد سمعت سيدي ابا محمد (ابن ابي جمرة) رحمه الله يقول القراءة على القبور بدعة وليست بسنة وان مذهب مالك الكراهة ».

وقال في وجوب تعليم الزوجة احكام الدين « ويجب عليه (الزوج) ان يعلمها اذا كانت جاهلة وان لم يكن عالماً فيجب عليه ان يسأل من يعلمه فيعلمها او ياذن لها في الخروج لتتعلم وان ابى ان تخرج فلتخرج ولا حرج عليها ولا تكون عاصية، وعلى الحاكم ان يجبره على تحصيل العلم لها فان لم يفعل اذن لها الحاكم في ذلك» .

وقد كرر هذا المعنى من خروجها وان لم ياذن لها زوجها مؤكدا له .

وقال بعد ان ذكر ان عمل المولد النبوي بدعة وان سلم من الآفات الشرعية فكيف به معها : « ثم العجب العجيب كيف يعملون المولد بالمغاني والفرح والسرور كما تقدم لاجل مولده عليه الصلاة والسلام كما تقدم في هذا الشهر الكريم وهو عليه السلام فيه انتقل الى كرامة ربه عز وجل وفجعت الامة فيه وأصيبت بمصاب عظيم لا يعدل ذلك غيرها من المصائب ابدا ، فعلى هذا كان يتعين البكاء والحزن الكثير وانفراد كل انسان بنفسه لما اصيب به بقوله عليه الصلاة والسلام (ليُعزّ المسلمين في مصائبهم المصيبةُ بي).. »

وهي نكتة عجيبة والحديث الذي ختمها به اخرجه ابن المبارك عن القاسم مرسلا ومن الملاحظ انه كثيرا ما يُغْرِب في الاحاديث التي يستشهد بها فلو

قيض الله له من يخرج احاديثه ويبين صحيحها من سقيمها بهامشه لادى خدمة عظيمة للعلم والدين .

ومن قوله في الذين يرون ان الاحاديث النبوية انما تروى للتبرك بها لا للعمل: «... بلغني ممن اثق بـــه ان بعض من ينسب الى العلم تكلم في مسألة ونقل فيها عن بعض شيوخه نقلا تاباه الشريعة فقال له بعض من حضره : حديث النبي صلى الله عليه وسلم انما يراد للتبرك والشيوخ هم الذين يُقتدى بهم . وهذا ان كان مُعتقِدا لما قاله كان كافرا حلال الدم وان لم يعتقده فهو مرتكب لكبيرة عظمى يجب عليه ان يتوب منها مع الادب الموجع».

ومن قوله في اتخاذ السّبْحة : «ومن هذا الباب ايضاً ما يفعله بعضهم من تعليق السبحة في عنقه ، وقد تقدم قول عمر رضي الله عنه لِتَمِيم الدّاري رضي الله عنه انت تريد ان تقول انا تميم الداري فاعرفوني وما كان مراده الا ان يُذكّر الناس بالأحكام الشرعية المأمور باظهارها واشاعتها واظهار السبحة والتزين بها لا مدخل لهما في ذلك بل للشهرة والبدعة لغير ضرورة شرعية... ثم العجب ممن يعدّ على السبحة حقيقة ويحصر ما يحصله من الحسنات ولا يعد ما اجترحه من السيآت وقد قال عليه الصلاة والسلام (حاسِبُوا انفسكم قبل ان تحاسَبوا)...ثم ان بعضهم يحتج بانها محركة ومُذكرة فوآسوْأتاه ان لم يكن التحريك والتذكير من القلب فيما بين العبد وبين الرب سبحانه وتعالى» .

وقال في الاستخارة النبوية وتفضيلها على غيرها وليقس غيرها من الفاظ الصلاة والسلام على النبي (ص) ونحو ذلك : «وليحذر مما يفعله بعض الناس

ممن لا علم عنده او عنده علم وليس عنده معرفة بحكمة الشرع الشريف في الفاظه الجامعة للاسرار العلية لان بعضهم يختارون لانفسهم استخارة غير الاستخارة المتقدمة الذكر وهذا فيه مافيه من اختيار المرء لنفسه غيرَ ما اختاره له من هو أرحم به واشفق عليه من نفسه ووالديه العالم بمصالح الامور المرشد لما فيه الخير والفلاح صلوات الله وسلامه عليه ...»

ومن قوله يحذر المبالغة في التحلية في الرسائل : «وينبغي له ان يجتنب ما اعتاده بعض الناس في مكاتبة بعضهم لبعض بالالفاظ التي احتوت على التزكية والتعظيم والكذب والتنميق والقوافي والسجع والعبارات القلقة والتكلف اذ ان ذلك لا يجوز . الا ترى ان كتب السلف رضي الله عنهم بعضهم الى بعض على منهاج غير هذا ، فمن ذلك كتب امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الى من يكاتبه من ولاته : من عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة بن الجراح الى خالد بن الوليد الى عمرو بن العاص وكتبهم له من ابي عبيدة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فوصفوه بالصفة الملازمة له ...»

وفوائده ونكته التي من هذا القبيل كثيرة وكان بودنا نقل كلامه في تعليم اولاد المسلمين عند مُعلّمين غير مسلمين وما ينشأ عن ذلك من انطباع الولد على افكار واخلاق معلمه التي لا توافق الدين وتقاليد المسلمين ، وقوله ايضا في التوقيع الذي يُعفي به التاجر من اداء المغارم على السلعة وبيع هذا التوقيع مما عمت به البلوى اليوم وكلها مواضيع حية وواقعة بين المسلمين الآن ولكن طول ذلك وضيق المجال مما يمنعنا من التوسع في هذه النقول الكثيرة .

ولابد ان نختم هذه الترجمة بنقل فصل فريد في تربية الاولاد لايقل عما يكتبه احد علماء التربية الحديثة اليوم ويزيد عليه بالمحافظة على الروح الدينية وهو مع ذلك مما يُتعرّف منه اسلوب ابن الحاج السهل الممتنع في الكتابة قال رحمه الله :

..(فصل)في تربية الاولاد ومَشْيِهم على قانون الشريعة وترك ماعداها وحسن السياسة في ذلك كله . قال القاضي ابو بكر بن العربي رحمه الله في كتابه مَراقي الزّلْفى له : اعلم ان الصبي امانة عند والديه وقلبُه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورةٍ وهو قابل لكل نقش وقابل لكل مايُمال به اليه ، فان عوّد الخير وعلمّه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة يشاركه في ثوابه ابواه وكل معلم له ومؤدب ، وان عود الشر واهمل اهمال البهائم شَقِي وهلك وكان الوزر في رقبة القيّم به والولي عليه . وقد قال تعالى (قُوا انفسَكم واهْلِيكم نارا) ومهما كان الاب يصونه من نار الدنيا فينبغي ان يصونه من نار الاخرة وهو اولى .

وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الاخلاق ويحفظه من القُرناء السوء ولا يُعوّده التنعم ولا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضِيع عمرُه في طلبها اذا كبر ويهلك هلاك الابد . بل ينبغي ان يراقبه من اول أمره فلا يُشغّل في حضانته وارضاعه الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال ، فان اللبن الحاصل من الحرام لابركة فيه فاذا وقعت عليه نشأة الصبي عُجِنت طينته فيميل الصبي الى مايناسب الخبائث .

ومهما بدت فيه مخايل التمييز فينبغي ان يحسن مراقبته ، واول ذلك ظهور اوائل الحياء فاذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الافعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه حتّى رأى بعض الاشياء قبيحة ومخالفة لبعضها فصار يستحي من شيء دون شيء،وهذه هدية من الله اليه وبشارة تدل على الاخلاق وصفاء القلب وهو مُبشر بكمال العقل عند البلوغ ، فالصبي المستحي لا ينبغي ان يُهمل بل يُعان على تأديبه بكمال حيائه وتمييزه . واول مايغلب عليه من الصفات شَرَهُ الطعام فيعلمه متى يأكل ويعلمه ان لايسرع في الاكل ويمضغ الطعام مضغا جيدا ولا يوالي بين اللقم ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، ويعوّد الخبز القَفار في بعض الاوقات حتى لايصير بحيث يرى الادام حتما ويقبح عنده كثرة الاكل بأن يُشَبّه من يكثر الاكل بالبهائم وان يُذَمّ بين يديه الصبي الذي يكثر الاكل ويمدح بين يديه الصبي المتأدب القليل الاكل ويحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة والقناعة بالطعام الخشِن أيّ طعام كان، ويحبب اليه من الثياب الابيض دون الملون والابريسم ويقرر عنده ان ذلك لباس النساء والمُخنّثين من الرجال ، ومهما رأى على الصبي ثوبا من ابريسم او ملونا فينبغي ان يستنكره ويذم ذلك .

ثم ينبغي ان يُقدّم الى المكتب ويشغل بتعليم القرآن وبأحاديث الانبياء وحكايات الصالحين والاخيار وما قارب ذلك ويمنع من سماع الاشعار التي فيها ذكر العشق واهله ويحفظ من مخالطة الادباء الذين يزعمون ان ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان الفساد . ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي ان يكرم عليه ويجازى عليه

بما يفرح به ويمدح بين اظهر الناس ، فان خالف ذلك في بعض الاحيان مرة فينبغي ان يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر انه يتصور ان احدا يتحاشى عن مثله لا سيما اذا ستره الصبي واجتهد في اخفائه فان اظهار ذلك ربما يفيده جسارة حتّى لا يبالي بالمكاشفة بعد ذلك فان عاد ثانيا فينبغي ان يعاقب سرا ويعظم الامر فيه ويقال له ان يطلع عليك في مثل هذا تفتضح بين يدي الناس ولا يكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فانه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه .

وليكن الاب حافظا هيئة الكلام معه لايوبخه الا احيانا والأمّ تخوفه بالاب وتزجره عن القبائح وينبغي ان يمنع النوم نهارا فانه يُورّث الكسل ولا يمنع النوم ليلا ولكن يمنع الفُرُش الوطيئة حتّى تصلُب اعضاؤه ولا يخصب بدنه فلا يصبر عن التنعم بل يعوده الخشونة من الفَرْش والملبّس والمطعَم . وينبغي ان يمنع من كل مايفعله في خُفْية الا وهو يعتقد انه قبيح فاذا تُرِك تعود فعل القبيح . ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتّى لا يغلب عليه الكسل ، ويعود ذلك بكشف اطرافه ولا يسرع المشي ولا يرخي يديه بل يضمها الى صدره . ويمنع من ان يفتخر على اقرانه بما يملكه والداه وبشيء من مطاعمه وملابسه وملذوذاته .

ويعوّد التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ويمنع ان يأخذ من الصبيان شيئا بداية ان كان من اولاد المحتشمين بل يعلم ان الرفعة في الاعطاء لا في الاخذ وان الاخذ لُؤْم ، وان كان من اولاد الفقراء فيعلم

ان الاخذ والطمع مهانة ومذلة وان ذلك من دأب الكلب فانه يبصبصُ في انتظار لقمة .

وبالجملة يقبح الى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما ويحذر منهما اكثر من التحذير من الحيات والعقارب فان آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما اكثر من آفة السموم القاتلة على الصبيان بل على الكبار ايضا . وينبغي ان يعود ان لا يبصق في المجالس ولا يتمخّط بحضرة غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضرب بكفه تحت دقنه ولا يستدبر غيره ولا يغمز رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل . ويعلم كيفية الجلوس . وينبغي ان يمنع كثرة الكلام ويبين له ان ذلك يدل على الوقاحة وانه عادة ابناء اللئام .

ويمنع اليمين رأسا صِدْقَها وكذِبَها حتى لا يتعوده في الصغر، ويمنع ان يبتدئَ بالكلام ويعود ان لايتكلم الا جوابا وان يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو اكبر منه سنا ويوسع لمن فوقه المكان ويجلس بين يديه . ويمنع من لغو الكلام وفُحْشه وعن اللعب والشتم ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من الفواحش فان ذلك يسري لامحالة من القرناء السوء . وينبغي اذا ضربه المعلم ان لا يكثر عليه الصراخ دأب المماليك والنسوان .

وينبغي ان يؤذن له بعد الفراغ من المكتب ان يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب الادب بحيث لايتعب في اللعب فان مَنْعَ الصبي من اللعب وارهاقَه الى التعليم دائما يميت قلبه ويبطل فكره وذكاءه ويبغض اليه ذلك وينغص عيشته حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً ، وينبغي ان يعلم طاعة والديه

ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سناً من قريب او اجنبي وان ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم وان يترك اللعب بين ايديهم .

ومهما بلغ سن التمييز ينبغي ان لايسامح في ترك الطهارة ويؤمر بالصيام في بعض الايام من رمضان ويتجنب لبس الحرير والذهب والفضة ويعلم كل مايحتاج اليه من حدود الشرع ويخوف من السرقة واكل الحرام ومن الكذب والخيانة والفحش وكل مايغلب على الانسان من شدة الكلام من لسانه فاذا وقعت نشأته في صباه انتفع بذلك . ومهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له أن الأطعمة أدوية وإنما المقصود منها أن يتقوى الانسان بها على طاعة الله وعبادته وان الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها وان الموت يقطع نعيمها وإنها دار مَمَرّ لا دارَ مَقرّ وان الموت منتظر في كل ساعة وان الكَيّس العاقل من تزوّد من الدنيا للآخرة حتى تعظم عند الله درجته وتتسع في الجنان نعمته .

فإذا كانت نشأته صالحة كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ثابتاً يثبت فيه كما يثبت النقش في الحجر ، وان وقعت النشأة بخلاف ذلك حتى الف الصبا واللعب والفحش والوقاحة وشرَه الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبا قلبه عن قبول الحق نُبوّ الحائط عن التراب اليابس . فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تُراعى فان الصبي خُلِق جوهرةً قابلاً لنقش الخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كلّ مولود يُولَد على الفِطْرَة فأبَواه يُهَوّدانه أو يُنصّرانه أو يمجّسانه)...!

ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني

للطباعة والنشر

بيروت

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
رأس النبع - بيروت - هاتف: ٢٥٨٧٠٠

23

أحمد زروق

احمد زروق

اسمه ونسبه ـ ولادته ونشأته ـ طلبه للعلم ومشيخته ـ رحلته إلى المشرق والسبب فيها ـ رد تقولات عنه ـ تلقيبه بمحتسب العلماء والأولياء ـ رأي ابن عجيبة فيه ومناقشة هذا الرأي ـ من أخذ عنه من المشايخ وثناء العلماء عليه ـ استقراره أخيراً في طرابلس ووفاته بها ـ تراثه المادي والأدبي ـ آراؤه وأقواله في السلوك والطريق .

هو ابو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البَرْنُسي الفاسي عُرف بزَرّوق، أحد كبار الفقهاء والصوفية المشهورين في العالم الاسلامي . نسبه في عِداد قبيلة البَرانِس المغربية . وهو فيما يجري على الألسنة بفتح الباء وسكون الراء وضم النون . فان كانت البرانس جمع بُرنس فمُقتضاه ضمّ الباء . واما لقبه زَرّوق فهو بفتح الزاي وراء مشدودة مضمومة ، وقال فيه المترجَمُ نفسُه على ما نقل من كناشته « انما جاءني من جهة الجد ، كان ازرق العينين واكتسبه من امه ، قال وكانت شريفة لكنني لم أتحقق نسبها لموت ابي ، وشرف المرء انما هو سلامة دينه وحِليْتَهُ ومروءته ، ولا شرف اكبر من تقوى الله (إن اكرمكم عند الله اتقاكم) ... »

ولد زروق يوم الخميس 18 محرم 846 عند طلوع الشمس ، وتوفيت امه يوم السبت بعده ، وابوه يوم الثلاثاء الموالي . قيل وكان والده سماه محمداً فلما توفي قبل سابعه سُمّي احمد باسم والده .

وكانت جدته الفقيهة الصالحة ام البنين هي التي كفلته بعد وفاة والديه وربته تربية حسنة فحفظ القرآن وهو ابن عشْر سنين ، ثم تعلم صناعة الخرْز وهي السكافة على العادة في ابناء الفقراء فانهم يُحمّلون على تعلم صناعة ما ليستعينوا بها على كسب معيشتهم . ويظهر ان والده لم يُخلّف له مالاً ، كما أنه لم يكن من اهل العلم . لأنّا لم نرَ مَن وصفه بذلك ، وأخبرني صديقي الفقيه الاستاذ عالم شفشاون السيد احمد السمّار ان عليه بناية انيقة بقرية تِليوان من قبيلة البرانس وهي ملحقة بالمسجد هناك مع أماكن لسكنى الامام والزائرين ويطلق على الجميع الزاوية الزروقية ، ممّا يدل على ان والده كان من أهل الصلاح . ونظن ان هذه البناية انما بُنيت بعد وفاة المترجم واشتهاره. ويقول المترجَمُ في طالِعة نظمه لفصول السّلَمي مُعرّفاً بنفْسِه :

يقولُ راجي رحمةَ الغفار ... احمدُ نجلُ احمدَ الحضّار
البَرنُسيّ الاصل ثم الفاسي ... المشتهر زَرّوقُ بين الناس

وثبت وصف الخضار في نسخة صحيحة جيدة عندنا من هذا النظم بنقط الخاء والضاد وفي نسخة اخرى دونها صحة وجودة (الحضار) بالحاء المهملة ولعله هو الصواب ، فان بقُرب قرية تليوان المذكورة وادياً يسمى وادي

الحضار بالحاء المهملة واالضاد المخففة كما اخبرني بذلك الصديق السمّار فيحتمل جداً ان يكون المترجَمُ نسب نفسه في نظمه الى هذا الوادي .

وعلى كل حال فان مترجمنا لم يتماد في صنعة الخِرازة وقد اراد الله به خيراً حين أهّله لطلب العلم وهو في سن السادسة عشرة كما قال : « ثم نقلني الله بعد بلوغي سادس عشر الى القراءة فقرأت الرسالة على الشيخين عليّ السطي وعبد الله الفخار قراءة بحث وتحقيق والقرآن على جماعة منهم القوري والزرهوني ، وكان رجلا صالحاً والمجّاصي والاستاذ الصغير بحرف نافع ، واشتغلت بالتصوف والتوحيد فأخذت الرسالة القُدسية وعقائد الطوسي على الشيخ عبد الرحمن المجدولي وهو من تلاميذ الأبيّ وبعض التنوير على القوري وسمعت عليه البخاري كثيراً وتفقهت عليه في كل أحكام عبد الحق الصغري وجامع الترمذي وصحبت جماعة من المباركين لا تحصى كثرة بين فقيه وفقير » .

هذه نشأة زروق الاولى وتربيته البيتية والعلمية التي تشبه الى حد ما تربية صديقه وقرينه ابن غازي ، فان كلا منهما نشأ في حضن امرأة صالحة عملت على توجيهه توجيهاً نافعاً ظهر اثره في سيرته المثالية وحياته العلمية الناجحة . ولقد كانت والدةُ ابن غازي تكفل ولدَها من الناحية التربوية فقط ، اما الناحية المادية فوالده كان كفيلا بها ، في حين ان جدة زروق كانت تكفل حفدها من الناحيتين التربوية والمادية معاً ؛ لان والده لم يترك له ثروة يعيش

بها، ولذلك حملته على تعلم الصنعة بعد حفظ القرآن الكريم، ثم ما لبث ان عاد سيرةَ جدته من طلب العلم والتفقه في الدين ، وكانت جدته كما علمت فقيهة صالحة وبذلك تعلم ما للمرأة المتعلمة من الاثر القوي في اصلاح المجتمع وتقويم خُلق النشء حتى قيل : الام هي المدرسة الاولى .

ثم إن هؤلاء الاعلام الذين ذكرهم المترجم هم مَشيختُه الذين اخذ عنهم بفاس في اول أمره ، وقد اخذ عن غيرهم بعد ذلك بها وبغيرها من مدن المشرق والمغرب لانه كان كثير التجوّل في البلاد الاسلامية وحجّ وجاور بالمدينة المنورة واقام بمصر زمناً للافادة والاستفادة فاخذ عن اعلامها الكبار واخذ عنه كثير ممن يشار اليه من اهلها . ومِمّن سُمّي من شيوخه بين مغاربة وافارقة ومصريين غير من ذكر ؛ العلامة السرّاج الصغير واحمد بن سعيد الحبّاك وابو مهدي عيسى الماواسي وعبد الرحمن الثعالبي وابراهيم التازي والمشذالي وحُلولو والرصاع والسنُوسي وابن زكْري التلمساني والتّنسي ونور الدين السنهوري والحافظان السّخاوي والدّيمي وابو العباس ابن عُقْبة الحضرمي وشهاب الدين الإبشيطي وهما من مشايخ الصوفية والاول هو عمدته في طريق السلوك .

وقد ذكر ابن غازي في فهرسته ان المترجم استجاز له بمصر الحافظين السخاوي والديمي فاجازاه وذلك سنة 885 .

ومنه تعلَمُ ان رحلته كانت علمية وانه كان على صلة باصدقائه وزملائه

في المغرب أثناءها ، يُكاتِبُهم ويُمَكّنُ للعلاقات الادبية بينهم وبين علماء المشرق . وقد شملت الاجازةُ التي طلبها لابن غازي مـــــن حافظَيْ مصر المذكورين ، غيرَ ابن غازي من مشائخه واقرانه كابي مهدي الماواسي وابي العباس الوَنْشَريسي وقاضي الجمـــاعة محمـــد بن محمـــد بن عيسى بن علاّل المصمودي ، فماذا تبتغي من نشاط علمي اكثر من هذا ؟...

ولكن القوم الذين اصطدم بهم في حياته وانكر عليهم كثيراً من الاحوال التي لا يُقرِّها الشرع ابوْا الا ان يُصوِّروا رحلتَه بصورة قاتمة ويُخرِجُوه من المغرب في صفة طَريد لا يقرّ له قَرار الى ان يتراجع عن انكاره ويُسلم قِيادَه الى رجل من اهل التصرف في الغيب فيدخل في جِواره ويأمن حينئذ على نفسه . وهاك نصّ الحكاية على ما عند ابن عسكر في الدّوحة قال :

« حدثني شيخنا ابو الحجاج يوسف بن عيسى وغيرُه ان الشيخ ابا العباس (يعني صاحب الترجمة) صحب الشيخ ابا عبد الله محمد الزيتوني ، وكـــان رجلاً اعمى ، وكان من رجال التصريف فتوغّل صاحب الترجمة في محبته وادعى فيها قصَب السبق فكان من امتحانه في ذلك ان جاء زائراً له فدق الباب عليه فسمع صوتاً بالاذن فدخل الدار فلم يجد احداً فصعد الى غُرفة في اعلى الدار فوجد الشيخ جالساً في وسط الغرفة وعن يمينه امرأة متزينة وعن يساره اخرى وهو يلتفت الى هذه ويُقبلها ويُقبِل عليها ويرجع الى الاخرى كذلك فقال ابو العباس ان هذا الرجل من الزنادقة وولّى راجعاً فناداه الشيخ الزيتوني :

يا احمد الكذاب ! ارجع ! فرجع مُسرعاً فلم يجد معه احداً . فعلم انه امتحنه فقال له الشيخ الزيتوني أمّا التي رأيت عن يميني فهي الآخرة واما التي عن يساري فهي الدنيا ، وانت كاذب في دعواك ولكنك لا تبقى في المغرب ساعة واحدة . فخرج الشيخ ابو العباس من حينه وتوجه الى المشرق مُشفِقاً على نفسه مما اتفق له حتى انتهى الى الديار المصرية فوجد اصحاب الشيخ احمد بن عُقبة الحضرمي ينتظرونه على ضفّة النيل لان شيخهم المذكور امرهم بذلك واخبرهم بقدومه ، فسلموا عليه ورحبوا به وحملوه معهم . فلما دخل على الشيخ ابن عقبة وسلم عليه قال له : يا احمد ! يا ولدي ! ما جرّأك على الافعى العمياء ؟ واني لمشفق عليك منه ها هُنا ! فحمله الى بيت عنده وامره بلزوم الذكر فبعد ثلاثة أيام سمع الشيخ ابنُ عقبة رجّةً عظيمة وهو مع أصحابه فصاح : « الله »! ورفع يده ثم قال : قوموا بنا الى صاحبكم فقاموا اليه فوجدوا البيت الذي كان فيه ابو العباس قد صار دكّاً فقال ابن عقبة احفروا على صاحبكم فحفروا عليه الى ان وجدوه في ركن البيت وقد طاحت الخُشُب فخيّمت عليه فرفع عنه الردْم وقد انجاه الله منه . فلما ابصره الشيخ ابن عقبة قال له : « الحمد لله الذي عصمك منه ! يا احمد ! هذه آخر عقوبة الزيتوني ولقد ضربك ضربة من اقصى المغرب فدفعتُها عنك بيدي ، وها هي مكسورة من ضربته » واخرجها من تحته مكسورة . ثم لازمه الى ان انفصل عنه فقال له : « اوصني يا سيدي ! » فقال له منشداً :

سَلّم لِسَلْمَى وسِرْ حَيثُ سَارَت

واتبَع رياح القضا ودُرْ حيث دارت

وقد حكى هذه القصة غير ابن عسكر وزاد فيها بعضهم انه لما خرج من عند شيخه الزيتوني أُلقِي عليه شَبَهُ اليهود فصار الناس يتجنبونه ولا يرون فيه الا يهودياً حتى شفع له بعض أحبابه عند الشيخ فعفا عنه بشرط ان يخرج من المغرب .

ونحن لا نرى في هذه الحكاية الا تنقيصاً من قدر زَرّوق لتوطيد اركان التّدجيل الذي كان يُحاربه ، ومن ثمّ كانت نهايتُها (سَلّمْ لِسلمى) والا فالرجل رحل لطلب العلم وللاخذ عن الشيوخ كما رحل ويرحل كثيرٌ غيره من علماء المغرب وطَلَبته . وقد استجاز الاكابر لنفسه ولغيره من مشائخه وأقرانه على ما سبقت الاشارة اليه ، وقال ابن العِمَاد انه أقام بمصر سنة واشتغل فيها بالعربية والاصول على الجوجري وغيره واخذ الحديث عن السخاوي ثم غلب عليه التصوف ، فميله الى التصوف متأخر عن اشتغاله بالعلم حتى في مصر بعد رحلته . ولو كان جاء اليها طريداً بالصفة التي ذكَرُوها لمَا بقِي له في الاشتغال بالعربية والاصول مَأرَب ، ولا في استجازة مشايخ الحديث له ولغيره من علماء المغرب مَطْلَب ، وعلى كل حال فان التزيّد في هذه الحكاية ظاهر وهي ان كان لها اصل فهو ما يتوافق مع روح زروق العلمية من الانكار على اهل الدعاوي الباطلة وتحكيم الاصول فيما يعرض من أحوال أهل الطريق . ولعل زَرّوقاً وقع له مع شيخه الزيتوني خلاف من هذا القبيل فنسج خَيالُ المخرّفين حوله هذه القصة .

وان مما يزيدها بطلاناً ان زروقا لم يتراجع قط عن انكاره على المدعين ولم يزدد الا حِسْبَةً في مُحاجَجة المبطلين . ولقد عاد من رحلته هذه الى فاس فكان اول ما بدأ به مُستقبِليه من اهل العلم الانكار عليهم فيما يتناولونه من أسباب العيش ، ولو كان خرج من فاس بسبب الانكار تلك الحَرْجَة المنكرة واوصاه شيخه الحضرمي في آخر ما اوصاه به ، بالتسليم لسلمى لكان حرياً ان يسكت وان يغُضّ الطرف على القَذَى مهما كـــــان الامر . ولكن الامر بالعكس فان الرجل خرج ليتمَـلأ بالعلم وليتقَـوّى في الدين فلم ينكص على عَقِبيْه في علم ولا عمل . وهذه حكايته مع علماء فاس على ما عند ابن عسكر ايضاً وعنه رواها غيره قال : « حدثني الفقيه القاضي ابو عبد الله الكراسي الاندلسي قال : « لما قدم الشيخ زروق قافلاً من البلاد المشرقية خرج الفقهاء الى لقائه قال وانا كنت في جملة من خرج معهم فلما سلمنا عليه وجلسنا في خِبائه صار يسأل الفقهاء عن أسباب اقواتهم فقال بعضهم مُعظَمُ القُوت من الاوقاف المُحبّسة على قبور الموتى ! فقال الشيخ : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ! تعيشون من لحُوم الموتى !! فاجابه الفقيه ابن الحبّاك بان قال يا سيدي الحمد لله الذي جعلنا نقْتنِص من لحوم الموتى وهي مُسوّغة عند الضرورة في الشريعة ولم يجعلنا نقتنص من لحوم الاحياء الممنوعة من كل وجه ! فصاح الشيخ مَغْشياً عليه . فخرجنا عنه وتركناه كذلك ... »

فانت تراه كيف سألهم عن أسباب عيشهم اهتماماً بالاصل الاصيل في سلامة الدين وهو اكل الحلال ولما اخبروه بادرهم بالانكار على ما رضوا به

من العيش على الصدقات ثم لما اجابوه وكان للجواب وجـــه من الشرع لم يتمالك ان اخذته حال من الخشية اتهاماً لنفسه على عادة اهل المواجد مـــن محققي الصوفية . وهكذا يكون زروق في كلا حاليه ؛ حال الانكار وحال التسليم موافقاً للشرع عاملاً بمقتضى العلم الذي جمّله الله به .

ومن ثمّ اطلق عليه علماؤنا رحمهم الله « مُحتسِب العلماء والاولياء » وهي صفة جليلة ضخمة لم يظفر بها غيره من علماء الاسلام لا فيما قبله ولا فيما بعده . وانما المحتسِب القائم بالحِسْبَة ذلك الوظيف الشرعي الممتاز الذي يعم اختصاصه ويشمل كلّ الوظائف الشرعية حتى الخلافة العظمى والقضاء ! أليست مهمته هي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ ويقول علماؤنا رحمهم الله ان المحتسب اذا مرّ بباب الامير او القاضي ووجد الناس مجتمعين حوله ينتظرون خروجه ، فان عليه ان يدخل اليه ويخرجه للناس لان تركهم يتنظرون من المنكر وخروجه اليهم من المعروف . فيَدُ المحتسب اذن مبسوطة على كل ذي منصب شرعي كبُر شأنه او صغُر عظم او حقُر ، ولا يَد أعظمُ منها بهذا الاعتبار الا يد زرّوق التي بسطها علماؤنا على صفوة الصفوة من أهل الاسلام باطلاقهم عليه « محتسب العلماء والاولياء » وذلك لما رأوه متتبعاً لاقوالهم واعمالهم وازناً لها بميزان الشرع فيصحح منها ما صح ويبطل ما بطل ، ولما تحققوا من رسوخ قَدمه في الفقه وعلو مقامه في التصوف من غير ان يَحيف فقهُه على تصوفه ، فينكر المقامات والاحوال أو يطغى تصوفُه على فقهه فيُهمِل الشعائر والرسوم . على ان هذه التحلية لم ترُق فيما

يظهر بعض ايمة الصوفية ، فهذا الشيخ احمد بن عجيبة يقول في اول شرحه لنُونية العارف الششتري : « وقد سبق الى شرحها الشيخ العلامة الصوفي ابو العباس سيدي احمد زروق رضي الله عنه ، اقتصر فيه على حل الفاظها وبيان ما تعلق ببعض معانيها غيرَ انه لم يغُصْ في تيار بحر أسرارها على غوامض انوارها ولا فض خاتم إسرارها ولا دخل بعرائس أبكارها ، ولعله شرحها قبل ان يُفتَح عليه في أسرار الحقيقة فقد كان شيخ شيوخنا سيدي علي العمراني رضي الله عنه يقول ما فُتِح على الشيخ زروق الا في آخر عمره اي بحيث لم يؤلف شيئاً بعد الفتح والله اعلم ، وكتُبه شاهدة بذلك اذ الكلام وصف المتكلم ومَن تكلّم عُرف من ساعته فهو في علوم الطريقة امام ، واما في علوم الحقيقة واسرار الاذواق فلم ينل منها شيئاً الا في آخر عمره كاد ان يخرج منها صِفْرَ اليدين ، ولذلك كثُر اعتراضه على أهل النّسبة وظهر في كلامه التشديد والتضييق عليهم . ولقد رأيتُه في نوم كاليقَظة فقلت له قد شددت على أهل النسبة في حقيقة المريد فقال وما قلت فيها فقلت له قلت كذا وكذا وذكرت له بعض ما انتقَد به عليهم وما شدّد فيه فقال ذلك الذي يناسب مذهب مالك فقلت له الصوفي الحقيقي لا يُقلّد مالكاً ولا غيرَه بل يأخذ الشريعة من اصلها والحقيقة من معدنها فقال مَن بلَغ هذا او صَحِب مَن بلغ هذا لا يتكلم معه فقلت له والله لقد بلغناه وصحبنا مَن بلغه فغاب عني . وكان بعض مشايخنا من الفقهاء يقول الشيخ زروق محتسب الصوفية قلت انما يكون مُحتسِب صُوفية اهل الظاهر ، اهل العبادة الظاهرة والتنسك الظاهر اما

أهل التّربية والسر الباطن فلا حِسبَةَ له عليهم اذ لم يُحِط علماً بما عندهم ولقد سمعت شيخ مشائخ التّربية في زمانه مولاي العربي الدرقاوي الحسني رضي الله عنه يقول الشيخ زروق عند أهل الظاهر شيء كبير وعند أهل الباطن شيء صغير :

لايعرفُ الشوقَ الا مَن يُكابدُه ولا الصّبابــةَ الا من يُعانِيها

ومراتب الاولياء كطبقات الجِنان ؛ الأعلى يعرف الأسفل دون العكس والله اعلم » .

هذا كلام ابن عجيبة في زروق ورأيه بخصوص اللقب الذي اطلقه عليه العلماء ، ونحن لا نخوض في الرد عليه ولا في ابطال ما ذهب اليه ولْنُعطِ الكلمة لزَرّوق فانه اولى بالدفاع عن نفسه . واليك ما قاله في هذا الصدد بآخر شرحه لحزب البحر في التنبيه الرابع :

« قد أُولع كثير من فقراء الوقت بعلوم الاسرار ودقائق الاذواق ورقيق كلام القوم دون اعتناء باحكام العبودية وآداب الربوبية فانصرفوا عن المراد ، وفارقوا مُوجِبات الوداد ، وحصل لهم التعريف في عين ادّعاء السداد . ومنهم من تَسَرّي فيه لذة فهم الكلام فيظنه ذوقاً وربما ادّعاه حالاً لنفسه فكان طرْداً ، فحَقّ الصادق أن يشتغل بما به كمالُه من التخلق والتعلق مع الإعراض عن الاغراض . قال ابن عطاء الله في الحكم « تشوفُك الى ما بطن فيك من

العيوب خير من تشوفك الى ما حُجِب عنك من الغيوب » وقد قالوا اذا تكلم المريد في مقام لم يبلغه حالُه حُرِم منالـه اذ صار فيه صاحب علم ثم لا يأمن ضلالـه به أوان يتيه في بعض رموزه ان كان يأخذه من كلام النـــاس» الـــخ .

على ان ابن عجيبة بكثرة ما ينقل من كلام زروق في شرح النونية وغيره ، يبرهن على انه لا غِنى له عن الاغتراف من بحره ، وأن ما قاله فيه انما هو شطحة من شطحات الصوفية صدرت منه لما رأى شِدّةَ انكار زروق عـلى أهل الطريق او هو مدح لشرحه على ما جرت به عادة المؤلفين من تنكيت المتأخر على المتقدم

كما قال ابن مـــالك في الفيته : فائقة الفيـــة ابن معْط
فجاء السيوطـي بعـــده فقال : فائقة الفيـــةً ابن مالـك

والواقع انه لم يكن لكلام ابن عجيبة اثرٌ في الاوساط العلمية بالنسبة لاطلاق هذا اللقب على زروق ، فما زال علماؤنا رحمهم الله ، وجلّهم ان لم نقـــل كلهم ممن لهم جُنُوح الى التصوف وتعلّق بسبب منه ، يُحلّونه بتلك التحلية ويصفونه بتلك الصفة . وانما قلنا ان جلهم او كلهم ممن ينتمي الى التصوف لان المعروف عن أهل القرن العاشر فمن بعده انهم مالوا بكليتهم الى سلوك الطريق ، ومن لم يمِل منهم الى ذلك بالقلْب والقالب فلا بد من ان يُظهر هذا الميل ، مُداراةً عن نفسه لما صار للطرق من الصولة والجاه وعِظَم النفوذ ،

ولهذا قلّ أن قام في العصور المتأخرة ناقد صوفي من طراز زروق حتّى انبلج فجر النهضة الحديثة .

والمقصود ان هؤلاء العلماء المتصوفين هم الذين لَقّبوا زروقاً بمحتسب العلماء والاولياء فلا يقدح في ذلك من شذّ عنهم .

وقد تورّك ابنُ عجيبة على زروق في شرح النونية مرة اخرى عند نقله سانحةً من سوانحه فقال : « وانما تعطّل الفتحُ على الشيخ زروق لقلة صحبته لشيخه الحضرمي فقد قال عن نفسه انه صحبه اولاً سبعةَ اشهر او نحوها ثم انفصل عنه ثم رجع لزيارته فبقي معه نحو ثمانية اشهر فكان المجموع من صحبته خمسة عشر شهراً او نحوها . قال وانتفعت بها انتفاعاً لا يخفى ه. قلت هذه المدة لا تسلخ المُريد عن طبعه بالكُلّية ولا تُخرجه عن علمه وعوالمه لاسيما وقد كان متغلغلاً في العلوم النقلية والعقلية فلا يسلخُه منها الا طولُ الصحبة بالصدق والخدمة والتجرد التام كما هو مجرب في شأن امثاله . وقد كان شيخُه يكاتبه بشيء من الحقائق فلم يهتد اليها لانها لا تُؤخذ بمجرد العلم وانما تؤخذ بالسّراية مع تحقق الصدق والتصديق . واعلم ان كثيراً من العلماء صحبوا المشائخ العارفين ولم ينالوا من حقائقهم شيئاً لانهم كانوا يصحبونهم على نظر نفوسهم لا على نظر المشائخ فاذا أمروهم بشيء او نهوهم عن شيء وزَنُوه بميزان (شريعتهم) فما وافق نظرهم قبِلُوه وما خالفه ردّوه فبَقوا مع انفسهم ولم يغرقوا في بحر اسرارهم والله اعلم » .

انتهى كلام ابن عجيبة وفيه تحامُل كبير على زروق وعلى علماء الاسلام جملةً وهو كلام لو لم يُختَم بجملة والله اعلم لكان فيه دَرَكٌ عظيم على قائله . ويهمنا منه الآن ما يتعلق بزروق فقد زعم انه تعطّل عليه الفتح اخذاً من السانحة التي اوردها له وهي كما تأتينا في اعقاب ترجمته انما تدل على الجهود التي بذلها زروق في الوصول الى المعرفة ولا دلالة لها مطلقاً على ما فهمه منها ابن عجيبة . وتعليله لتأخر الفتح بقلة مدة الصحبة ليس بحجة عندهم ؛ فقد عهدناهم يقولون ان فلاناً نال من فلان بمجرّد لقاء قصير او بنظرة واحدة ، وكثيراً ما يمثّلون ذلك بمن جاء بفَتيلَة مُنعَمة دُهْناً فاقتبس من المصباح واشرَق نورُه في الحال . وكون التغلغل في العلوم النقلية والعقلية عَقَبةً في طريق الفتح هو مما يختلف فيه نظرنا مع ابن عجيبة وأمثاله ممن يقولون بهذا القول ، فنحن لا نرى فتْحاً حقيقياً حصل او يحصُل لاحد الا مع هذا التغلغل في العلوم. واليك المثال في اقطاب الصوفية انفسهم كالجيلاني والحاتمي وابن الفارض وابن سبْعين وغيرهم ممن لم يشتهر امرُهم في هذا الشأن حتى رسخ قدمُهم في العلوم . وابن عجيبة نفسُه لو لم يكن ذا باع مديد في العلوم لما ادرك ما ادرك من هذا المقام.

وقد كان زروق ذا حساسية مُرهفة وتذوّق لكلام القوم يشهد به تنزيلُه للنصوص وتعقّبه لما فيها من مآخذ وطرْحُه للحشْو واهتباله بالجواهر دون الأعراض فضلاً عن وزْنه للخواطر بميزان الشرع واخذه بالحيطة في مجال القول والعمل وانما اعانه على ذلك تمكّنُه من العلوم العقلية والنقلية وسلوكه للطريق سلوكَ الحذِر اليقظ الذي اخذ الأهبة لكل طارىء ، واستعدّ لكل ما يفاجىء ، فلم يكن وصوله للحقيقة عن ظن وتخمين ، بل عن طريق

المعرفة واليقين ، ولعمري ان هذا لهو الفتح المبين .

فان يكُن المهديّ مَن بان هديُه فهذا ؛ والا فالهُدىذا ، فما المهْدي ؟

وبعد هذا لا نرى داعياً لذكر ما كان لزروق وما لا يزال له من مقام كبير بين طوائف الصوفية وخاصة الشاذلية منهم فقد اقامه الجميع مقام الحَكَم الذي تُرضى حكومته واقرّوا له بالامامة وأثنوا عليه الثناء العاطر وتداولوا عهده وتلقوا كلامه بالقبول ورووْا وظيفته ، وهي كلها اذكار نبوية ، كابراً عن كابر ، وهذا فضلاً عن مشائخ العلماء وكبار الفقهاء الذين اخذوا عنه بالمشرق والمغرب .

فمنهم الامام القسطلاّني والحطّاب الكبير والخرّوبي الصغير وشمس الدين وناصر الدين اللقّانيّان وزين الدين القسنطيني نزيل مكة والشيخ عبد الوهاب الشّعْراني والعارف ابو الحسن البَكْري وهما من عمَد اهـــل التصوف وغيرهم . وذكرُه وارد في سند الطريق في مرآة المحاسن وغيرها .

وذكر صاحب طبقات الشاذلية المسماة بجامع الكرامات انه لما قدم مصر وسمعت بقدومه العلماء والفضلاء من اهلها وفدوا عليه ، ومثّلوا بين يديه ، وكان يحضر درسَه في الأزهر الشريف زهاءُ ستة آلاف نفس من مصر والقاهرة واحوازها وتولى امامة المالكية وصار استاذ رِواقهم ونصّبوا لــه كرسياً عالي الاركان بديع الاتقان صار يجلس عليه للافادة . قال : وهذا الكرسي موجود الى وقتنا هذا برواق السادة المغاربة بالازهر الشريف . وكانت له صولة ودولة عند امراء المصريين والقبول التام عند الخاص منهم والعام .

ولعل هذا في غير القَدْمة الاولى التي قَدِمها الى مصر وكان فيها لا يزال بصدد الاخذ عن اعلامها . يدل عليه قول السخاوي في الضوء اللامع بعد ان ذكر نشأته وقراءته بفاس : « وارتحل الى الديار المصرية فحج وجاور بالمدينة وأقام بالقاهرة نحو سنة ومديماً للاشتغال ، وقرأ عليّ بلوغَ المرام وبحث عليّ في الاصطلاح بقراءته ولازمني في أشياء وأفادني جماعة من أهل بلاده والغالب عليه التصوف .. وقد تجرّد وساح وورَدَ القاهرة بعد الثمانين ثم تكرّر دخوله اليها ولقيني بمكة في سنة اربع وتسعين وصار له اتباع ومحبون وكتب على حكم ابن عطاء الله » الخ .

وفي شذَرات الذهب قال المناوي في طبقاته وهو يعني زرّوقاً : « عابد من بحر العِبَر يغترف ، وعالِم بالولاية متصف ، تحلى بعقود القناعة والعفاف ، وبرع في معرفة الفقه والتصوف والاصول والخلاف ، خطَبَتْه الدنيا فخاطب سواها ، وعرِضت عليه المناصب فردها وأباها » وهذا مما يؤيد ما قاله صاحب طبقات الشاذلية عما كان له في مصر من نفوذ وجاه عند خاصتها وعامتها .

ثم انه زهد في ذلك كله ورحل الى قطر طَرابلس واستقر منه بمصراته بجهة تيكران منها حتى مات . قال ابن غَلْبون في تاريخه : « وكان استوطنها وانخرط في سلك اهلها وتزوج بها من اولاد الشيخ الجعافرة ووُلد له منها وبقوا بعد موته ثم لحقوا به ، وليس له بها نسل ومقامه مشهور . وتولى خدمته واوقافه قوم من اهل سرْتَ كانوا في سالف الزمن لهم تشبه بالصالحين ونشأ من بعدِهم خَلْفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » الخ .

وقد زار الشيخ ابو سالم العَيّاشي مقام المترجم في طريقه الى الحج وتحدث عن ذلك في رحلته بقوله : «ومن الغد ارتحلنا ونزلنا بزاوية الشيخ المحقق العالم العلامة العارف بالله الدال على الله صاحب العلْمَين ومحقّق النظَرَيْن ومحصل المذهَبَين ومُرتضَي الفريقين مُقتدَى اهل العلم الباطن ومتبوع اهل الظاهر وينبوع الاسرار في سائر المظاهر قطب مغربنا وامام ايمتنا سيدي ابي العباس احمد بن احمد زروق البرنسي الفاسي حقق الله اليه نسبتنا وخلص في محبته سريرتنا آمين . وكان نزولنا بزاويته صبيحة يوم الجمعة وزرنا قبر الشيخ بما اقتضاه الوقت من ادب ووقار وذل وانكسار وصلينا الجمعة بالمسجد الجامع وهو الذي كان يصلى فيه الشيخ وخطب امام المسجد من ورقَة وليتَه احسن القراءة منها فانه كان يتوقف حتّى في آيات من القرآن العظيم وأسفتُ لذلك المكان مع شرفه بجوار الشيخ وكونه واسطة البلد كيف يُسندَ الامر فيه الى غير اهله ، ويوضع في غير محله ولله الامر من قبل ومن بعد» .

ثم ذكر العياشي بعد ذلك مايفيد ان الشيخ رحمه الله لم يكن هو باني الزواية على ما اخبره به قَيِّمُها ابو العباس احمد بن عبد الرحيم خديم الشيخ قال :

« (لطيفة) وقد اخبرني سيـــدي ابو العباس المذكور ان جده الاعلى سيدي احمد الذي كان خديم الشيخ قال للشيخ في حياته الا نبني هنا زاوية ونتخذ لها اوقافا ؟ فقال له يا أحمد نحن لا تفوح رائحة مِسْكنا الا بعدما نَتسوسُ تحت التراب . ثم بعد موته وكثرة الواردين والزائرين وانتشار صيته في مشارق الارض ومغاربها بنى تلميذه المذكور المسجد بازاء قبره وسكن عنده بعد موته بعشرين سنة» .

قلت وهذا هو اللائق بعلم الشيخ وعمـَله وتمسكه بالسنة قولا وفعلا واعتقادا فرحمه الله ورضي عنه وجازاه عن ايمانه واخلاصه الجزاء الاوفى .

وكانت وفاته سنة 899 في صفر . وذكر العياشي ايضا انه وقف على ورقة فيها زِمَامُ تركة الشيخ وعَدَدُ ورثته فساقها باللفظ قال « لما اشتملت عليه من الفوائد ، منها استفادة عدد اولاده واين استوطنوا بعده فاني لم اجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه . ومنها التأسي به في قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا اولاد ونساء في بلد يشق فيها العيش ولا يعوزه ما يُخلّفه لهم لو شاء لانتشار صيته وخدمة الدنيا واهلها له ومع ذلك لم يخلف الا ما ستراه » وخلاصة ما في هذه الورقة انه توفي عن زوجتين واربعة اولاد كل منهم يسمى احمد ويتميز بكنية وبنت واحدة اسمها عائشة وخلف نصف فرس وكانت شركة مع الغير وبُرنُساً ابيض وجبةَ صوف وثوبا اخر وسبحة كانت لشيخه الحضرمي وأربعةعشر سفراً وكناشة الخ فانظرها ان شئت في الرحلة العياشية.

هذا هو تراث زروق المادي فليخجل عند ذكره كل شيخ يزعم التصوْف وهو اغنى من قارون ! اما تراثه الادبي فمجموعة من الكتب في الفقه والتصوف مؤسسة القواعد محررة المقاصد يميل فيها إلى الاختصار لكونه ممن الغى فضُول القول ، وياتي فيها باللباب من العلم الذي يتناوله لانه كان انصح من ان يشغل قارئه بالقشور ، وليس قارئه الا طالبا متفقها في الدين او مريدا مترقيا في مقامات اليقين ولا أحق بالنصح منهما .

واليك حلقات هذه السلسلة الذهبية قبل ان ناتي بشذرات منها تُقرّ اعين

الناظرين . ولعل الشيخ احمد بابا في نيل الابتهاج كان احصى لمؤلفاته من غيره فلنعتمد قوله في هذا الصدد ونصه : «واما تآليفه فكثيرة يميل فيها الى الاختصار مع التحرير ولا يخلو شيءٌ منها عن فوائد غزيرة وتحقيقات مفيدة لاسيما في التصوف فقد انفرد بمعرفته وجودة التأليف فيه . فمنها شرحان على الرسالة وشرح ارشـاد ابـن عكـر وشرح مختصر خليـل وشرح الوغليسية وشرح القرطبية وشرح الغـافقية وشرح العقيـدة القُدسيـة للغزّالي ونيف وعشرون شرحا على الحكم وشرحان على حزب البحر وشرح الحزب الكبير لأبي الحسن الشاذلي وشرح مشكلاته وشرح الحقائق والدقائق للمقري وشرح قطع الششتري وشرح الأسماء الحسنى وشرح المراصد في التصوف لشيخه ابن عقبة والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية ومختصره واعانة المتوجه المسكين على طريق الفتح والتمكين وكتاب القواعد في التصوف ، وهذه الثلاثة في غاية النبل والحسن، لاسيما الاخير منها لا نظير له. وكتاب النصح الانفع والجنة للمعتصم من البدع بالسنة وكتاب عدة المريد الصادق من اسباب المقت في بيان الطريق وذكر حوادث الوقت كتاب جليل فيه مائة فصل بيّن فيه البدع التي يفعلها فقراء الصوفية . وله تعليق على البخاري قدر عشرين كراسة اقتصر فيه على ضبط الالفاظ وتفسيرها ، وجزء صغير في علم الحديث . وله رسائل كثيرة لاصحابه مشتملة على حكم ومواعظ وآداب ولطائف التصوف مع الاختصار قل ان توجد لغيره . وبالجملة فقدره فوق ما يذكر ومن تفرغ لذكر حاله وفوائده وحكمه ورسائله جمع منها مجلدا .. وهو آخر ائمة الصوفية المحققين الجامعين لعلمي الحقيقة والشريعة ».

ويزاد على ماذكره كناشته التي تعد من أحفل كتبه بالفوائد التاريخية وكثيرا

ما ينقل عنها الشيخ احمد بابًا نفسه وغيره وتقدم ذكرها في زمام تركته . وله فهرست ذكرها ابن القاضي في ترجمته من درة الحجال وله ايضا مما وقفت عليه ولم يذكره رسالة الاصول البديعة والجوامع الرفيعة ورسالة في اصول الطريق نظمها الشيخ ابو سالم العياشي وشرحها تلميذه الحروبي ونظم فصول السّلَمي في عيوب النفس وشرح المباحث الاصلية وكتاب لم يسم في علاج ادواء القلب الى غير ذلك . وكتبه وان كانت كلها محررة مفيدة الا ان عيونها هي الثلاثة التي ذكرها صاحب نيل الابتهاج ويزاد عليها كتاب عدة المريد الذي لانظير له في النصّح عن التصوف والدفع في وجوه ادعيائه بالحجة والبرهان . وهو في نظرنا عَديلُ كتاب تلبيس ابليس لابن الجوزي وربما فاقه لاختصاصه بهذا العلم ولمكانة صاحبه عند المتصوفة انفسهم فلا يمكن ان يقدحوا فيه بما يقدحون به في تلبيس ابليس وانظر ما قاله اليُوسي في المحاضرات بصدد الانكار على اهل الوقت فانه لم يجوّزْه الا للراسخ في العلم والعمل والانصاف كترجَمنا وهذا نص كلامه مختصرا :

«واما استنقاص اهل الزمان على ما مر فلاشك انه لايحرم اذ لا يدخل في الغيبة المحرمة حيث لايكون التعيين ... نعم ذكر ما يقع منهم من المناكر بالتنصيص بقصد الاحتراز مع الانصاف كما فعل ابو العباس زروق رضي الله عنه في النصح الانفع وفي عدة المريد نافع مفيد، غير انه صعب مفتقر الى تحقيق المدارك وتضلع في العلوم وتجربة تامة» الخ . وناهيك بها من مثل اليوسي .

وها نحن اولا نستعرض من كتابه المذكور بعض الفصول للتعريف بقيمته ولتتمة التعريف بمؤلفه أيضا . وقد صدّره بكلمة لبيان الغرض من تأليفه هذا نصها :

«ليعلم الناظر في هذا الكتاب، المتأمل لما فيه من حق وصواب، انا لم نقصد به الطعن على الناس ولا القدح فيهم ، ولا الاشتغال بمساويهم ولا اظهار عيوبهم ، ولا اردنا الاستظهار بالمزية عليهم ، وانما قصدْنا به التحذير من الوقوع فيما حذرنا منه ، والتحرير لما نبهنا عليه ، ليكون عُدّة للصادق في دينه ، واعانة للمحقق في يقينه ، ورحمة للمسكين في حاله ، فمن قصده لشيْ مما قصدناه به فالله المسؤول في اعانته ونفعه ، ومن قصده لغير ذلك فالله المستعان على اتلافه ومنعه ، وان يعمي عنه من يريد به هتك أستار الناس ، ويريد به اظهار اللبس والالتباس، ومن قصده لذلك فالله حسيبه وسائله ومتولي الانتقام منه لان من تتبع عورة اخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته، والمومن يلتمس المعاذير والمنافق يتتبع العيوب، والله في عون العبد ما دام العبد في عون اخيه ، ويعلم الله لولا الشفقة على الاخوان الصادقين ما كتبتُ منه حرفا مع ما اخذ على من علَم شيئا ان يبينه ولا يكتمه ، وما ورد من الوعيد في سكوت العالم عند ظهور البدع مع ما انضم الى ذلك من أسباب خاصة وعامة . وعلى الله المعتمد في عموم النفع به وان يجعله رحمة وبركة حيث ما حل .

ثم ارغب لمن كتبه ان يكتب هذه المقدمة في ضمن نسخته لنبرأ من جهل الجاهلين وعلى الله ثوابه ».

ولسنا بحاجة الى التنبيه على ما يفيض به هذا التصدير من روح الانصاف والنصيحة والاخلاص ، فتلك شيمة زروق التي عُرِفَ بها في كتبه وابحاثه

وآرائه بعامة . وهاك الآن الفصل الاول من الكتاب وهو في تحقيق معنى البدعة وتقسيمها قال :

« (فصل) في حقيقة البدعة وخواصّها واحكامها. اما حقيقة البدعة فشرعا إحداثُ امر في الدين يشبه ان يكون منه سواء كان بالصورة او بالحقيقة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم من احدث في امرنا هذا ما ليس منه فهو رد وقوله عليه السلام كل محدثة بدعة كما تقدم . وقد بين العلماء رضي الله عنهم ان المعنى في الحديثين المذكورين راجع لتغيير الحكم باعتقاد ماليس بقُربةٍ قُربةً ، لا مطلق الاحداث اذ قد تتناوله الشريعة بـأصولها فيكون راجعا اليهـا او بفروعها فيكون مقيسا عليها قالوا : وبحسب هـذا فلا تكون البدعة الا محرمة او مكروهة لانها ان قَويت شُبهتُها لا يصح ان يبلغ بها التحريم وان ضعفت شبهتها جدا كانت محرمة لا سيما ان كانت في مقابلة منصوص عن الشارع او مخالفة لاصل الملة او خارجة عن قواعد الاحكام الشرعية . قال المحققون وانما قسّمها بعضهم لاقسام الشريعة اعتبارا بمطلق الإحداث ومن حيث اللغة ومنه قول عمر رضي الله عنه في شأن التراويح : نِعْمتِ البدعة هذه فسماها بدعة من حيث صورةُ اثباتها والا فهي سنة بفعل النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاث ليال من رمضان في حياته ، ثابت اقامتها بقوله عليه السلام : اني خشيت ان يفرض عليكم . فنبه على العلة ليشعر بثبوت الحكم عند ارتفاعها كما اثبته عمر رضي الله عنه باجماع من الصحابة في قبوله فان قلت كيف تكون البدعة المكروهة ضلالة مع ان المكروه من قبيل الجائز والنبي صلى الله عليه وسلم قد حكم على كل بدعة بانها ضلالة ؟ قلت الكراهة مصروفة

للعمل بها ، واحداثها حرام لانه افتيات على الشارع وتقدّم بين يديه وتغيير لاحكامه مع وجود شبهة منه .

ثم من خواص البدعة ثلاثة :

احدها انها لاتوجد غالبا الا مقرونة بمحرم صريح او آيلة اليه ، او يكون تابعاً لها ، ومن تأمل ذلك وجده في كل ما قيل فانه لا ينخرم بحال كما ننبه عليه ان شاء الله تعالى .

الثاني انها لاتوجد غالبا الا في الامور المتسغربة غير المالوفة في الدين وهي في الكيفيات من المندوبات وتوابع الاعمال وما تميل اليه النفوس وتستحسنه كالذكر والتلاوة والصلاة والصوم بما يدخلون عليها من الكيفيات ونحوها والسلوك ونحو ذلك فتأمله .

الثالث انها لاتوجد غالبا الا مستندة لوجه من الشريعة او معنى من الحقيقة يلتبس على قليل العلم فيتحير او يسلم ويتروج على ا لجاهل فيظنه دينا قيّما من حيث لا يعلم، وما غره في ذلك الا شبهة الاصل وتسليم من يعتقد فيه العلم والفضل . ولكن لكل شيء ميزان يظهر به الحق من الباطل يعرفه العالم وينفيه الجاهل فيكون ضالا بفعله مضلا بدعوى الخلق اليه غير معذور في امره لعدم تبصره اذ الدين مبني على التبصر وبالله التوفيق . »

ولا يخفى تحرير هذا الفصل وانه على اختصاره جمع بين تحقيق النظر في معنى البدعة وتقسيمها الصحيح الى قسميها الطبيعيين : الحرمة والكراهة ولم يجار اصطلاح الفقهاء في عصره على تقسيمها الى اقسام الحكم الشرعي الخمسة

وان بين وجهة نظرهم في ذلك التقسيم ودليله ثم عرض لما يتوهم من ان البدعة المكروهة لا حرج فيها فبين ان الكراهة انما تتعلق بالعمل بها واما اصل احداثها فحرام وبذلك حسم المادة في امر الابتداع واغلق الباب في وجه المبتدعين ومن ثمّ تخلص الى الكلام على خواص البدعة بما لم يدع في امرها اشتباها وهكذا حرر هذا الفصل تحرير الجوهر وركزه تركيزا مُوعَبَاً بحيث جمع فأوعى .

وهاك فصلا آخر بين فيه الاسباب التي تدعو الى الابتداع وخاصة في الطريق وهو نظير سابقه تحريرا وتركيزا ، قال :

« (فصل) في اصل ظهور مدعي التصوف في هذا الزمن بالبدع واتباع الناس لهم عليها. فاما ظهورهم بالبدع فله اصول ثلاثة ؛ اولها نقص الايمان لعدم العلم بحرمة الشارع وفقد نور الايمان الهادي الى اتباع الرسول عليه السلام قال الله تعالى وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وقال احمد بن حضرويه رضي الله عنه الدليل لائح والطريق واضح والداعي قد اسمع فما التحير بعد هذا الا من العمى وقال ابن عطاء الله رضي الله عنه في حِكَمه لا يُخاف عليك ان تلتبس الطرق عليك وانما يُخاف عليك من غلبة الهوى عليك وقال ايضا تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال قال بعضهم نحت الجبال بالاظافر أيسر من زوال الهوى اذا تمكن قال الله تعالى افرايت من اتخذ الاهه هواه واضله الله على علم الآية وقوله تعالى فمن يهديه من بعد بالله يعني ان الحيل والاسباب لا تفيد في هدايته لتمكن الباطل من نفسه وفقدان نور الايمان من قلبه ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

الثاني الجهل باصول الطريقة واعتقاد ان الشريعة خلاف الحقيقة وهذا هو الاصل الكبير في ذلك وهو من مبادئ الزندقة ومنه خرجت الطوائف كلها وصار الفروعي الجامد لايتوقف في سب الصوفية ، والمتصوف لا يتوقف في النفور من العلم وأهله ويخالف ظاهر الشريعة في امره ويرى ذلك كمالا في محله حتى لقد سمعت من بعض من تفقر من طلبة الوقت انه سمع حكاية من حكايات الخارجين اوجبت اثراً في الوجود فنطق ناطق زندقته وجهله بان قال ظاهر الشريعة حرمان ، وهذا والعياذ بالله كفر وضلال انجر له من جهله بالطريق واعتقاده الفرق بين الشريعة والحقيقة ، وهذا هو الاصل الذي بنى عليه المارقون اصولهم واستظهرت الطوائف باعمال خارجة عن الدين واحوال موافقة للمارقين فحمل الصادق على الكاذب والمصيب على الخائب ، ووقع الكل في جهالات لا يمكن تفصيلها ولا ينضبط تأصيلها ودفع ذلك لايكون الا بتقرير اصول القوم وسنفرد له فصلا بعد ان شاء الله .

الثالث حب الرئاسة والظهور مع الضعف عن اسبابها والقصور فيضطرهم ذلك لاحداث امور تستميل القلوب لكونها مجبولة على استحسان الغريب مع جهلها بما يشين ويريب وحرصها على الخير وظهور هذا الشخص بصورة ذلك وحقائق منه مع ما يجري على يديه من خوارق شيطانية او يبدو لتابعيه من لذة نفسانية او يدركه من اذواق طبيعية يظنها فتوحات وأسبابَ وُصول فينبذ لها الفروع والاصول مع مايعينه على ذلك من احتقار الامور المألوفة واعتقاده ان المقام العجيب لا يدرك الا بالامر الغريب وان العبادة في صورها ووجوهها لا تفيد المقصود الا باضافة امر اليها فينقاد لذلك عند ظهوره ويعمل

به فيجتهد الأمر له بذلك ويتقوى عليه بما ظهر له من ذلك وما هو إلا الجهل والانقياد للوهم وعدم التثبت والفهم نسأل الله السلامة بمنه وكرمه» .

وهذه جُمَلٌ من فصول منه تُبين نظره في أشياء مما ضلت فيه آراء القوم فمن ذلك قوله في المهدي المنتظر :

«هذا مع ان كثيراً من العلماء يقولون بان الفاطمي قد انقضى زمانه وانه عمر بن عبد العزيز او غيره على اختلافهم في ذلك ، والحق ان الامر فيه مبهم وان الاشتغال به مما لا ينبغي لاشتباه الامر واضطرابه مع عدم الاضطرار اليه ، وهب انه نزل بباب المدينة التي انت فيها أليس في عنقك بيعة اميرها فلا يحل لك الخروج عنه ولا الخروج اليه لما في رقبتك من حق اميرك ، هذا ان تحقق فما ظنك والامر متوهم الصحة في اصله غير متحقق التأخير في وقوعه».

ومن قوله فيه ، في نسبة الفقه من التصوف : « قالوا وما مثل الفقيه الا كبوّاب الملك والصوفي المحقق صاحب سرّه فاذا حدّث الصوفي عن خبايا بيت الملك نادى عليه الفقيه انما انت سارق او كذاب او متجاسر ، فان اتى بأمارة من الملك والا فحجة البواب عليه قائمة وانكاره صحيح ، فمن ثم صح انكارُ الفقيه على الصوفي ولم يصح انكار الصوفي عليه فاعرف ذلك».

ومن قوله في كتب الحاتمي ومَن على شاكلته في أحد الفصول منه «فاما كتب الحاتمي وابن سَبْعين وابن الفارض وابي العباس البوني ومَن جرى مجراهم فلها رجال ، لهم في الحقائق مجال ، وعندهم في التمييز مقال ، فلا يشتغلُ بها في البداية الا غَوِي ولا في النهاية الا خَلي ولا في التوسط الا ذَكي ياخذ بما

بان رُشدُه ويسلم ما وراء ذلك ليسلم من آفاته وما هو الا كما قيل :

مَن تحلّى بحِليْـَة ليس فيه فضَحته شواهد الامتحان

اعاذنا الله من البلاء بمنه».

ومثله قوله في احزاب ابن سبعين ودعوات البُوني في احد فصول الكتاب ونصه :

«(فصل) في امور أولع بها بعض الناس وفيها مغمز ما، منها احزاب الشيخ ابي محمد عبد الحق بن سبعين وهي محتوية على حقائق ودقائق وامور عالية بعبارات فائقة وشقاشق عظيمة بعضها في الاضمار وبعضها خارج عنه ، فلذلك وجب على الضعفاء اتقاوْها وكان التسليم فيها اولى من العمل بها الا حزب السلام له وفيه مافيه للعدول عن الالفاظ الشرعية الى عبارات اخرى لا ندري ما قصد بها ان لم يكن الايقاع في النفس ، وبالجملة فذلك واقع له بحسب حاله ومقامه ونحن لا ناخذ الا ما جمع العبودية والادب والتأثير لاغير ذلك فافهم . ومنها دعوات البوني واقسامه المرتبة على الساعات وغيرها وقد نص العلماء على ان ذلك بدعة مكروهة ويَعنون للعالم به ، فاما غيره من الجهال فلا حديث عليه وهو ممنوع منه بكل حال».

ومن هذا القبيل قوله في كتب الصلوات المعروفة من فصل آخر : «ومن ذلك تصنيف بعض الناس في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم بكيفيات يعتمدها وياتي فيها بالفاظ مستغربة وانواع منتخبة تالفها نفوسُ العوام وتتحرك بها نفوس الغافلين للصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في الجملة . والاولى باهل

التوجه الاقتصارُ على الالفاظ الواردة عنه صلى الله عليه وسلم فان الخير كله في الاتباع والفتح الكامل في التقيد بالفاظه عليه الصلاة والسلام فلا تعدل بها شيئا ولو قلت فقليلها كثير ومعناها كبير ».

واخيرا استَمعْ اليه فيه وهو يحذر اتباعه من الاقتداء به في امور ربما صدرت منه عن غير تعمد ولا اصرار ، ولكن النصيحة التي جعلها هجّيراه وهضم النفس الذي هو دْيدَنُه أمليا عليه هذه الجملة : « وما زلتُ احذّر الاصحاب من الاقتداء بي في خمسة امور :

احدها ـ العمل بالسماع واقبّحهُ في عيونهم .

الثاني ـ التوسع في الاكل صفة ومقداراً فان ذلك اساءة ادب .

الثالث ـ مخالطة كل احد ومباسطته وذلك هُجْنَة وقلّة مروءة .

الرابع ـ كثرة المزاح والانبساط والتوسع في الكلام لانه يجر الى الشر والنقص.

الخامس ـ النظر في كتب الرقائق والعمل عليها دون غيرها .

فاني لا افعل ذلك والله عن روية ولا اختيار وما كتبت التحذير منه ها هنا الا ليلا أجعَلَ حجة فيه وبالله التوفيق».

هذه فصول ونقول من كتاب عدة المريد تَقفُك على اهميته وتتعرف منها آراء زروق في المسائل الصوفية الدقيقة . وهي آراء موزونة بميزان الشرع ترد الى التصوف الاسلامي اعتبارَه وتعود به سيرتَه الاولى التي كان عليها في عهد الجنيْد وطبقته من الصوفية الاخيار. وقد احتوى كتابه قواعد التصوف الذي يعد حجة في هذا الباب على كثير من هذه الآراء التي نظن انه جردها

من كتابه الاول واودعها في القواعد كما احتوى على حقائق اخرى لها اهمية كبيرة في الموضوع . وتتميماً للفائدة نُورد بعضها هنا فمن ذلك قوله :

« (قاعدة) الفقه حكم عام في العموم لان مقصوده اقامةُ رسمِ الدين ورفعُ مناره واظهار كلمته وحكم التصوف خاص في الخصوص لانه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك، فمن ثم صح انكار الفقيه على الصوفي ولا يصح انكار الصوفي على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف الى الفقه والاكتفاء به دونه ولم يكف التصوف عن الفقه بل لا يصح دونه ولا يجوز الرجوع منه اليه الا به وان كان اعلى منه رتبةً فهو اسلمُ واعم منه مصلحة ولذلك قيل كن فقيها صوفيا ولا تكن صوفيا فقيها وصوفي الفقهاء اكمل من فقيه الصوفية واسلمُ لان صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالا وعملا وذوقا بخلاف فقيه الصوفية المتمكن من عمله وحاله ولا يتم له ذلك الا بفقه صحيح وذوق صريح لا يصح له احدهما دون الآخر كالطب الذي لا يكفي علمُه عن التجربة ولا العكس فافهم ».

ومنه قوله « (قاعدة) تحديدُ ما لم يرد في الشرع تحديدُه ابتداع في الدين لاسيما ان عارض اصلا شرعيا كصيام يوم لفوات وِرْد ليلته الذي لم يجعل له الشارع كفارة الا الاتيان به قبل صلاة الصبح او زوال اليوم وكذا قراءة الفاتحة قبل الصلاة وتوقيت ورد الصلاة ونحوه مما لم يرد من الشرع نص فيه لاما ورد فيه نص او اشارة كصلاة الرواتب واذكار مابعد الصلاة وقراءة القرآن وصيام النفل ونحوه فافهم » .

ومنه قوله : «(قاعدة) لايشفع عند الله احد باذنه وقد امر بابتغاء الوسيلة اليه قيل هي لا الاه الا الله وقيل اتباع رسول الله وقيل اتباع في العموم فيُتوسل بالاعمال كأصحاب الغار الذين دعا احدهم بأفضل عمله وبالاشخاص كتوسل عمر رضي الله عنه بالعباس رضي الله عنه في استسقائه وجاء الترغيب في دعاء المرء لاخيه مطلقا وقال عليه السلام لعمر رضي الله عنه حين ذهب لعُمْرة له أشركنا في دعائك يأخي وذلك للتعليم والا فهو عليه السلام وسيلةُ الوسائل واساس الخيرات والفضائل وقد روي عن مالك لا يتوسل بمخلوق اصلاً وقيل الا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا كما قال ابو بكر بن العربي في زيارة المقابر لايُزار لينتفع به الا قبرُه عليه السلام».

وقوله منه : «(قاعدة) لاعلم الا بتعلم عن الشارع او مَن ناب منابه فيما اتى به اذ قال عليه السلام انما العلم بالتعلم وانما الحلم بالتحلم ومن طلب الخير يوته ومن يتق الشر يوقه ، وما تفيده التقوى انما هو فهم يوافق الاصول ويشرح الصدور ويوسع العقول ثم هو منقسم لما يدخل تحت دائرة الاحكام ومنه ما لايدخل تحت دائرة العبارة وان كان مما تتناوله الاشارة ومنه مالا تفهمه الضمائر وان أشارت اليه الحقائق مع وضوحه عند مشاهده وتحقيقه عند مُتلقّيه وقولنا فيه : فَهْم لإثبات اصله لاغير فاعرف ما اشرنا اليه وبالله التوفيق» .

ومن شذَراته القيّمة قوله في شرح المباحث الاصلية تعليقاً على قولهم: من تصوّف ولم يتفقّه فقد تزندق ومن تفقّه ولم يتصوف فقد تفسّق ومن جمع بينهما فقد تحقق : «قلت تزندقَ الاولُ لرفضه الحكمة والأحكام وتفسّق الثاني لخلوّه من صدق النية فيما هو به والعمل به وتحقق الثالث لقيامه بكلّ

في محله فمرجع كلام الصوفية في كل باب لاحوالهم والا فلا تنافي بين اقوالهم لمن تأملها وذلك خلاف مذاهب غيرهم فمذاهب الغير يتسلط عليها الإبطال ومذهب القوم يرجع الى وفاق الحال فان لم يقبل ذلك فليس من مذاهبهم » .

ومنها فيه ايضاً : « (تنبيه) الذي ينبغي ان يُجزَم به في هذا الزمن منع الخِرَق والدخول عليها مما عليه الناس من الشح والاعتلال في الغالب واذا كان الغدر في النفوس طبعاً فالثقة بكل احد عجز » .

ومنها فيه ايضاً وقد اورده في عدة المريد مختصراً : « سئل شيخنا القورى رحمه الله عن ابن العربي الحاتمي فقال اعرَف بكل فن من اهل كل فن قيل له ما سألناك عن هذا ، قال اختُلِف فيه من الكُفر الى القُطبانية قيل له فما ترجح قال التسليم (قلت) وذلك لان التعرض للتكفير مُخطِر واظهارُ المزية ربما ادى الجاهل للاقتداء به في الواقع او لاعتقاد ظاهره والله اعلم . ومن هذا النوع ما تقدم ذكره من جواب الامام مُحيْي الدين النووي رحمه الله اذ قال الكلام كلام صوفي (وتلك امة قد خلت لها ما كسبت) الآية وطولِب بعض المغاربة المجاورين بمكة في ضبط مُعتقَده في ابن العربي الحاتمي ليصل بعض القضاة الى عقُوبته واذايته لكونه مُنكِراً له ومُكفِّراً فقال اشهدوا اني مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر وما كان من كلام فلان موافقاً بظاهره للكتاب والسنة فانا اقول به وما كان على خلاف ذلك فانا اكِلُ علمه الى اربابه فلم يجد له سبيلاً . ووقفتُ لابي زُرْعَة العراقي على جواب في شأنه وكذا ابن الفارض ذكر فيه كلام الناس من المنكرين

وغيرهم ومال الى انه يُعترَضُ على الكلام ويُترَك القائل لاحتمـــال توبته ونحوها . وهذا وجه من السلامة ايضاً .

والتحقيق في ذلك ان وجه الشريعة مُراعىً ومعنى الحقيقة ملحوظ وحرمةُ العالم لا يرفعها غلَطُه ولا سهوُه ولا خطؤه ورتبته من العلم والدين لا ترفع عنه الاحكام فتُعتبر عباراتهم من حيث حقائقُها بان يؤخذ منها ما دلت عليه من المعاني الصحيحة السالمة من الاعتراض وينظر في الالفاظ من حيث مـــا يقتضيه مُوجب الحكم في محله فلا يُهمَل حق الله فيه وحماية الشريعة بالعمل به ولا يتجامل على صاحبه بان هذا مذهبه لان دلائل انتفائه عنه اكثرُ مـــن دلائل ثبوته وحسنُ الظن في محله مُقدّم على سوء الظن والمؤمن يلتمس المعاذير والمنافق يتبع العيوب وهذا الوجه الذي قلنا اسلمُ الوجوه واحسنُها شرعــاً وحقيقةً وبالله التوفيق » .

انتهى وهو كلام نفيس وصدوره من عالم صوفي يزيده نفاسةً ولعل غير زروق من المتصوفة الذين اتوا بعده لا يمكن ان يحكي هذا الكلام ، وان حكاه فانما ليطعَن به في زروق ... أما ان يكون له رأي من هذا القبيل في الشيخ الاكبر فهذا هو الكفر او أكبر وبذلك تعرِف مقام زروق في العلم والعمل ورسوخ قدمه في التحقّق والتشرّع ..

ومنها في شرح الحزب الكبير للامام الشاذلي عند قوله (يا من هُوَ هُوَ يا هُوَ) الخ مُبيّناً حُكْمَ اطلاق هذا الضمير على الله تعالى ما نصه : « معناه الذي لا يمكن ان يشار لجلالته وعظمته فهو هو ، وللناس في هذا الاطلاق

بحث وانكار على الصوفية ، والتحقيق ان اطلاقه في محل الإثبات المطلق اساءة ادب وفي مقام التعظيم باشعاره واستشعاره وشواهده وقرائنه لا بأس به لاهله».

وتعرض في شرح الوَغليسيّة للحج بالخَطْوة الشائع ذكرُه بين اهل هذا الشأن فتساءل هذا السؤال : « وانظر هل يجِبُ على اهل الخَطْوَة (يعني اذا عُدِمت الاستطاعة) واذا فُعِل هل يُجزِىءُ او لا بد من اعتبار فعله عليه السلام ؟ »

ثم الى جانب هذا الاحتياط المشروع نجد له ارشاداً عظيم الفائدة في تمييز كتب القوم لمن يريد ان يتناولها وهو ما اشار اليه في احد شروحه للحكم بقوله : « كتُب القوم تحتوي على اربعة انواع (التذكير والوعظ) وهو حظ العوام وللخواص منه نصيب وموادّه من كتب ابن الجوزي وبعض تعاليق المحاسبي وشيء من كتب الاحياء والقُوت وتحبير القُشَيري وما جرى مجراها (والكلام والاحكام) اي احكام تصفية الاعمال وتصحيح الاحوال من واجب وسنة ومندوب وآداب ظاهراً وباطنـاً وهو حق المتوجهين من كل فريق وبكـل طريق وموادّه من كتب الغزالي والسهرورَدْي ونحوهما (والكلام عـلى الاحوال) اي تحقيقها وتحقيق المقامات والاذواق والمنازَلات وهو نصيب المريدين وربما كان تنبيهاً او تشويقاً لغيرهم ومواده من كتب الحاتِمي في المعاملات والبوني في المنازلات ونحوهما وفي رسالة القشيري مواضع من ذلك، وفي الجميع مَهاوي فاحذرها لصعوبة فهمها (والكلام على الحقائق) اي المعارف والعلوم الالهامية وهو نصيب العارفين المحققين ، وكتاب الحِكَم

محتوٍ على الاطراف الاربعة لا سيما الاخيرين منها فهو جـــامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الالفاظ » .

ونظر في القواعد الى هذه الكتب نظرةً فنية فصنّفها تصنيفاً آخر بحسب الاذواق والميول التي تكون لكل فريق ممن يسلك الطريق فقال :

« (فائدة) تعدّدُ وجوه الحسن يقضي بتعدد الاستحسان وحصول الحسن لكل مستحسن ، فمن ثم كان لكل فريق طريق فللعامي تصوف حوْتَه كتُب المحاسبي ومن نحا نحوه وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج في مدخله وللمُحدث تصوف حام حوله ابنُ العربي في سراجه[1] وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منْهاجه وللمتريض تصوف نبه عليه القُشَيري في رسالته وللناسك تصوف حواه القُوت والاحياء وللحكيم تصوّف أدخله الحاتمي في كتبه وللمنطقي تصوف نحا اليه ابن سبعين في تآليفه وللطبائعي [2] تصوف جاء به البُوني في اسراره وللاصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه ، فلْيعتَبر كل بأصله مـــن محله وبالله التوفيق » .

ونظن ان هذا الاستعراض السريع لآرائه في التصوف والصوفية واحكامه

---

1) لابن العربي سراجان : سراج المهتدين وهو من منحى شهاب القضاعي، وسراج المريدين ولعله المراد هنا .

2) يعني بالطبائعي صاحب علم أسرار الحروف وطبائعها المتصرف في عالم الطبيعة بها وبما تركب منها من الأسماء على حسب مذهبهم في ذلك .

على اعمال القوم ومنازلاتهم يكفي للدلالة على صدق من لقبه بمحتسب العلماء والاولياء واصابته في هذا اللقب .

وكان بودنا ان نستوعب كل ما تخيرناه من كتبه واستوقف نظرنا من ابحاثه وما استحسناه من رسائله الجامعة الى اخوانه ومريديه ، ونعقد بحثاً للكلام على طريقته الفقهية وتآليفه في هذا العلم فانه كان علَماً من اعلامه ومَقامُه فيه كمقامه في التصوف يأخُذ ويُعطى ويقبَلُ ويَردّ ، ويستشهد بأقوال غير المالكية من علماء المذاهب الاخرى مما يدل على سعة افقه وكثرة اطلاعه ، ولكن خوف الاطالة والخروج عن المعتاد في هذه التراجم جعلنا نكتفي بما تقدم ونقف عند هذا الحد في التعريف بعبقرية الرجل والدلالة على مكانته العلمية الكبيرة .

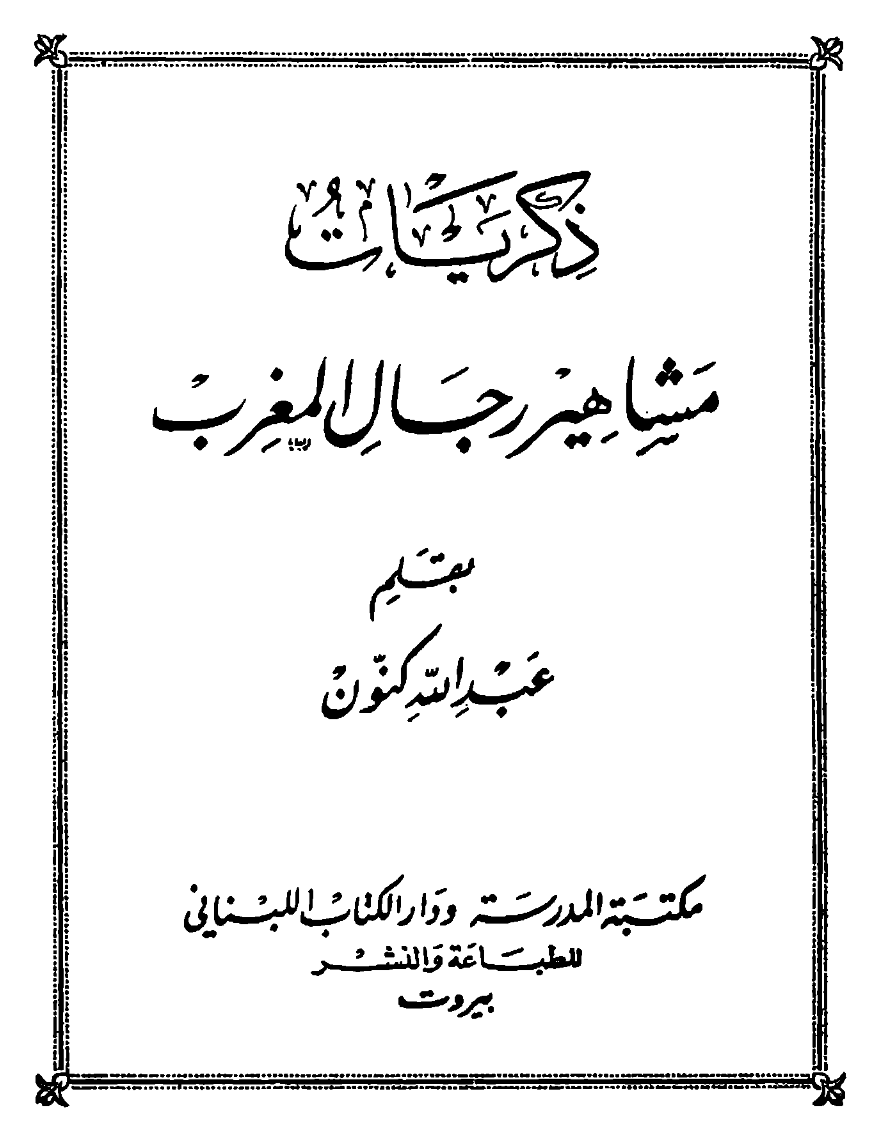
ثم نختم بهذه السانحة الصوفية الجميلة من سوانحه ، التي كانت محل انتقاد من الشيخ ابن عجيبة على ما سبقت الاشارة اليه وهي قوله : « طفتُ مشارق الارض ومغاربها في طلب الحق ، واستعملتُ جميع الاسباب المذكورة في معالجة النفس بقدر الامكان ، في مرضاة الحق ، فما طلبت قرب الحق بشيء الا كان مبعدي ، ولا عملت في معالجتها بشيء الا كان مُعيناً لها ، ولا توجهت لارضاء الخلق الا كان غير مُوَفّ بالمقصود ، ففزعت الى اللجأ اليه عز وجل في الجميع فخرجتْ بفضل ذلك علةُ رؤية الاسباب ففزعت الى الاستسلام فخرج لي منه رؤيةُ وجودي ، وهو رأس العلل ، فطرحت نفسي بين يدي الحق سبحانه طرحاً لا يصحبه حول ولا قوة ، فصح عندي ان السلامة من كل شيء ، بالتبري من كل شيءٍ : ، والغنيمة من كل شيءٍ : ،

بالرجـوع الى الله في كـل شيء ، اعتبـاراً بالحكمة والقـدرة ، وقياماً مع الطباع ، بشواهد الانطباع ، ولما يَرِدُ منه تعالى امراً ونهياً وخيراً وقهراً وعبودية لا تصحبها روية ، وروية لا يصحبها اعتماد ، واتساعاً لا يصحبه ضيق، وضيقاً لا يصحبه اتساع ، ممتثلاً في ذلك قول القائل :

قد كنتُ احسب ان وصلك يشترى بنفائس الاموال والاربـاح
وظننتُ جهلا ان حبك هيّن تُفنَى عليه كرائمُ الارواح
حتى رأيتُك تجتبي وتخصّ مَن تختاره بلطائف الأمـنـاح
فعلمتُ انك لا تُنال بحيلـة فلويتُ رأسي تحت طيّ جناحي
وجعلتُ في عُشّ الغرام اقامتي فيه غُدُوّي دائماً ورَواحي...»

ولعل ما نقلناه من اقواله في الانكار على أهل الدعاوي العريضة وردوده لما يصدر عن القوم في شطحاتهم من الكلمات الناشزة عن منهاج الورع هو وحده كاف في رد هذه القصيدة التائية التي ذكر الشيخ احمد بابا جملة منها في تكميله للديباج وذكرها كلها ابن مريم في بستانه ، لانها مما يخالف طريقته واعتقادَه وهَضْمَه لنفسه وإهداره للدعاوي بالكلية . ونظن ان احد أتباعه المغرورين هو صاحبُها وضعَها على لسان الشيخ تنفيقاً لها وتدليساً على الضعفاء. وكم لذلك من نظير . نعم لا نضع القلم من يدنا حتى نروي لزروق رحمه الله هذين البيتين من نظمه ، وقد ذكرهما في كتابه عدة المريد :

هذا التصوفُ علمٌ ليس يدرِكه الا ذكي الحجا بالجُود موصوف
يرضَى القليلَ من الدنيا ويبذلها عند الوجود بتقوى الله معروف



ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

(الشريف الادريسي)

طبع على مطابع دار الكتاب اللبناني
رأس النبع . بيروت - هاتف: ٢٥٨٧٠

24

الشريف الإدريسي

الشريف الادريسي

مصادر ترجمته - لماذا أغفله المؤرخون - شرف بيته - ولادته ونشأته - اين درس - ثقافته - سياحته والبلاد التي تجول فيها - قدومه لصقلية - كيف كانت صقلية في ذلك العهد - رغبة ملك صقلية في وضع كتاب جغرافي صحيح - قيام الادريسي بوضع خريطته وتأليف كتابه نزهة المشتاق - تقويم علمي لعمل الادريسي هذا - ثناء العلماء عليه - كتب أخرى للادريسي - آثار أدبية له - وفاته - منتخبات من كتابة نزهة المشتاق شائقة المواضيع .

لم يرد ذكر لهذا العالم الجغرافي الكبير في دواوين المغاربة بالمرّة ، وكادت دواوين المشارقة تخلو من ذكره ايضاً لولا هذه النبذة الشبيهة بالترجمة الواردة عنه في كتاب الوافي بالوفيات للصلاح الصفدي ، ولولا نبذة اخرى عنه واردة في كتاب عيون الانباء لابن ابي أُصَيبعة ، وان كانتا معاً لا تغنيان في التعريف به شيئاً لانهما لا تشيران ولو الى تاريخ ولادته او وفاته .

فنحن في كتابة ترجمته مضطرون للاعتماد على علماء الاستشراق من الاوربيين الذين عُنوا بتعرف احواله وتتبع آثاره . وعلى بعض الكتاب

المحدثين الذين اشادوا بذكره ونوهوا بقدره ، فضلاً عما نستنتجه نحن من دراسة تراثه العلمي والادبي وما نسجله من افكار وملاحظات .

ونظن ان السبب الوحيد في عدم تعرض كُتّاب التراجم من مغاربة ومشارقة لذكره هوخفاء حاله عنهم لبُعد مطرحه وطول غربته ، فانه فارق بلده سبتة في اول شبيبته وتجول في البلاد النائية ما شاء ثم استقر به المُقام في ارض العدو كما كان يقال اذ ذاك أو في بلاد اجنبية كما نقول اليوم ، والغُربةُ وحدها مما يُعفي على الاثر ، ويذهب بالخُبْر والخَبَر فكيف بها مع النشأة الاولى وفي دار الحرب ؟ وكم خَفيت معالم ، وذهبت مآثر ، وجُهلت اشخاص ، ونُسيت اسماء بسبب الغربة وتباعد المطارح بالانسان فلا جرم ان تخفى اخبار الشريف الادريسي عن المؤلفين وهو بهذه الحالة ، فلا يترجمون له وان كانوا لم يُغفلوا النقل عنه والاعجاب بآثاره .

جاء في كتاب الرحالة المسلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن ما نصه : « ومما يؤسف له اننا لا نعرف شيئاً كثيراً عن سيرة الادريسي . وقد ذهب بعض المستشرقين [1] الى ان مرجع هذا ان المؤلفين العرب كانوا يتجاهلون وُجودَه لاسرافه في مدح رُوجار ، ولانصافه المسيحيين في صِقلّية الى ابعد حد ، في وقت كان المسيحيون فيه يشُنّون على المسلمين الحروب

1) هو دوزي الهولاندي في مقدمته للقسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس من كتاب النزهة الذي نشره مع ترجمة فرنسية سنة 1864 .

الصليبية الشعواء او يعملو ن على طردهم من الاندلس ، ولكن هذا التعليل لا يقوم على اساس متين لان شكوانا في شأن ضياع سيرة الادريسي تصلح ايضاً لسيرة كثير من سائر الجغرافيين المسلمين ، الذين لم يتصلوا بالمسيحيين ولم يُسرِفوا في مدحهم » .

وينبغي ان يزاد على هذا ان المؤلفين المسلمين ان جهِلُوا ترجمته فهم لم يتجاهلوا كتُبه والنقلَ عنه والاستفادةَ من ابحاثه والثناءَ على آرائه في اهم المسائل الجغرافية والطبية والنباتية وقد انتفع بكتابه ابنُ خلدون وابنُ فضل الله العُمَري والقَلْقشَندي وغيرهم واثنوا عليه كما اثنى عليه الصفدي وابنُ ابي اصيبعة في ترجمتهما له . فلو كان المسلمون ارادوا تجاهله لما نقلوا عنه ولما تسابقوا في اطراء عمله .

وهذه النزعة من التعصب على اهل العلم والفضل وانكار مزاياهم ليست من صفات المسلمين ، فإنّا أُمِرْنا ان نُنْزِل الناس منازلهم ، وان لا نبخس احداً حقه . ولم ينتقص المسلمون عالماً لدينه ولا تجاهلوا مفكراً لمذهبه ، بخلاف من قالوا هذا القول في الادريسي فكم صدر عنهم من مقالات في الطعن على مخالفيهم في الدين بغير حجة ولا دليل ، وكم غضّوا من شأن العلم والفكر والحضارة عند العرب للحقد الدفين في صدورهم والغرض المذموم المستولي على نفوسهم ، الا قليلاً منهم لم يستملهم الهوى ولم يجرفهم التيار ، وهم معروفون بنزاهتهم وترفعهم عن مثل هذا الدس المكشوف .

وبعد فالادريسي هو ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس ابن يحيى بن علي بن حمّود بن ميمون بن احمد بن علي بن عبد الله بن عمر ابن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب، يرتقي بنسبه في طرفه الاعلى الى ادريس بن عبد الله موسس الدولة الادريسية بالمغرب ، وفي طرفه الادنى الى علي بن حمود منشيء الدولة الحمودية بالاندلس في عهد ملوك الطوائف . فهو عريق في الشرف والمجد ، وبجده ادريس بن يحيى يقول الشاعر :

وكأنّ الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيونُ الناظرين
وجهُ ادريس بن يحي بن علـيّ بنِ حمّودٍ أميرِ المؤمنين

وكان ادريس هذا يلقب بالعالي بالله ويحتجب عن عيون الناس فلا يكلم الا من وراء حجاب ، فخاطبه هذا الشاعر بقوله من نفس القصيدة :

أنظُرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين

فأمر ادريس برفع الحجاب وادنى الشاعر منه واجازه .

ولم تلبث دولة الحموديين بعد ادريس هذا الا قليلاً ثم انقرضت فاستقر سلَف مترجمنا الشريف الادريسي ببلد سبتة التي كانت من مشمولات ولايتهم وبها ولد في سنة ٤٩٣ هـ.

وقد رُبي تربية عالية ونُشيء على ما تقضي به تقاليد بيته الكريم من التعلق بمعالي الامور والتمرّس بأسباب الرياسة كالشجاعة والعلم والنظر في اوضاع البلاد وسياسة الناس مما ظهر اثره بعدُ في سلوكه وافكاره .

والغالب انه تلقى دروسه ببلده سبتة ، فقد كانت حافلة بالاعلام في كل فن ، وكان المعتمد بن عباد قبل هذا التاريخ بقليل يقول : « اشتهيتُ ان يكون عندي من اهل سبتة ثلاثةُ نفَر ؛ ابن غازي الخطيب ، وابنُ عَطاء الكاتب ، وابن مرانة الفَرَضي » وكان ابن مرانة هذا من اعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة .

ويميل الاستاذ ميلّر الالماني ، احد العلماء الذين عُنوا بآثار الادريسي عناية خاصة ، الى انه قد يكون انهى دراسته بقرطبة اخذاً من وصفه الكامل لهذه العاصمة ، في كتابه نزهة المشتاق ذلك الوصف الذي لا يصدر الا عن معرفة تامة بها واقامة طويلة فيها .

ومهما يكن الامر فان الادريسي كان على ثقافة ادبية متينة ، يدلنا عليها انشاؤه البليغ وشعره البديع الذي نعرض نماذج منه فيما يأتي ، كما كان على ثقافة رياضية كاملة من حساب وهندسة وجغرافية فلكية وطبيعية وسياسية ، وهذا فضلاً عن معرفته بالطب ومنافع الاعشاب واماكنها واعيانها ، فهو طبيب ونباتي ايضاً . وبهذه الصفات ذكره من ذكره من المؤلفين على انه قد انتج في هذه الفنون كلها كما سنراه بعد .

ومما لا شك فيه ان تجوّله في البلاد ورحلاته العديدة قد افادته كثيراً ووسعت من ثقافته التي اخذها بالدرس وحصلها بالطلب ، ومدرسةُ التجربة والحياة انفع المدارس على الاطلاق .

وقد بدأ الادريسي سياحته وهو ابن ستة عشر عاماً ، مما يدل على نُضْجه المبكر ، شأن النوابغ امثاله وابناء البيوتات العريقة . فتجول في بلاد شمالي افريقيا وعرف مدنه وقراه وكذا بـلاد الاندلس وزار بعض مدن فرنسا وشاطئها الواقع على المحيط الاطلنطيقي وكذا بعض مدن الشاطيء الانجليزي .

وفي الشرق زار مصر والشام وتجول في سائر بلاد آسيا الصغرى وكان ذلك خلال سنة ٥١٠ على ما يذكره هو بنفسه .

ويظهر ان اقامته بالشرق كانت طويلة لأنا نراه في ابيات له من الشعر — سنذكرها فيما بعد — يشتكي من رجوعه الى المغرب خائبَ الامل غيرَ ظافر بما كان يرجوه في الشرق من التقدير اللائق به بصفته احد النوابغ وبصفته احد الاشراف ايضاً ، وان سكت عن هذه ولم يقلها .

ولا يبعد انه كان ينوي الاقامةَ على الدوام باحد اقطار المشرق ، بالشام مثلاً او بمصر ، وعلى كل فنحن نميل الى انه لبث بالشرق العربي مَلِيّاً ، سنتين او ثلاثاً على الاقل ان لم يكن بقصد الاقامة الدائمة فلزيادة التحصيل والتوسع في الدراسة والا فان الثقافة التي كان عليها الادريسي في مُخْتَلِف العلوم التي ذكرنا ليست مما يمكن تحصيله في السن التي بدأ سياحته فيها . وقد يكون عاد الى الاندلس واقام بقرطبة منها على الخصوص حيث ازداد تمكنا في العلم ، ولكن شكواه المشار اليها من قبل تجعلنـا نرجح انه لما عـاد الى المغرب ، كان مملوء الوِطاب بالمعارف فليس به من حاجة الى دراسة زائدة .

ومنذ عام ٥١٠ الذي قلنا ان الادريسي كان خلاله يتجول في بلاد الشرق، لم نعرف من اخبار مترجمنا شيئاً حتى رأيناه في بلاط روجار الثاني ملك صقلية سنة ٥٤٨ وقد أتمّ تأليف كتابه نزهة المشتاق .

وبما انه ذكر في مقدمة هذا الكتاب ان مدة العمل في تهيئة أبحاثه استغرقت نحواً من ١٥ سنة ، فلا بد ان يكون قدومه لصقلية كان في سنة ٥٣٣ أو قبلها بقليل . وقد نبه على ذلك الاستاذ ميلر ، وهو ظاهر من طرح مدة العمل من السنة التي تم فيها الكتاب .

وعلى قول الصفدي في ترجمة روجار من كتابه الوافي بالوفيات [1] فان الادريسي انما حضر الى صقلية باستدعاء من ملكها المذكور ليعينه في ابحاثه الجغرافية . وهذا لا يصح الا اذا كان الملك يعرف الشريف من قبل ويعرف رسوخ قدمه في هذا العلم ، فهل عرفه في زيارة سابقة له الى صقلية ؟ او عرفه مما كان له من شهرة علمية كبيرة ؟..

---

١) نقل هذه الترجمة المستشرق الايطالي ميشيل اماري في كتابه الجامع المنتخب مما ورد من أخبار صقلية في كتب العرب وهو كتاب حافل بما يتعلق بصقلية العربية من ناحية الوصف والتاريخ والتراجم ، جمعه المستشرق المذكور من الكتب العربية المخطوطة والمطبوعة التي تعرضت لذكر صقلية وقد أفدنا منه كثيراً في هذه الترجمة ، ومعلوم ان كتاب الوافي بالوفيات المشار اليه هنا لم يطبع منه لحد الآن إلا ثلاثة أجزاء الأول بعناية المستشرق ريتر سنة 1931 والثاني والثالث بعناية المستشرق ديدرنغ سنة 1949 و 1953 وهو أوسع كتاب عربي في التراجم لانه يقع في ٣٠ مجلدة ؛ فهذا العمل البطيء في نشره لا يخرجه من عداد المخطوطات إلا بعد أمد بعيد .

ومع ذلك فان كلام الصفدي يدل على ان الشريف لما قَدِم على روجار لم يكن ينوي الاقامة في صقلية ولكن روجار رغّبه فيها وقال له : « أنتَ من بيت الخلافة ومتى كنت بين المسلمين عمل ملوكهم على قتلك ، ومتى كنت عندي امنت على نفسك فاجابه الى ذلك » فهل قدومه الى صقلية كان اولا من برنامج سياحته ولما رآه ملكُها وعرّف ما له من باع طويل في علم الجغرافية الذي كان هوايته وفي الطب الذي كان يجمع اليه اقطابه ، رَغِب اليه في المقام عنده والكَوْنِ بِمَعِيّته في غاية العز والاحترام فأجابه الشريف الى ذلك ؟

يغلب على ظننا ان يكون هذا هُو الواقع ويكون الشريف انما انتقل الى صقلية بعد رجوعه الى المغرب وخاصةً الى بلده سبتة حيث جدد العهد باهله وأصحابه ، واستعد الإستعداد اللازم لطول مُقامه بصقلية . وذلك هو ما يفسر لنا قول الصفدي في ترجمته لروجار : « وهو الذي استقدم الشريف الادريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق من العُدْوة ليصنع له شيئاً في شكل صورة العالم » .

وكانت صقلية في ذلك الوقت لم تزل تحتفظ بالطابع الاسلامي والعربي، وسُكّانها من المسلمين كثيرون ومعالم الحضارة العربية هي الغالبة على مجتمعها حتى ملكها رُوجار كان يستظهر بعادات المسلمين في اللباس والهيأة وشارَة المُلْك من الجنائب والحُجّاب والسّلاحية والجُنْدارية وغير ذلك . كما يقول ابن الاثير وغيره من المؤرخين ، وخالف عادَة الفرنج واكرم المسلمين وقربهم ومنع عنهم الفرنج فاحبوه .

ومن المحقق ان رُوجار كان ملكاً مستنيراً وعلى جانب من التسامح الذي يندُر في ملوك عصره من النصارى ؛ الا انه لا يصل الغاية التي يصفها اكثر الكتاب . فقد كانت تصدر عنه من اعمال الوحشية ما لا يصدر عن اكثر ملوك النصرانية تعصباً في القرون الوسطى .

وناهيك بقصة فتاهُ فيلبّ المهدوي الذي جهّزه في اسطول لفتح مدينة بونة فحاصرها واستعان عليها بالعرب فاخذها وسبي اهلها وملك ما فيهـا ، غير انه اغضى عن جماعة من العلماء والصالحين حتّى خرجوا بأهليهم واموالهم الى القرى . فلما رجع إلى صقلية قبض رُوجار عليه لِـمَا اعتمده من الرفق بالمسلمين واتّهمه بانه مسلم ، فجمع الاساقفة والقسوس فحكموا عليه بان يُحرق فأحرِق !

وهذه شنيعة لا تقع ممن يوسم بشيء من التسامح — الى هَنَوات اخرى شبيهة بهذه ذكرها المؤرخون .

ونرى ان ما كان يتظاهر به من التسامح مع المسلمين في جزيرة صقليـة وخاصة في بَلاطه بعاصمة بالِرْم هو شيء كان مضطراً اليه ؛ اولاً لما فيه من الفائدة له ولمملكته فان المسلمين كانوا حينئذ هم العنصر الراقي الحامل لِمشْعل العلم والحضارة في الجزيرة وفي غيرها من أنحاء الارض فالتسامـح معهم لبقائهم في كنَفه يُغذّون النهضة العلمية التي كان يُعنى بها كثيراً ولا

يجد من غير المسلمين من يُعينه عليها . وفي الشريف الادريسي وعمله مثال صادق على ذلك .

وثانياً لان جزيرة صقلية كانت قريبة العهد بالحكم الاسلامي فانها لم تسقط في يد روجار الاول والد المذكور الا سنة ٤٨٤ وكانت لا تزال آهلـــة بالسكان المسلمين وفي جوار بلادٍ اسلامية قوية لم تضعف عن الدفاع عنها حتى سقطت الا بسبب الفتن الداخلية التي كانت ناشبةً فيها . ولما استتبّ الامر في افريقية لعبد المومن الموحدي تنبه الى خطر هؤلاء النورمانيين الذين كانوا قد احتلوا بعض المدن الواقعة على شاطيء البحر الابيض المتوسط فحاربهم وانتصر عليهم ، ولذلك كان روجار يخاف من سطوة المسلمين ان يعيدوا الكرّة على جزيرته فـــلا يستطيع ان يتحرش بمن عنـــده منهم ويضطر الى معاملتهم بالحسنى .

وعلى كل حال ففي هذا البلاط الذي كان كثير الشبه في مظاهره — على الاقل — بالبلاطات الاسلامية حينذاك ، وكانت ميزته الخاصة من بين سائر البلاطات النصرانية هي تقدير العلم والعلماء على اختلاف اديانهم واوطانهم بقطع النظر عن الباعث له على ذلك ، عاش الشريف الادريسي وقضى شطراً مهماً من عمره باحثاً منقباً عاملاً على تقدم العلم والمعرفة الانسانية والحضارة بما قام به من خِدْمات جُلّى لعلم الجغرافية وصفة الارض وتقويم البلدان ، وبوضعه لاول خريطة عالمية صحيحة مبنية على الاصول العلمية والحقائق

الفنية الثابتة لذلك العهد والتي لا تختلف اختلافاً كبيراً عما هو ثابت من ذلك لعهدنا هذا .

وكان طيلة اقامته في صقلية موضع اعتبار كبير من صاحبها رُوجار ثم من ابنه غليوم بعده . ورتب له – كما يقول الصفدي – كفاية لا تكون الا للملوك وكان يجيء اليه راكباً بغلة فاذا صار عنده تنحى له عن مجلسه فيأبى فيجلسان معاً . وهذه نهاية الكرامة وغاية التّجِلّة .

ولما استقر الادريسي ببلاط روجار كان اول ما عرّضه هذا عليه رغبته في ان يؤلف له كتاباً في وصف مملكته الواسعة وما هي عليه من الحضارة والعمران وذكر مسالكها وحدودها وموقعها من بقية الممالك مع وصف هذه الممالك ايضاً وذكر ما يتعلق بها من ذلك على وجه التحقيق وتجنّب المزاعم الباطلة والخرافات والاوهام ، ذاكراً انه لم يجد ما يشفي غليله من ذلك لدى كتب المؤلفين في تقويم البلدان من قدماء ومُحدَثين ، ولا من يجيب على اسئلته في الصدد من العلماء الملتفّين حوله والمرتسمين في بلاطه .

فلم يكن من الادريسي حينئذ الا ان شمّر ذيله للعمل على تحقيق هذه الرغبة التي ربما كانت رغبته ايضاً لا سيما وهو قد جال في اطراف آسيا واوربا وافريقيا فعلى الاقل تكون عنده رغبة في تسجيل ما رأى وما علم من احوال البلاد التي زارها وعرفها .

ولأجل ان يكون على يقين مما يعمل وان يبني على مثل ما بني عليه في البلاد

التي زارها وعرفها اوحى الى رْوجار ان يبعث الى سائر اطراف مملكته فيحضر لديه كل من له علم بشيء من صفاتها واحوالها ، ولا سيما من السّفّار المتجولين في انحائها وجهاتها . ثم يأمر بتَلَقّي ما يُدْلُون به من معلومات في هذا الشأن فما اتفق فيه قولهم وصح به خبرهم ونقلُهم أُثبِت وسُجّل ، وما اختلفوا فيه أُلغِي وأُهمِل ، وقد كان الامر كذلك ، فارسل روجار الى هؤلاء ووقع سؤالهم افراداً وجماعات بواسطة الادريسي او بواسطة من كلف بذلك (1) ولم يكتب عنهم الا ما اتفقوا عليه وما صح الخبر به بعد النقد والتمحيص .

وقد اشرف الادريسي على هذا العمل وقام به احسن قيام ، ولبث مدة خمسة عشر عاماً مضطلعاً بجمع مواده وبحثها وتنسيقها الى ان انتهى منه الى ما اراد وما ارضى رغبة صديقه الحفِيّ به الملك روجار .

وكان لاجل ان يستعلم يقيناً صحةَ ما اتفق عليه القوم المشار اليهم في خصوص مادة الاطوال والعروض للبلاد المختلفة ، يحضر ما سماه « لوح الترسيم » وهو لا شك تصميم جغرافي للكرة الارضية او هو بعبارة ادق مشروع خريطة العالم التي وضعها فيما بعد ، فيمتحن عليه مواقع البلدان واحداً فواحداً بواسطة بِرْكار من حديد مُقارِناً ما عنده من معلومات بما قرره المؤلفون في هذا العلم محققاً بغاية العناية المواقع المذكورة ومرجحاً بالاستناد

---

1) عبارة النزهة لا تفصح بالمراد حيث جاء فيها « فسألهم عنها بواسطة » ولربما كانت صحة هذه العبارة بواسطتي .

الى النظر الصحيح بين الاقوال المتضاربة في بعض المسائل حتى يقف عـلى حقيقتهــــا .

وكان هذا بلا ريب هو الاصلاح العظيم الذي ادخله الادريسي على خريطة العالم فجعلها تقرُب من وضعها العلمي الصحيح الذي هي عليه اليوم .

ولما وصل الى هذه النتيجة اراد ان يُخلّدها بوضع خريطة جامعة يرسُمها على صفيحة من الورق لا على صحيفة من الورق فتكون بمنجاة من عوامل التلف ان شاء الله ذلك . وقد امر الملك ان تُفرَغ له دائرة من الفضة الخالصة « عظيمة الجِرْم ضخمة الجِسم » على حد تعبيره « في وزن اربعمائة رطل بالرومي في كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهماً ، فلما كملت امر الفَعَلَة ان ينقُشوا فيها صور الاقاليم السبعة ببلادها واقطـارها وسيفِها وريفِها وخُلجانها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع انهارها وعامِرها وغامرها وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والاميال المحدودة والمسافات المشهورة والمراسي المعروفة على نص ما يخرج اليهم ممثّلاً في لوح الترسيم ولا يغادروا منه شيئاً ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيـــــه » .

ولما نجز هذا العمل انصرف الادريسي الى انجاز كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق الذي كان تأليفه هو الباعث على بذل هذه الجهود كلها والذي

جاء بِمثّابة التفسير والشرح لخريطة العالم الجديدة وقد انتهى منه في عام ٥٤٨ هـ . كما سبقت الاشارة الى ذلك .

وتوفي روجار في ذلك العام نفسه فلم يتمتع طويلاً بتحقيق امنيته ، ومع ذلك فلم يكن احد لينسى ما له من الفضل في وجود ذلك الكتاب حتّى لقد سمي باسمه فقيل كتاب رُوجار والكتاب الرّوجاري .

وهذا السياق الذي ذكرناه في طريقة وضع الخريطة وتأليف النزهة والابحاث التي سبقت ذلك ، هو ما يفيده كلام الادريسي نفسه في مقدمة كتابه . وخالفه الصلاح الصفدي في مسألة وضع الخريطة ونقشها على الصفيحة الفضية فجعلها اولا قبل ان يعزم عليه روجار في الاقامة عنده ، وقبل ان يخاطبه في مسألة تأليف الكتاب ويباشر الابحاث المذكورة . ولا يخفى ما فيه .

ثم ان هناك غلطاً آخر عند الصفدي في عدد الدراهم التي دخلت في صنع الصفيحة الفضية ، فانه ذكر ان روجار حمل له من الفضة الحجَر وزنَ اربعمائة الف درهم ، فاستعمل منها الثلث وارجح عليه بقليل وفضل له ما يقارب الثلثين فتركه له اجازةً . وما صرح به الادريسي وضبطه بالوزن والعد يخالف ذلك ، فانه جعل وزن الصفيحة ٤٠٠ رطل بالرومي في كل رطل منها ١١٢ درهماً ، وذلك لا يعطي الا ٤٤٨٠٠ درهم ، وهذا العدد لا يكون ثلث الاربعمائة الف المذكورة .

وقد قدر الاستاذ تشيا باريلي احد المستشرقين الطليان الذين كتبوا عن الادريسي وزن هذه الصفيحة بمبلغ ١٥٠ كيلو غراماً . وقدر الاستاذ ميلر مساحتها بثلاثة امتار ونصف طولا ومتر ونصف عرضاً وثلاثة مليمترات سمكاً .

ومع كونها بهذه المتانة فانها لم تُعمّر الا قليلاً جداً ؛ سبع سنوات فقط ، حيث سطا عليها الثوار في سنة ٥٥٥ واقتسموها اطرافاً فذهبت الى حيث لم ينتفع بنقوشها احد ؛ على حين بقيت اصولها من الاوراق العادية محتفظة بكنوزها القيمة حتى وصلت الينا سالمة .

هذا ويزيد الصفدي على ما تقدم من تنازل الملك روجار للشريف الادريسي عن ذلك المبلغ الضخم الفاضل من الفضة المذكورة : انه اضاف لذلك مائة درهم اخرى ومَرْكباً كان قد جاء اليه من برسلونة مشحوناً بانواع الاجلاب الرومية فأعطاه كل ذلك جائزة له على خدمته العلمية العظيمة .

ويحق لروجار ان يجيز الادريسي هذه الاجازة السخية ، فانه حقق له حلماً من اعظم احلامه وخلد اسمه معه في سجل التاريخ العلمي بما وضع من هذه الخريطة وما كتب من هذا التأليف اللذين يُعدّان فتحاً من الفتوح العلمية في عالم الجغرافية ، ذهبت فتوح روجار الحربية في اوروبا وافريقيا وبقي ذكر هذا الفتح مقروناً بالاعجاب الى يوم الناس هذا ، مع الاستفادة منه في تقرير

اصول علم الجغرافية طيلة القرون المتتابعة حتّى وصلت الى ما هي عليه الآن من تقدم وازدهار .

ولشرح عمل الادريسي من الناحية الفنية ولو باختصار نلم ببعض ما كتبه في هذا الصدد العلامة ميلر الالماني الذي جمع اطراف الخريطة الادريسيـــة ودرس كتاب نزهة المشتاق دراسة علمية وافية حتّى اخرج هـــذه الخريطة ـ لاول مرة ـ في طبعة ملونة غاية في الإتقان سنة ١٩٣١ .

ومما قاله في بيان رأي الادريسي الذي بنى عليه عمله انه كان يرى مثـــل زملائه من علماء الجغرافية العرب ان الارض مكورة على شكل بيضة وانها منقسمة بواسطة خط الاستواء الى قسمين متساويين ؛ شمالي وجنوبي ، المعمور منها الشمالي فقط . اما الجنوبي فهو خلاء غير معمور لشدة الحرارة ولعدم وجود الماء فيه .

وهنا تنبغي الاشارة الى ان الفيلسوف ابن رشد عارض الادريسي في هذه النظرية فرأى ان النصف الجنوبي من الكرة موافق للنصف الشمالي في الجو والطبيعة وانه ما هول بالسكان كمـــا أشار الى ذلك ابن خلـــدون في اول مقدمته[1] .

---

1) نحن نعتمد في هذا العرض على بحث الأستاذ عبدالله ماضي الذي لخصه عن ميلر ونشره باعداد الرسالة المصرية 64 و 65 و 66 . ولكن لا بد من ملاحظة ان غير ابن رشد من الجغرافيين العرب عارضوا أيضاً رأي الادريسي في هذه المسألة . ولينظر ما كتبه ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار بسطاً لرأي الادريسي ورداً عليه لا في خصوص عدم صلاحية النصف الجنوبي للسكنى فقط ، بل فيما بعد درجة 64 شمالا أيضاً وهي التي انتهى إليها الادريسي بعمارة الأرض في هذا القسم .

وعلى كل فالخريطة الادريسية انما تمثل القسم المعمور من الكرة الارضية وهو النصف الشمالي منها ويشمل العالم القديم او مجموع القارّات الثلاث التي هي آسيا وافريقيا واوروبا ، وان كان هذا الاسم اعني قارّة لم يكن معروفاً في ذلك الوقت ، لان تقسيم العالم كان مبنياً على نظرية الاقاليم ، وهي سبعة كما عند الادريسي وغيره ، ولكن الادريسي حددها وقسمها بحسب درجات العَرض فجعل الاقليم الاول فيما بين صفر ودرجة ٢٣ شمال خط الاستواء والاقاليم الخمسة بعده كل واحد منها ست درجات والاقليم السابع من ٥٤ — ٦٣ وما بعد هذه الدرجة الاخيرة مِنطقة غير مسكونة لكونها كثيرة البرودة ومغمورة بالثلوج .

ولقد اضاف الادريسي الى القسم الشمالي من الكرة الارضية جزءاً صغيراً من القسم الجنوبي حتى درجة ١٦ عرضاً جنوب خط الاستواء . وهذا الجزء هو الذي تقع فيه منابع النيل . وقد بينها ببراعة علمية تُغبّر في وجوه الذين ادعوا استكشافها بعد ذلك .

اما الذي يُذكر للادريسي بالاعجاب والفخر فهو أنه حاول بتقسيمه الارض الى الاقاليم السبعة اثبات درجات العَرْض وتحديدها ، وأنه أفلح في هذه المحاولة الى حد بعيد يجعل علماء الفن في العصر الحديث يطأطئون الرأس له اعجاباً وتقديراً .

٦٣ على التتابع والدرجات التي اثبتها توافق الدرجات الحقيقية تمام الموافقة في جميع البحار وفي معظم اليابسة حيث توفرت لديه الاسباب وامكنه اجراء المقاييس الصحيحة . وفي بعض جهات قليلة من اليابسة حيث لم تتم له الاسباب تختلف الدرجات التي اثبتها عن الدرجات الحقيقية اختلافاً قليلاً ، فمثلاً وضع مدينة « كلمار » ببلاد السويد عند درجة ٥٦ ١/٣ وهي تقع عند درجة ٥٦ ١/٢ وجعل الدانيمارك ابتداء من ٥٤ ١/٢ الى ٥٨ والصحيح انها من درجة ٥٤ الى ٥٧ ١/٢ وجعل انكلترا من ٥٢ — ٥٨ بدلا من ٥٠ — ٥٨ ١/٢ وهـــذا بالطبع فرق ضئيل في جهات قليلة دعا اليه عدم توفر الاسباب والامكانيات الموجودة اليوم .

ولعله لهذا السبب لم يثبت درجات العرض الى درجة ٢٨ شمالاً وانمـــا اكتفى بوضع ارقام بجانب اسماء البلاد التي تقع في هذه المنطقة(1) . كذلك لم يثبت خطوط الطول وانما قسم كلاً من الاقالـــيم السبعة الى عشرة اقسام متساوية من جهة الغرب الى جهة الشرق . وهذا التقسيم وان لم يدل عـــلى درجات الطول ، فانه يسهل القيام بالمهمة ويعين على رسم الخريطة .

---

١) يرى المستشرق الفلندي طالكرن طوليو tallgren-tuulio ان الادريسي أثناء مرض روجار لم يعد يشتغل بنفس الاهتمام الذي كان له من قبل ، وربما وقع فتور من المتعاونين معه في العمل — فكان وكده إنجاز الكتاب في حياة روجار ولا بد أن تكون هذه رغبة روجار أيضاً فلذلك لم يحرر بعض أقسام الكتاب .

وهذا المستشرق قد نشر بمعونة أحد زملائه المدرسين في جامعة هلسنكي سنة ١٩٣٠ القسم المتعلق بوطنه فلندا والبلاد الأخرى الواقعة شرقي بحر البلطيق من كتاب نزهة المشتاق مع ترجمة فرنسية محققة للغاية . وقد استفدنا مما كتبه عن الادريسي .

وقد وضع لكل قسم من هذه الاقسام السبعين خريطة خاصة زيادة على الخريطة الجامعة ، ولحسن الحظ فان هذه الخرائط السبعين بقيت محفوظة في مختلف النسخ الموجودة من كتاب نزهة المشتاق ، ومنها استخرج ميلر خريطة الادريسي الجامعة التي قلنا انه أعتنى بجمعها وتحقيقها ثم طبعها لاول مرة طبعة ملونة غاية في الاتقان . ولكن بما انه نشرها بالحروف اللاتينية فقد انتدب لها المجمع العلمي العراقي واعادها الى اصلها العربي بعناية اثنين من اعضائه الباحثين هما الاستاذ محمد بهجة الاثري والدكتور جواد علي بعد ان رجعا في تحقيقها وتصحيحها الى خمس نسخ مصورة من كتاب نزهة المشتاق وطائفة من كتب العرب الجغرافية واستدركا على ميلر ما استدركاه وبينا اختلاف النسخ ثم نشرها المجمع المذكور في حلة قشيبة ملونة بحجم المترين طولاً والمتر الواحد عرضاً وذلك سنة ١٩٥١ .

ثم مما يجدر التنبيه عليه ان قراءة خريطة الادريسي هي بخلاف قراءة الخرائط المعهودة لدينا لانه يجعل الجنوب في اعلى الصحيفة والشمال في اسفلها فيكون الغرب يميناً والشرق يساراً ، وعلى ما يفهم من ابن فضل الله العمري فان هذا هو اصطلاح الاقدمين على العموم .

والى القاريء نموذجاً من خريطة الادريسي يمثل بلاد المغرب وهو منقول عن مخطوط اكسفورد رقم ٢ وفي اكسفورد مخطوطان من كتاب الادريسي :



وبعد هذا التحليل المبيّن لقيمة الخريطة الادريسية لا نرى حاجة الى التنبيه على اهمية الكتاب الذي وضع على اساس تفسيرها وشرحها وما يحتويه من علماء الاستشراق في صدد التنويه به والاعتراف بما كان له من اثر في توجيه الدراسات الجغرافية منذ اواسط القرون .

فمن قول سيبولد في دائرة معارف الاسلام : « ان كتاب الادريسي يُعدّ اعظم مصنفات العصور الوسطى في الجغرافية » .

ومن قول كارادوفو في كتابه مفكرو الاسلام : « ان الادريسي استعمل ملاحظاته الشخصية زيادة على الانتفاع بملاحظات معاصريه واعمال المؤلفين قبله من مثل المسعودي وابن حوقل والمقدسي ، ولا شك ان ما كتبه عن البلاد الغربية كان احسن ما كُتِب عنها لانه اعطاها بحثاً من الطبقة الاولى ، وباستثناء البكري فان محاولة الاستفادة مما كتبه عنها الجغرافيون الآخرون تعد عبثاً » .

وقال البارون دي سلان في عدد ابريل ١٨٤١ من المجلة الاسيوية الفرنسية : « ان كتاب الادريسي لا يمكن ان يوازن به اي كتاب جغرافي سابق له ، وإن تمّتَ بعضَ اجزاء من المعمورة لا يزال هذا الكتاب دليل المؤرخ الجغرافي في الامور المتعلقة بها »

ويقول لوريش في دائرة المعارف الفرنسية : « ان كتاب الادريسي هو كتاب جغرافي تركه لنا العرب . وان ما يحتويه من تحديد المسافات والوصف الدقيق يجعله اعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى » .

والثناء على جغرافية الادريسي كثير ، كالاعتناء بنشرها وترجمتها الى اللغات الاجنبية . فلنكتف بهذا القدر متابعين الكلام في بقية تآليفه وترجمة حياته .

بعد وفاة روجار عاش الادريسي بِمَعِيّة ولده غليوم مدةً ألّف له فيها كتاباً جغرافياً آخر اكثر بسطاً من نزهة المشتاق سماه روض الانس ونزهة النفس ويعرف ايضاً بكتاب الممالك لكنه ضاع ولم يصلنا منه الا نقول عند ابي الفدا في تاريخه .

كما وجد منذ نحو ٢٤ سنة في استانبول كتاب ثالث للادريسي اسمه روض الفرج ونزهة المهج وهو على ما يظهر مختصر لكتاب النزهة وان كان يوجد به في كثير من المواضع اوصاف واسماء تختلف عما بالاصل .

وذكر ابن ابي اصيبعة ان للادريسي كتاباً في الادوية المفردة وذلك — مع تحليته بانه كان فاضلا عالماً بقوى الادوية المفردة ومنافعها ومنابتها واعيانها — هو كل ترجمته عنده بعد ذكر اسمه ونسبه .

واما الصلاح الصفدي فذكر انه كان اديباً ظريفاً شاعراً زيادة على ما وصفه به من المعرفة بعلم الجغرافيا والتأليف فيه . وثبت وصفه بالادب والشعر ايضاً في الخريدة للعماد الاصفهاني نقلا عن كتاب المختار لابن بِشْرون الصقلي . ومع ان ابن بشرون هذا غلط في اسمه فانه ذكر انه لقيه

في مدينة صقلية وروى عنه معظم ما اثبته في كتابه من ادب الاندلسيين واشار الى كتابيه نزهة المشتاق وروض الانس . ثم وصفه بتوليد المعاني وتجويدها ، وتوكيد المباني في السحر وتشييدها ، لا سيما في توشية التوشيح ، وتوشيع نظمه المليح ، فانه حاذق زمانه ، وسابق ميدانه الخ ما قاله فيه من اسجاع على ما جرت به العادة عند الادباء .

ومن رواية الشعر الذي ساقه له الصفدي في الوافي بالوفيات نعرف صحة انطباق هذا الوصف عليه ، وانه لم يُقصّر في الادب عن غاية ، كما كان في العلم الذي اشتهر به سابق الحلبة . واليك من شعره هذين البيتين وهما ينبئان عن حاله :

دَعْني أجُلْ ما بدت لي سفينة او مطيّة
لابد يقطع سيري أمْنِية او مَنِية

ومنه قوله وهو يدل على حالة من اليأس وعدم الرضا :

ليت شعري اين قَبْري ضاع في الغُرْبَة عُمري
لم أدَعْ للعين ما تشتاق في بَر وبحر
وخبرتُ الناس والار ض لدي خير وشر
لم اجد جارا ولا دا رأ كما في طَيّ صدري
فكأني لم أسِرْ الا بمَيْت او بقَفر

ومنه وقد تقدمت الاشارة الى مغزاه في اول هذه الترجمة :

إن عيبا على المشارق ان ار جعَ عنها الى ذيول المغارب
وعجيب يضيعُ فيها غريب بعد ما جاء فكرُه بالغرائب
ويُقاسي الظمّا خلال أناس قسّموا بينهم هدايا السحائب

ومنه في المدح :

ومن قبل ان امشي على قدم المنى سعى قلمي في المدح سعياً على الراس

وفيه ايضاً :

وليل كصدر اخي غُمّة قطعناه حتى بلغنا النجاح
وبدر السماء بدا في النجوم كما لاح في الناس بدر السماح

وبعد فما هي « ذيول المغارب » هذه التي « يضيع فيها الغريب الذي جاء فكره بالغرائب » ؟

أتكون هي صقلية ويكون كل ما أسداه روجار الى الادريسي لم ينسه بلده ولم يَحُلّ منه محلّ الرضا ؟

وان لم يكن يعني روجار بهذا الكلام فهل يكون المعنى ولده غليوم ؟

اما قوله في الشعر الآخر : « لم اجد جاراً ولا داراً كما في طي صدري »

فانا لا نشك انه يعني به كلا الاثنين فان اقامته بجوار ملك نصراني في وقت كان القتال فيه بين المسلمين والنصارى قائماً على ساق ؛ لا تكون اقامة هَنِيّة. واما الدار التي في طي صدره فلا شك أنها بلده وموطنُه ، وبعيد جداً ان تحل صقلية على ما هي عليه من خضوع لحكم النصارى وسيطرة الاغيار محل بلاده المغرب وسبتة بالخصوص من نفسه .

ولهذا فانّا نُرجّح انه ما لبث بعد ان اضطربت الاحوال بصقلية حتى عاد الى بلده سبتة حيث امضى بقية عمره وقضى نحبه عام ٥٦٠ وقد مال الى هذا الرأي ايضاً البارون كارادوفو في كتابه مفكرو الاسلام .

هذا ملخص ترجمة هذا العالم الكبير وعرضٌ موجز لحياته الحافلة بالاعمال العظيمة . ونرى من تتمة التعريف به ان نقف القارىء على مَعالمَ من كتابه القيم نزهة المشتاق فيرى كيف كان هذا الرجل العظيم يفكر وكيف كان يسجل افكاره بقوة واقتدار .

فهذه نقول منه في وصف بلاد المغرب وما كانت عليه من الحضارة والعمران وكثرة الصنائع ووفرة الانتاج :

يقول في وصف مدينة أغمات : «مدينة يكنفها جبلُ دَرَن ، فاذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة بالجبل فيسيل ذوبانُها الى المدينة وربما جمد به النهر في وسطها حتى يجتاز الاطفال عليه وهو جار فلا يتكسر لشدة جموده وهذا شيءٌ عايناه بها غير ما مرة .

ومدينة اغمات اهلها هَوّارة من القبائل المتبربرين بالمجاورة ، وهم أمْلِياء تجار مَياسِير يدخلون الى بلاد السودان باعداد الجِمال الحاملة لقناطير الاموال من النحاس الأحمر والملون والاكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظْم من الزجاج والاصداف والاحجار وضروب من الأفاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع . وما منهم رجل يُسْفِر عبيدَه ورجالَه الا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملا كلها مُوقَرة . ولم يكن في دولة المُلثّم احد اكثر منهم اموالا ولا اوسع منهم احوالا . وبابواب منازلهم علامات تدل على مقادير اموالهم . وذلك ان الرجل منهم اذا ملك اربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه واربعة آلاف يصرفها في تجارته اقام على يمين بابه وعن يساره عَرْصتَين من الارض الى اعلى السقف . وبنيانهم بالآجر والطوب والطين اكثر ، فاذا مر الخاطر بدار ونظر الى تلك العرص مع الابواب قائمة ، عدّها فيعلم مِن عدّها كم مبلغ مال صاحب الدار لانه قد يكون من هذه العرَص خلْفَ الباب اربع وست مع كل عضادة اثنتان وثلاث .

واما الآن في وقت تاليفنا لهذا الكتاب فقد اتى على اكثر اموالهم المصَامِدةُ وغيرت ماكان بأيديهم من نعم الله . ولكنهم مع هذا املياء مياسير اغنياء لهم نخوة واعتزاز لايتحولون عنه »

ويقول في وصف مدينة مراكش : « وشمال هذه المدينة (اغمات) وعلى ١٢ ميلا منها مدينة بناها يوسف بن تاشفين في صدر سنة ٤٧٠ بعد ان اشترى

ارضها من اهل اغمات بجملة اموال واختطها له ولبني عمه . وهي في وطاء من الارض ليس حولها شيء من الجبال الا جبل صغير يسمى إيجليز . ومنه قُطِع الحجر الذي بُني به قصر امير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وهو المعروف بدار الحجر وليس في موضع مدينة مراكش حجر البتة الا ماكان من هذا الجبل . وانما بناؤها بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب . وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة ، استخرج ذلك عبيد الله بن يونس المهندس ، وسبب ذلك ان ماءهم ليس ببعيد الغور موجود اذا احتفر قريبا من وجه الارض ، وذلك ان هذا الرجل المذكور وهو عبيد الله بن يونس جاء الى مراكش في صدر بنائها وليس بها الا بستان واحد لابي الفضل مولي امير المسلمين المقدم ذكره ، فقصد الى اعلى الارض مما يلي البستان فاحتفر له بيراً مربعة كبيرة التربيع ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الارض ، ومر يحفر بتدريج من ارفع الى اخفض متدرجا الى اسفله بميزان حتى وصل الماء الى البستان وهو منسكب مع وجه الارض يصب فيه ، فهو جار مع الايام لايفتر واذا نظر الناظر الى مسطح الارض لم ير بها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها الى وجهها وانما يميز ذلك عالم بالسبب الذي استُخرج به ذلك الماء . والسبب هو الوزن للارض فاستحسن ذلك امير المسلمين من فعل عبيد الله بن يونس المهندس واعطاه مالا واثوابا واكرم مثواه مدة بقائه عنده .

ثم ان الناس نظروا الى ذلك ولم يزالوا يحفرون الارض ويستخرجون

مياهها الى البساتين حتّى كثرت البساتين والجنات واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قُطْرها ومنظرها .

ومدينة مراكش في هذا الوقت من اكبر مدن المغرب الاقصى لانها كانت دار امارة لمتونة ومدار ملكهم وسِلْك جميعهم وكان بها اعداد قصور لكثير من الامراء والقواد وخدام الدولة، وازقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية واسواقها مختلفة وسلعها نافقة . وكان بها جامع بناه اميرها يوسف بن تاشفين فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها المَصامِدةُ تركوا ذلك الجامع معطلا مغلق الابواب ولا يرون الصلاة فيه ، وبنوا لانفسهم مسجدا جامعا يصلون فيه بعد ان نهبوا الاموال وسفكوا الدماء وأباحوا الحُرَم ؛ كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالا »

ويقول في وصف مدينة سلا : «ومدينة سلا الحديثة على ضفّة البحر وكانت في القديم من الزمن مدينة شالة على ميلين من البحر وموضعها على ضفة نهر اسمير الذي يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة . وهناك قصبة في البحر ، واما شالة القديمة فهي الآن خراب وبها بقايا بنيان قائم .

وسلا الحديثة على ضفة البحر منيعة من البحر لايقدر احد من اهل المراكب على الوصول اليها من جهته . وهي مدينة حسنة حصينة في ارض رمل ولها اسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لاهلها وسعةُ اموال ونمو احوال والطعام بها كثير ورخيص جدا ، وبها كروم وغلات وبساتين وحدائق

ومزارع . ومراكب اهل اشبيلية وسائر المدن الساحلية من الاندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع . واهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام الى سائر بلاد الاندلس الساحلية ، ترسى المراكب بها في الوادي الذي قدمنا ذكره وتجوز المراكب على فمه بدليل ، لان في فم الوادي احجارا وتروشا تنكسر عليها المراكب ، وفيه اعطاف لا يدخلها الا من يعرفها .

وهذا الوادي يدخله المد والجزر في كل يوم مرتين . واذا كان المد دخلت المراكب به الى داخل الوادي وكذا تخرج في وقت خروجها . وفي هذا الوادي انواع من السمك وضروب من الحيتان ، والحوت بها لايكاد يباع ولايشترى لكثرته وجودته وكل شيْ من المأكولات في مدينة سلا موجود بأيسر القيمة وأهون الثمن » .

وقال في ذكر فضَالَه وما لها من الاهمية الاقتصادية التي تزيد على ما لها الآن : «ومرسى فضاله ترده المراكب من بلاد الاندلس وحائط البحر الجنوبي فتحمل منه اوساقها طعاما ؛ حنطة وشعيرا وفولا وحمصا . وتحمل منه ايضا الغنم والمعز والبقر . ومن فضاله الى مرسى آنفا ٤٠ ميلا وهي مرسى مقصود تاتي اليه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير ...»

وقال يذكر مدينة داي وزراعة القطن في المغرب : «ومدينة داي في أسفل جبل خارج من جبل درن وهي مدينة بها معدن النحاس الخالص الذي لا

يعدله غيره من النحاس بمشارق الارض ومغاربها وهو نحاس حلو لونه الى البياض يتحمل التزويج ويدخل في لحام الفضة وهو اذا طُرّق جاد ولم يتشرح كما يتشرح غيره من انواع النحاس وهذا المعدن ينسبه العوام الى السوس ، وليست مدينة داي من بلاد السوس لان بينهما مسافات ايام كثيرة ومن هذا المعدن يحمل الى سائر البلاد ويتصرف به في كثير من الاعمال .

ومدينة داي صغيرة لكنها كثيرة العامر والقوافل عليها واردة وصادرة ويزرع بها وبارضها كثيراً القطن ولكنه بمدينة تادلة يزرع اكثر مما يزرع بمدينة داي ، ومن مدينة تادلة يخرج القطن كثيراً ويسافر به الى الجهات ومنه كل ما يعمل من الثياب القطنية ببلاد المغرب الاقصى ولا يحتاجون مع قطنها الى غيره من انواع القطن المجلوب من سائر الاقطار » .

وقال في ذكر مدينة فاس : « ومدينة فاس مدينتان بينهما نهر كبير ياتي من عيون تسمى عيون صنهاجة وعليه في داخل المدينة ارحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن له خطر . والمدينة الشمالية منها تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الاندلس . والاندلس ماؤها قليل لكن يشقها نهر واحد يمر باعلاها وينتفع منه ببعضها واما مدينة القرويين فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع وفي كل زقاق ساقية متى شاء اهل الموضع فجروها فغسلوا مكانهم منهـا ليلا فتصبح ازقتهم ورحابهم مغسولة ، وفي كل دار منها صغيرة كانت او كبيرة ساقية ماء نقيا كان او غير نقي ، وفي كل مدينة منها جامع ومنبر

وامام . وبين المدينتين ابدا فتن ومقاتلات . وبالجملة ان اهل مدينتي فاس يقتل فتيانهما بعضهم بعضا[1] .

وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور ، ولاهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم . ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الاسعار جدا دون غيرها من البلاد القريبة منها وفواكهها كثيرة وخصبها زائد . وبها في كل مكان منها عيون نابعة ومياه جارية ، وعليها قباب مبنية ودواميس محنية ونقوش وضروب من الزينة ، وبخارجها الماء مطرد نابع من عيون غزيرة وجهاتها مخضرة مونقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفة وفي اهلها عزة ومنعة . »

والى القارئ بعد هذا نُقولاً اخرى منه تتعلق بمسائل مختلفة فمن ذلك قوله عند ذكر الحبشة ومنابع النيل : «وهي مدينة متحضرة لكنها في بريّة بعيدة من العمارة وتتصل عمارتها وبواديها الى النهر الذي يمد النيل ، وهو يشق بلاد الحبشة ولها عليه مدينة مركطة ومدينة النجاغة . وهذا النهر منبعه من فوق خط الاستواء وفي آخر نهايــة المعمور[2] من جهة الجنوب ، فيمر مُغرّبا مع الشمال حتى يصل الى ارض النّوبة فيصب هنالك في ذراع

1) هذه حال عرضت في بعض الاحيان ولم تدم طويلا .

2) لا تنس رأي الادريسي في حد عمارة الأرض .

النيل الذي يحيط بمدينة بلاق كما قدمنا وصفه وهو نهر كبير عريض كثير الماء بطيء الجري وعليه عمارات للحبشة .

وقد وهم اكثر المسافرين في هذا النهر حين قالوا انه النيل ، وذلك لانهم يرون به مايرون من النيل في خروجه ومدة فيضه في الوقت الذي جرت به عادة خروج النيل ، وينقص فيض هذا النهر عند نقصان فيض النيل . ولهذا السبب وهم فيه اكثر الناس وليس كذلك حتى انهم مافرقوا بينه وبين النيل لما رأوا فيه من الصفات النيلية التي قدمنا ذكرها .

وتصحيح ما قلناه من انه ليس بالنيل ما جاءت به الكتب المؤلفة في هذا الفن . وقد حكوا عن صفات هذا النهر ومنبعه وجريه ومصبّه في ذراع النيل عند مدينة بلاق . وقد ذكر ذلك بطليموس الاقلوذي في كتابه المسمى بالجغرافيا وذكره حسان بن المنذر في كتاب العجائب عند ذكر الانهار ومنافعها ومواقعها. وهذا مما لايَتهيمُ فيه نبيل ولا يقع في جهله عالم ناظر في الكتب باحث عن غرضه ».
وذكر مدينة القيروان فقال : «ومدينة القيروان ام امصار وقاعدة اقطار وكانت اعظم مدن الغرب قُطرا واكثرها بَشَرا وايسرها اموالا واوسعها احوالا واتقنها بناء وانفسها همما واربحها تجارة واكثرها جباية ... فسلط الله سبحانه عليها العرب وتوالت الجوائح عليها حتى لم يبق منها الا اطلال دارسة وآثار طامسة» .

وكذلك لما ذكر طرابلس قال : « الا ان العرب اضرت بها وبما حولها

من ذلك واجلت اهلها واخلت بواديها وغيرت احوالها وابادت اشجارها وغوّرت مياهها »

وقال ايضا عند ذكر قلعة حماد والحصون التي حولها : « والى ها هُنا تصل غاراتُ العرب وضررها .... وهذه الارض كلها تجولها العرب وتضر باهلها ... وجميع هذه الحصون اهلها مع العرب في مهادنة وربما اضر بعضهم ببعض غير ان أيدي الاجناد فيها مقبوضة وأيدي العرب مطلقة في الاضرار ، وموجب ذلك ان العرب لهادّية مقتولها وليس عليها دية فيمن تقتل »

وقد ذكر إفساد العرب وعيثها في غير ما موضع وانما نبهنا الى هذا لانا نظن ان للادريسي تأثيراً على ابن خلدون في الرأي السيُ الذي لهذا الأخير عن العرب في المقدمة .

وقال في وصف بحيرة بنزرت الغريبة ويشتمل على اسماء لانواع من الاسماك «ومدينة بنزرت صغيرة عامرة باهلها وبها مرافق واسواق قائمة بذاتها وبالجهة الشرقية منها بحيرتها المعروفة والمنسوبة اليها وطولها ١٦ ميلا وعرضها ٨ أميال وفمها متصل بالبحر وكلما اخذت في البريّة اتسعت وكلما قربت من البحر ضاقت وانخرطت .

وهذه البحيرة من اعاجيب الدنيا . وذلك ان بها اثني عشر نوعا من السمك

يوجد منها في كل شهر نوع لايمتزج بغيره من اصناف السمك ، فاذا تم الشهر لم يوجد شيْ من ذلك النوع في الشهر الآتي ثم يوجد في الشهر الآتي صنف من السمك آخر غير الصنف الاول لا يمتزج بغيره ، هكذا لكل شهر نوع من السمك لا يمتزج بسمك غيره الى كمال السنة ، هكذا في كل عام . وهذه الاثنا عشر نوعاً من الحوت التي ذكرناها هي البُورِي والقاجُوج والمحل والطلنط والاشبلينيات والشلبة والقاروص والعاج والجوجة والكحلأ والطنفلو والقلا . ويتصل بهذه البحيرة من جهة الجنوب مع انحراف الى الغرب بحيرة ثانية تسمى تينجة وطولها ٤ أميال في عرض مثلها وبينهما فم تتصل منه مياه احداهما بالاخرى . وفي هاتين البحيرتين امر عجيب وذلك ان ماء بحيرة تينجة عذب وماء بحيرة بنزرت ملح وكل واحدة من هاتين البحيرتين تصب في اختها ستة اشهر ثم ينعكس جريهما فتمسك الجارية عن الجري وتصب البحيرة الثانية الى هذه الاولى ستة اشهر اخرى ، فلا بحيرة تينجة يتملح ماؤها ولا يعذب ماء بحيرة بنزرت ، وهذا ايضا عجب من عجائب هذا الصقع »

وقال في مدينة الاشبونة وذكر قصة المغرّرين الذين خرجوا منها لمعرفة ماوراء بحر الظلمات «ولشبونة على نحر البحر الاعظم وعلى ضفة النهر من جنوبه قبالة مدينة لشبونة حصن المعدن وسمي بذلك لانه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر فاذا كان زمن الشتاء قصد الى هذا الحصن اهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذي به الى انقضاء الشتاء وهو من عجائب الارض،

وقد رأيناه عيانا . ومن مدينة لشبونة كان خروج المغررين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والى اين انتهاوه كما تقدم ذكرهم . ولهم بمدينة لشبونة بموضع قرب الحمّة درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغررين الى آخر الابد .

وذلك انهم اجتمعوا ثمانيةَ رجـــال كلهم أبناء عم ، فأنشأوا مركبـــا حمالا وادخلوا فيـــه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ثم دخـــلوا البحر في اول طاروس[1] الريح الشرقية فجروا بها نحواً من احد عشر يوما فوصلوا الى بحر غليظ الموْج كدِر الروائح كثير الترُوش قليل الضوء فأيقنوا بالتلف فردوا قلاعهم في اليد الاخرى وجروا في البحر في ناحية الجنوب اثنى عشر يوما فخرجوا الى جزيرة الغنم ، وقيها من الغنم مالا ياخذه عد ولا تحصيل وهي سارحة لا راعي لها ولا ناظر اليها فقصدوا الجزيرة فنزلوا بها فوجدوا عين ماء جارية وعليها شجرة تين برّي. فاخذوا من تلك الغنم فذبحوها فوجدوا لحومها مرة لا يقدر أحد على اكلها فأخذوا من جلودها وساروا مع الجنوب اثنى عشر يوما الى ان لاحت لهم جزيرة فنظروا فيها الى عمارة وحرث فقصدوا اليها ليروا

---

1) جاء في كتاب العربية لجوهان فلك ما يلي : « وتسمى الريح المساعدة في العراق : شرتـــه وفي غـــيرهـــا طاروس » وعلق دوزي عـلى هذا المكان من النزهة بقوله : يعني بهذه الكلمة في أول هبوب هذه الريح كما يعلم ذلك بمقابلة ذلك بقوله بدأ جري الريح الغربية ، وكما قال في كلامه على آسيا الصغرى وبين انطانية والقسطنطينية ٨ أيام في البر على دواب البريد وفي البحر على الطاروس – على أن الكلمة يفهم منها هبوب الريح لصالح المسافر ، وهي على كل حال ليست بعربية ولا بربرية على ما يظهر اه . نقول انها في العامية المغربية اليوم كلمة ترد للذم فيقال مثلا : فلان كاب طاروس!

ما فيها فما كان غير بعيد حتى احيط بهم في زوارق هناك فأخذوا وحملوا في مركبهم الى مدينة على ضفة البحر فانزلوا بهـــا في دار فرأوا رجالا شُقْراً زُعْراً شعور روسهم شعور سبطة وهم طوال القدود ولنسائهم جمال عجيب فاعتقلوا منها في بيت ثلاثة ايام ثم دخل عليهم في اليوم الرابع رجل يتكلم باللسان العربي فسألهم عن حالهم وفيما جاءوا واين بلدهم ، فاخبروه بكل خبرهم فوعدهم خيرا واعلمهم انه ترجمان الملك.

فلما كان في اليوم الثاني من ذلك اليوم احضروا بين يدي الملك فسألهم عما سألهم الترجمان عنه فاخبروه بما اخبروا به الترجمان بالامس من انهم اقتحموا البحر ليروا ما به من الاخبار والعجائب ويقفوا على نهايته فلما علم الملك بذلك ضحك وقال للترجمان : خبر القوم ان ابي امر قوماً من عبيده بركوب هذا البحر وانهم جروا في عرضه شهرا الى ان انقطع عنهم الضوء وانصرفوا من غير حاجة ولا فائدة تجدى .

ثم امر الملك الترجمان ان يعدهم خيرا وان يحسن ظنهم بالملك ففعل ، ثم صرفوا الى موضع حبسهم الى ان بدأ جري الريح الغربية فعمر بهم زورق وعصبت اعينهم وجري بهم في البحر برهة من الدهر قال القوم قدرنا انه جري بنا ثلاثة ايام بلياليها حتى جيء بنا الى البر فأخرجنا وكتّفنا الى خلْف وتُركنا بالساحل الى ان تصاحى النهار وطلعت الشمس ونحن في ضنك وسوء حال من شدة الاكتاف حتى سمعنا ضوضاء واصوات اناس فصحنا باجمعنا فأقبل القوم الينا فوجدونا بتلك الحال السيئة فحلونا من وثائقنا وسألونا فأخبرناهم

بخبرنا وكانوا برابر فقال لنا احدهم اتعلمون كم بينكم وبين بلدكم فقلنا لا فقال ان بينكم وبين بلدكم مسيرة شهرين ، فقال زعيم القوم واأسفى ! فسمي المكان الى اليوم « أسفى » وهو المرسى الذي في اقصى المغرب . وقد ذكرناه قبل هذا»

وهذه الحكاية مشهورة وكثيرا ماتورد في الاستدلال على محاولة العرب كشف امريكا قديما قبل كولمبوس ولكن سياقها هذا لا يخلو من مآخذ .

واخيرا اليك وصف الادريسي لقُرطبة ومسجدها الخالد وليكن هو الختام لهذه المنتخبات :

«ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الاندلس وام مدنها ودار الخلافة الاسلامية ، وفضائل اهل قرطبة اكثر واشهر من ان تذكر ومناقبهم اظهر من ان تستر واليهم الانتهاء في السناء والبهاء بل هم اعلام البلاد واعيان العباد ، ذُكِروا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزي في الملابس والمراكب وعلو الهمة في المجالس والمراتب وجميل التخصص في المطاعم والمشارب مع جميل الخلائق وحميد الطرائق . ولم تخل قرطبة قط من اعلام العلماء وسادات الفضلاء وتجارها مياسير لهم اموال كثيرة واحوال واسعة ، ولهم مراكب سنية وهمم علية ، وهي في ذاتها مدن يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينة سور حاجز وفي كل مدينة ما يكفيها من الاسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات وفي طولها من غربيها الى شرقيها ثلاثة اميال وكذلك عرضها من باب القنطرة

الى باب اليهود بشمالها ميل واحد ، وهي في سفح جبل مطل عليها يسمى جبل العروس . ومدينتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة . وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بِنْيةً وتنميقاً وطُولا وعرضا .

وطول هذا الجامع مائة باع مُرسَلة وعرضه ثمانون باعا ونصفه مسقف ونصفه صحن للهواء . وعدد قسي مُسقّفة تسعة عشر قوسا وفيه من السواري اعني سواري مسقّفه بين اعمدته وسواري قبلته صغاراً وكباراً مع سواري القبة الكبرى وما فيها الفُ سارية وفيه مائة وثلاث عشرة ثُرَيّا للوقيد ، اكبرها واحدة منها تحمل الف مصباح ، واقلها تحمل اثنى عشر مصباحا .

وسقفه كله سمَوات خشب مسمّرة في جوائز سقفه وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر الطرطوشي ، ارتفاع حد الجائزة منه شبر وافر في غرض شبر الاثلاثة اصابع في طول كل جائزة منها ٣٧ شبراً وبين الجائزة والجائزة غِلَظ جائزة ، والسموات التي ذكرناها هي كلها مسطحة فيها ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمورق وهي صنع الفص وصنع الدوائر والمداهن لايشبه بعضها بعضا بل كل سماء منها مكتف بما فيه من صنائع قد احكم ترتيبها وابدع تلوينها بانواع الحمرة الزنجفُرية والبياض الاسفيذاجي والزرقة اللازَوردية والزرقون الباروقي والخضرة الزنجارية والتكحيل النّقسْي تروق العيون وتستميل النفوس باتقان ترسيمها ومخلفات الوانها وتقسيمها .

وسعة كل بلاط منها اعني من بلاطات مسقّفه ٣٣ شبرا وبين العمود

والعمود ١٥ شبرا ولكل عمود منها رأس رخام ، وقاعدة رخام ، وقد عقد بين العمود والعمود على اعلى الرأس قِسي غريبة فوقها قسي أخر على عمـد من الحجر المنجور متقنة . وقد جصص الكل منها بالجص والجيار وركبت عليها نحور مستديرة ناتئة بينها ضروب صناعات الفص بالمغرة وتحت كل سماء منها إزار خشب فيه مكتوب آيات القرآن .

ولهذا المسجد الجامع قبلة يُعجز الواصفين وصفـُها وفيها اتقان يبهر العقول تنميقـُه وكل ذلك من الفسيفاء المذهب والملون مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى الى عبد الرحمن المعروف بالناصر لدين الله الاموي ، وعلى هذا الوجه اعني وجه المحراب سبع قسي قائمة على عمد وطول كل قوس منها اشف من قامة ، وكل هذه القسي مزججه صنعة القوط قد اعيت الروم والمسلمين بغريب اعمالها ودقيق تكوينها ووضعها . وعلى اعلا الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفسيفساء المذهب في ارض الزجاج اللازوردي وكذلك تحت هذه القسي التي ذكرناها كتابان مثل الاولين مسجونان بالفسيفساء المذهب في ارض اللازورد وعلى وجه المحراب انواع كثيرة من التزيين والنقش .

وفي عِضادتي المحراب ٤ أعمدة ٢ اخضران و٢ زرزُوريـّان لاتـُقوّم بمال وعلى رأس المحراب خصّةُ رُخام قطعة واحدة مشَبوكة محفورة منمقة بابدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الالوان وعلى وجه المحراب مما استدار به حظيرة خشب بها من انواع النقش كل غريبة .

ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الارض مثله صنعة خشبه ابنوس وبَقْس وعود المجمر . ويحكى في كتب تواريخ بني امية انه صنع في تجارته ونقشه ٧ سنين وكان عدد صناعه ٦ رجال غير من يخدمهم تصرفاً، ولكل صانع منهم في اليوم نصف مثقال محمدي .

وعن شمال المحراب بيت فيه عود وطوشت ذهب وفضة وحسك ، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة ٢٧ من شهر رمضان ...

ومع ذلك ففي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه ٤ اوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه بيمينه (ض) وفيه نقط من دمه . وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعـــة ويتولى اخراجه رجلان من قومة المسجد وامامهم رجل ثالث بشمعة وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش باغرب ما يكون من النقش وادقه واعجبه . وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ويتولى الامام قراءة نصف حزب منه ثم يرد الى موضعـــه .

وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضى الى القصر بين حائطي الجامع في ساباط متصل ، وفي هذا الساباط ٨ ابواب منها ٤ تنغلق من جهة القصر و ٤ تنغلق من جهة الجامع .

ولهذا الجامع ٢٠ باباً مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس وفي كل

باب منها حلقتان في نهاية من الاتقان . وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الاحمر المحكوك ، انواع شتّى واجناس مختلفة من الصناعات والتّرييش وصدور البُزاة وفيما استدار بالجامع في اعلا لتمدد الضوء ودخوله الى المسقف مُتّكآت رخام طول كل متكأ منها قدر قامة في سعة ٤ أشبار في غلظ ٤ اصابع وكلها صنعة مسدسة ومثمنة مخرمة منفوذة لا يشبه بعضها بعضاً .

وللجامع من الجهة الشمالية الصومعة الغريبة الصنعة الجليلة الاعمال الرائقة الاشكال التي ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي منها ٨٠ ذراعاً الى الموضع الذي يقف عليه المؤذن بقدميه ، ومن هناك الى اعلاها ٢٠ ذراعاً ويصعد الى اعلى هذه المنارة بدرجين احدهما من الجانب الغربي والثاني من الجانب الشرقي ، اذا افترق الصاعدان اسفل الصومعة لم يجتمعا الا اذا وصلا الاعلى منها . ووجه هذه الصومعة كله مبطن بالكدان اللكي منقوش من وجه الارض الى اعلى الصومعة ، صنعة مقسمة تحتوي عـلى انواع من الصنـع والتزويق والكتابة والملون ، وبالاوجه الاربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسي دائرة على عمد الرخام الحسن والذي في الصومعة من العمد بين داخلها وخارجها ٣٠٠ عمود بين صغير وكبير .

وفي اعلى الصومعة بيت له ٤ ابواب مغلقة ، يبيت فيه كل ليلة مؤذنـان ، وللصومعة ١٦ مؤذناً يؤذنون فيها بالدّوْلة ، لكل يوم مؤذنان على توال ،

وفي اعلى الصومعة على القبة التي على البيت ٣ تفاحات ذهب واثنتان من فضة واوراق سوسنية تسع الكبيرة من هذه التفاحات ٦٠ رطلاً من الزيت .

ويخدم الجامع كله ٦٠ رجلاً وعليه قائم ينظر في امورهم .

وهذا الجامع متى سها امامه لا يسجد لسهوه قبل السلام بل يسجد بعد السلام(1) .

ومدينة قرطبة في حين تأليفنا لهذا الكتاب طحنتها رحى الفتنة وغيرها حلول المصائب والاحداث مع اتصال الشدائد على أهلها فلم يبق بها منهم الآن إلا الخلق اليسير ، ولا بلد اكبر اسماً منها في بلاد الاندلس .

ولقرطبة القنطرة التي علت القناطر فخراً في بنائها واتقانها ، وعدد قسيها ١٧ قوساً بين القوس والقوس ٥٠ شبراً وسعة القوس مثل ذلك ٥٠ شبراً . وسعة ظهرها المعبور عليه ٣٠ شبراً . ولها ستائر من كل جهة تستر القامة ، وارتفاع القنطرة من موضع المشي الى وجه الماء في ايام جفوف الماء وقلته ٣٠ ذراعاً واذا كان السيل بلغ الماء منها الى حلوقها .

---

1) يعني خلافاً لما ذهب اليه مالك من ان السجود للنقص يكون قبل السلام وللزيادة بعده . وهذا الذي كان عليه العمل في مسجد قرطبة هو مذهب ابي حنيفة القائل بأن سجود السهو كله بعد السلام ، وله أدلة قوية ، ونظن ان العمل لم يستمر في قرطبة على ذلك ، وإلا لذكره فقهاؤنا في المسائل التي خولف فيها مذهب مالك بالأندلس وهي ست ليس هذا منها .

وتحت القنطرة يعترض الوادي رصيف سد مصنوع من الاحجار القبطية والعمد الجاشية من الرخام وعلى هذا السد ثلاثة بيوت ارحاء في كل بيت منها ٤ مطاحن .

ومحاسن هذه المدينة وشماختها اكثر من ان يحاط بها .

ومن مدينة قرطبة الى مدينة الزهراء ٥ اميال وهي قائمة الذات بأسوارها ورسوم قصورها وفيها قوم سكان باهليهم وذراريهم وهم قليلون . وهي في ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة سطح الثلث الاعلى يوازي أعلى الثلث الاوسط وسطح الثلث الاوسط يوازي اعلى الثلث الاسفل ، وكل منها له سور . فكان الجزء الاعلى منها قصوراً يقصر الوصف عن صفاتهـا ، والجزء الاوسط بساتين وروضات والجزء الثالث فيه الديار والجامع وهي الآن خراب ، في حال ذهاب » .

ابن بطوطة

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - ص ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقيا: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص ب: ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

FAX (9611) 351433 بيروت - لبنان



25

ابن بطوطة

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

ابن بطوطة

اسمه ونسبه ـ مولده ـ نشأته العلمية وتربيته الخلقية ـ مكانته بين الرحالة ـ تقويم الرحلة ـ ابتداء رحلته الأولى إلى أقطار الشرق ـ رحلته الثانية إلى الاندلس ـ رحلته الثالثة إلى السودان ـ عودته إلى المغرب واملاؤه رحلته ـ ولايته القضاء بالمغرب ـ وفاته ـ ضريحه بطنجة ـ كلام الناس فيه وتزكية ابن مرزوق له ـ دفاع ابن خلدون عنه ـ رد انتقاد آخر على الرحلة .

هو الرحالة العالمي الشهير ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم ابن عبد الرحمن بن يوسف اللّواتي الطنجي المعروف بابن بَطُوطة ، بفتح وضم الطاء الاولى مع التخفيف ، وبعضهم يشددها والجاري على الألسنة خلافه .

ولَواتَةُ التي ينسب اليها هي بفتح اللام قبيلة مغربية منازلها الاصلية بِبَرقة من ارض طرابلس ، وتوطن منها بجهات المغرب المختلفة أقوام نبغ منهم

بطنجة قبل المترجم اسرة بني سمَجُون الفقهاء الاعلام ، وبسبتة الفقيه المشاوَر ابو جعفر اللّواتي المعروف بابن القابِسي شيخ القاضي عياض وغير هؤلاء .

على ان اسرة ابن بطوطة نفسها كانت اسرة علمية ظهر فيها القضاة ومشائخ العلم على ما اخبر هو عنها في الرحلة لما خيّره ملك الهند في وظائف الوزارة والكتابة والامارة والتدريس فقال : « اما الوزارة والكتابة فليست شغلي ، واما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي ». وذكر في الرحلة ايضاً انه لما قدم الى رُنْدة في رحلته الى الاندلس كان القاضي بها هو ابن عمه الفقيه ابو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة . فهذا بيت ثان من لَواتة نبغ بطنجة وان لم نحطِ بأفراده علماً ، لسكوت المؤرخين وكتاب التراجم عن ذكرهم . ولولا هذه الاشارة العابرة من رحالتنا الى ما كان لاهله من مجد علمي لما عرفنا عنه شيئاً من ذلك .

وكانت ولادة ابن بطوطة في مدينة طنجة يوم الاثنين 17 رجب عام 703 والدولة المرينية في عنفوان القوة ، والشعب المغربي في اوج تقدمه العلمي والادبي ، فمن الطبيعي ان ينشأ ابن بطوطة ؛ وهو سليل اسرة علمية عريقة ، على طلب العلم وينبت في حجر والديه نباتاً حسناً . والظاهر انه انما درس على مشائخ بلده ، اذ لا نعلم له رحلة في هذا الصدد قبل رحلته الكبرى .

أما طلبه العلم وتحصيله طرفاً منه فمما لا شك فيك . ويدلنا على ذلك انه في اثناء رحلته لم يكن يخالط الا اهل العلم ولا يجنح الا اليهم ، واذا لقي احداً

من كبار المشائخ ، ومشاهير العلماء حرص على الاخذ عنه والقراءة عليه ، وتَخيّره هذا لشيوخ الرواية هو وحده دليل على نزعة علمية اصيلة فيه .

ولا ننس انه لما كان بالبصرة وشَهِد صلاة الجمعة فيها بمسجد علِيّ ، لاحظ ان الخطيب يلحن لحناً كثيراً جلياً على حد تعبيره ، فعجب من ذلك وذكره للقاضي فقال القاضي له : « ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئاً من علم النحو » وهذا الامر حمله على ان يسجل هذه الملاحظة للاعتبار فيقول : « وهذه عبرة لمن تفكر فيها ، سبحانه مغير الاشياء ومقلب الامور ! هذه البصرة التي الى اهلها انتهت رياسة النحو وفيها اصله وفرعه ومن اهلها امامه الذي لا ينكر سبقه ؛ لا يُقيم خطيبُها خطبةَ الجمعة على دؤوبة عليها ! »

ثم لا ننس انه ولي منصب القضاء على المذهب المالكي في مدينة دهلى بالهند مدة تنيف على سبع سنين ثم بجزيرة ذِيبَة المهَل ايضاً ما يقرب من سنة ونصف كما ولي قضاء الركب التونسي للحج فَوْرَ انفصاله عن المغرب ، ومات وهو قاضٍ ببعض جهات المغرب كما يأتينا عن ابن مرزوق . فهذان الامران، وهما ملاحظة اللحن على خطيب البصرة وولايته للقضاء في بلاد عديدة ، زمناً طويلاً يُرْشِد انِنَا الى ما كان عليه من ثقافة لغوية وفقهية لا يستهان بها .

اضف الى انه كان ينظم شعراً وسطاً على عادة العلماء المتفننين ، وقد اعطانا نموذجاً منه في الرحلة ، وهو سبعة ابيات من قصيدة مدح بها ملك الهند ، فهذا ايضاً دليل على ثقافته الادبية .

ولم يشر في الرحلة على طولها الى انه تلقى شيئاً من الدراسات المماثلة لما ذُكر عن احد من العلماء الذين لقيهم في البلاد المختلفة ، وانما ذكَر سماعَه لبعض كتب الحديث على بعض كبار العلماء واجازتهم له ، وأخْذَه للعهد عن بعض مشائخ الصوفية على ما كان عليه الحال في الزمن الماضي ، وتلك طريقة العلماء الذين يحرصون على سعة الرواية وعلو السند ، فلا يقال انه درَسَ اثناء رحلته ، لان ذلك لا يُفهم منه بحال .

وعليه فهو قد درس ببلده طنجة ، وزاول دراسته في فجر حياته ، لانه لما شدّ الرحلة كان ابن اثنين وعشرين عاماً ، وفي الوقت نفسه كان قد انتهى من الدراسة ، وإذا دل هذا على شيء فعلى ان طنجة كانت غنية بعلمائها في ذلك الوقت ، وهم من الصنف الذي يستغنى به الطالب في دراسته الكاملة فلا يحتاج الى الهجرة في طلب العلم . والغريب انه لم يسم لنا احداً من شيوخه هؤلاء ولم يذكر شيئاً عن اوليته في الطلب ، وانما المرجح ان يكون من بين شيوخه بعض اقاربه الذين قال عنهم ما قال .

هذا استنتاجنا بالنسبة الى تكوينه العلمي . واما بالنسبة الى تكوينه الخُلُقي فيظهر ان والديه اللذين لم يفتأ يحن اليهما اشد الحنين طوال رحلته ، قد ربياه تربية دينية متينة . فكان قوي العقيدة ، محافظاً على اداء الشعائر الدينية ، صبوراً ، صدوقاً ، واثقاً بالعناية الالهية ؛ لا سيما عند الشدائد . وذلك ما جعله يخاطر بالتوغل في اقاصي البلاد والرحلة الى اقطار العالم في زمن كانت

المواصلات فيه شاقة جداً ، والطرق غير مأمونة . واكثر الشعوب والامم على عداء متصل فيما بينها . ومن الدليل على شدة تدينه ان باعثه الاول على الرحلة كان هو ارادة الحج واداء هذه الفريضة التي لا تجب على الفور ، وهو لم يزل بعد في عنفوان الشباب وطراوة الاهاب ، أمامه متسع من الوقت للقيام بهذه العبادة لوكان كغيره من الشباب يريد ان يقضي لُبانات النفس من اللهو والمتاع ثم يستأنف حياة الجد والتدين بعد ذلك ، ولكنه ، كان شاباً من طراز آخر يتمثل فيه قول الرسول (ص) في حديث السبعة الذين يظلهم الله بظل العرش : « وشاب نشأ في عبادة الله ! » .

وفي اثناء رحلته الطويلة كان لا يسمع برجل من الصالحين في بلد من البلدان ولو لم يكن على طريقه ، إلا عرّج عليه وزاره وتبرك به وطلب منه الدعاء له ولوالديه . وكذلك كان لا ينجح الا لأفاضل الناس ولا يصحب الا ذوي المروءات منهم . وشيء آخر وهو أنه منذ ابتداء رحلته ، جرى على الاستفادة من سماحة الشريعة الغراء فكان يتزوج في كل بلد يحل به وينوي الاقامة فيه ، وربما تزوج في الطريق ويصطحب معه زوجته ولا يفارقها هو حتى تكون هي الراغبة في الفراق ، يتحامى بذلك عن الوقوع في العنت وهتك حرمات اهل البلد الذي ينزله ؛ وكل ذلك مما يدل على قوة دينه ونقاء عرضه .

ومن اخلاقه الاصيلة انه كان سريع التأقلم ان صح هذا التعبير ، ونعني به التكيف بطبيعة الاقليم الذي يستقر به والاندماج في أهله ومواطأتهم

ظهرانيهم وعاش معهم زماناً طويلاً ، ولعل لبلده طنجة التي هي طريق رئيسي بين الشرق والغرب وطبيعة اهلها المرحة المنشرحة دخلاً في ذلك . وهذا على ما نظن مما كان له اثر كبير في تغلغله في الاوساط الاجتماعية المختلفة للبلاد التي زارها ، اضف الى ذلك ما كان عليه من شدة الملاحظة وقوة الذاكرة فلاجرم ان تمتاز رحلته بكونها سجلاً مهماً للحياة الاجتماعية بل والسياسية والاقتصادية في اقطار لم نكن لنعرف عنها شيئاً في الوقت الذي زارها فيه لولا انطباعاته هذه التي سجلها بكل دقة وامانة .

والى هنا نكون قد المنا بالعناصر الاولية التي كونت هذه الشخصية القوية ، ولعل عنصراً آخر مادياً يكون ضروري الاضافة الى هذه العناصر المعنوية ، وهو متانة بِنْيَة الرجل وشِدّة أسْرِه ، ولا نعدم في الرحلة ما يدلنا على ذلك من المشتاق والمتاعب بل والمعارك المسلحة التي اشترك فيها وواجهها بثبات وشجاعة . وبهذا تم الصفات التي كان يتوفر عليها الرحالة الاسلامي الاكبر ، والتي هي بتوفيق الله سبب نجاحه المنقطع النظير .

واذا قلنا الرحالة الاسلامي الاكبر فاننا نعني ما نقول ، لانه لم يقم من جابها ابن بطوطة في الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ودوّن مشاهداته فيها ، وترك لنا مثل هذا الاثر الجغرافي الممتع الذي يقل له الكفاء ، على انه حتى بين الاوروبيين لم يقم رحالة يَفْري فَرِيّة قبل العصر الحديث . ولهذا نجد مثل سيتزن (Seetzen) الرحالة الألماني يقول :

« أي مسافر اوروبي في هذا العصر يمكنه الافتخار بانه خصص قدر الزمن الذي يبلغ نصف حياة الانسان في سبيل التفتيش عن مثل هذا العدد من البلدان السحيقة وذلك بشجاعة لا يزعزعها شيء وبتحمل المشقات العديدة ؟ بل اية امة اوروبية كان يمكنها لخمسة قرون خلت ايجاد مسافر يجوب المناطق الاجنبية بمثل هذا الاستقلال في الحكم ، وبمثل هذه المقدرة على المراقبة ، وبمثل هذه الدقة في كتابة الملحوظات ، الذي اتصف به هذا الشيخ المراكشي المشهور في المجلدين من كتابه ؟ ان معلوماته عن الكثير من المقاطعات الافريقية المجهولة وعن نهر النيجر وعن بلاد الزنج (زنجبار) الخ لا تقل فائدة عن معلومات لاون الافريقي . اما جغرافية بلاد العرب وبخارى وكابول وقندهار فانها تستفيد كثيراً من كتابه ، حتى اخباره عن الهند وسيلان وسومطرة والصين فانه من الواجب على انكليز الهند [1] ان يقرأوها باهتمام خاص .

هذه الشهادة التي اوردها الاستاذ فؤاد افرام البستاني في روائعه ، وهي واحدة من عشرات نظيراتها للعلماء الغربيين ، تطلعنا على بالغ التقدير الذي يحظى به رحالتنا عند القوم ، والمقام السامي الذي يحلونه فيه بين رحاليهم العصريين ؛ ولئن كان الاستاذ المذكور ينبه على انه لا ينبغي ان نعد ابن بطوطة من جوابي الآفاق ودارسي المجاهل من علماء عصرنا ، فاننا نذكره بان جواباً دارساً من هؤلاء لا يستطيع ان يجوب ويدرس في آن واحد مثل

---

(١) يقول هذا لما كان للانكليز هند

هذه الرقعة الفسيحة من سطح الكرة الارضية التي جابها ابنُ بطوطة ودرسها دراسة ان لم تكن وافية من الناحية العلمية فانها لا تقصر عن اي وصف جغرافي صحيح الا في مواطن قليلة ، وقع له فيها غلط ، واي عالم لا يغلط .؟

على ان افاداته عن الاحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لكثير من البلاد التي زارها ، كانت وستبقى مصدراً هاماً للكاتبين في تاريخ هذه البلاد والباحثين عن قصة الحضارة في القرون الوسطى .

وقد ردد ذلك التنبيه ولكن بصفة اكثر تحاملاً على ابن بطوطة ، كل من الاستاذين احمد العوامري بك ومحمد احمد جاد المولي بك فيما كتباه من ترجمة للرحالة بمقدمة مُهَذَّب رحلته ، وان كانت هذه الترجمة لا تخرج عن ان تكون نسخة مصغرة مما كتبه صاحب الروائع .

وقد كتب صديقنا الاستاذ محمد عبد الله عنان بمقال له عن ادب الرواد المسلمين في مجلة « الرسالة » (١) كلمة فيها انصاف لرحالتنا ، ولذلك يروقنا ان نثبتها هنا .

قال حضرته : « على ان اعظم الرواد المسلمين على الاطلاق هو ابو عبدالله محمد بن عبد الله الطنجي الشهير بابن بطوطة ، ولم يكن ابن بطوطة رحالـــة

---

١) عدد 56 .

عظيماً فقط يجوب أنحاء العالم المعروف يومئذ ، بل كان مكتشفاً عظيماً يقصد الى مجاهل البر والبحر ، وكتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » وهو المعروف برحلة ابن بطوطة أجمل وانفس اثر عربي في هذا النوع من الادب .

وقد خرج ابن بطوطة من طنجة مسقط رأسه في سنة ٧٢٥ هـ. (١٣٢٥ م.) يجوب اقطار العالم ، واخترق بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب وبلاد الروم وقُسطنطينة ، وفارس وخُراسان وتُركُستان والهند وسيلان والصين وجزائر الهند الشرقية ، واخترق في عوده قلب افريقية من السودان الى بلاد النّيجر ، ووقف على كثير من مجاهل بعض الاقطـــار والامم التي لم تكن معروفة يومئذ تمام المعرفة ، ووصل الى اعالي نهر النيجر والى تِمْبكتُو وسُكُوتو قبل ان يصل اليها الرواد الاوروبيون ويكتشفها الرحالة الانجليزي منجوبارك بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون ، وسلخ في رحلاته نحو ربع قرن ، وترك لنا عن اسفاره واكتشافاته ومشاهداته ، ذلك الاثر الذي يعتبر بحق من ابدع آثار السياحة والاكتشاف » .

واذ قد عرفنا قيمة الرجل واهمية الرحلة التي قام بها ، فلنتأثر خطاه لمعرفة البلاد التي زارها والطرق التي سلكها ، من غير ان نقف معه في بلد او طريق ، الا نادراً جداً حين نمر بخبر طريف او نُكتة حارّة او وصف لشيء غريب

يحسن الوقوف عنده .ولا نستوعب في ذلك ايضاً وانما نعطي امثلة قليلة منه لعلها تكون حافزاً لمطالعة اخبار الرحلة كلها في كتاب تحفة النظار .

وقد رحل صاحبنا ثلاث رِحْلات ، اولاهن وهي اطولهن ، بدأها في يوم الخميس ٢ رجب ٧٢٥ وانتهى منها في يوم الجمعة اواخر شعبان عام ٧٥٠ ومعلوم ان قصده الاول كان هو الحج الى بيت الله الحرام وان خروجه كان من طنجة ، وانه كان له من العمر حين ابتداء الرحلة اثنان وعشرون عاماً ، وذلك في أيام السلطان ابي سعيد المَرِيني الاكبر . وقد مر في طريقه بتلمسان وسلطانُها يومئذ ابو تاشَفين بن ابي حَمّو ، ولم يمكث بها طويلا لانه رغب في صحبة رسولَيْ مَلِك تونس الى بلاط تلمسان ، وهما القاضي أبو عبد الله النفزاوي والشيخ ابو عبد الله الزبيدي ، وكانا قد انفصلا عنها يوم وصوله اليها فلحق بهما ، وتوفي القاضي في الطريق فتأخر هذا الوفد لاجل دفـــن الميت . وارتحل صاحبنا مع رفقة من التجار ، ومات احدهم ايضاً وترك مالا فسطا عليه عامل بجاية قال : « وهذا اول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين» يعني الحفصيين اصحاب تونس . ثم مرض صاحبنا بالحمّى ولكنه تحامل على نفسه ، وكان قد لقى ثانياً الشيخ ابا عبد الله الزبيدي فساعده كثيراً ، وبعد لأيٍ وصل الى تونس . قال « فبرّز اهلُها للقاء الشيخ ابي عبد الله الزبيدي ولقاء ابي الطيب بن القاضي ابي عبد الله النفزاوي (المتوفى) فاقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ، ولم يسلم علي احد لعدم معرفتي بهم فوجـــدت

من ذلك في النفس ما لم املك معه سوابقَ العبرة واشتد بكائي ، فشعر بحالي بعضُ الحجاج فأقبل علي بالسلام والايناس وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة » .

وهذا الضعف الذي بدا من صاحبنا في هذا الموقف هو مما يُستغرَب من رجل سيجوب فيما بعد اكثر المعمور ، وينقطع عن موطنه واهله خمساً وعشرين سنة ، الا انه كان الاول والآخر فلم نعد نراه شاكياً ولا باكياً ، وقد برهن بما بدا منه بعد ذلك في غير موقف من التجلد وعدم المبالاة بالأخطار مهما عظمت ، أنه انما انفجر عند ابواب تونس لوَداع المغرب ، وان ذلك الضعف لم يكن له خلُقاً اصيلاً كما حاول ان يُلصقه به كل من كتب عنه من الكتّاب المحدثين .

وعلى كل حال فقد دخل تونس ونزل بمدرسة الكُتُبيّين منها ، وكان سلطانها يومئذ هو ابو يحيى بن ابي زكرياء الحفصي ، ومن اعلامها حينئذ ابن الغمّار وابن عبد الرفيع وابن قداح الهواري قال « ومن عوائده انه يستند كل جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة ويستفتيه الناس في المسائل فاذا افتى في اربعين مسألة انصرف » وقد حضر صلاة عيد الفطر بها ورأى بُروزَ السلطان الى الصلاة ثم خرج في ركب الحاج التونسي الى الحجاز وكان اكثره من المصامدة قال : « فقدموني قاضياً

بينهم » وولايته هذه للقضاء في فور انفصاله عن المغرب مما يدل على انه كان يتوفر على مؤهلات علمية كافية .

وخرج الركب من تونس في اواخر ذي القعدة سالكاً طريق الساحل فوصل الى طرابلس في ١٣ من ذي الحجة وتزوج صاحبنا ببنت لاحد التونسيين ، ثم انفصل عن الركب الذي أقام بطرابلس خوفاً من البرد والمطر وغادرها هو أواخر محرم ٧٢٦ في جماعة من المصامدة وتقدم عليهم ، وفي اثناءالطريق وقع بينه وبين صهره التونسي مشاجرة ادت الى فراق بنته ، ثم تزوج بنتاً لبعض طلبة فاس ، واولم وليمة حبس لها الركب الذي تلاحق بهم بعد ما كان قد تخلف في طرابلس .

وفي اول جمادي الاولى وصل الركب الى مدينة الاسكندرية ، ويخصها الرحالة بوقفة طويلة وصف فيها عجائبها وذكر بعض علمائها ، منهم قاضيها عماد الدين الكندي « أمام من ائمة علم اللسان ، وكان يعتّم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم ، لم ار في مشارق الارض ومغاربها عمامة اعظم منها ، رأيته يوماً قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب » .

وذكر انه وجد في الاسكندرية ملك تونس المخلوع أبا يحيى زكرياء ابن احمد بن ابي حفص المعروف باللحياني ومعه اولاده وحاجبه ووزيره .

وتجول في الاقاليم المصرية قصداً لزيارة بعض الصالحين ، وفي احدىالقرى

جرى بينه وبين ناظر القرية حديث عن مبلغ جباية بلده طنجة فاخبره انها اثنا عشر الف دينار ذهب فعجب الناظر وقال له : « رأيت هذه القرية ؟ فان مَجْباها اثنان وسبعون الف دينار ذهباً » قال : « وانما عظمت مَجابي ديار مصر لان جميع املاكها لبيت المال . » وفي مدينة أبيار حضر عند قاضيها يوم الرّكبة وهو يوم ارتقاب هلال شهر رمضان ، وفي مدينة دمياط شاهد عجباً وهو انه « اذا دخلها احد لم يكن له سبيل الى الخروج منها الا بطابع الوالي ، فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كَاغَد يستظهر بـــه لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » وهذا الاجراء الذي كان يوحي به — ولا شك — موقع المدينة الحربي يشبه ما نسميه اليوم بالجواز ، ولم يقل صاحبنا ما كان حظه بالنسبة الى هذا الإجراء ؛ هل الطبع في الكاغَداً أوْ على ذراعه فكان من اصحاب الاذرع الممدودة للكشف عنها عند الخروج؟

وركب الرحالة النيل من مدينة سمنود مُصعِداً الى مصر « ما بين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض » قال « ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد ، لانه مهما اراد النزول بالشاطيء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك ، والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ، ومن مصر الى مدينة أسْوان من الصعيد » ووصل الى مصر فبهَرته بعظمتها ووصَف مشاهدها ومعالمها وذكر اشياء من اخبار امرائها واخلاق اهلها ، وكان سلطانها يومئذ محمد الناصر بن قلا وون ، وقد اثنى عليه وحمد سيرته ،

واعجب بالزاوية التي عمّرها خارج القاهرة ، لكنه استطرد ففضل عليها الزاوية التي انشأها السلطان ابو عنان بخارج فاس الجديد . ثم ذكر قضاة مصر فقال ان اعلاهم منزلة واكبرهم قدراً هو القاضي الشافعي ، وكان اذ ذاك هو العالم بدر الدين بن جماعة الشهير . وذكر العلماء ايضاً فكان من بينهم النحوي الاندلسي المعروف ابو حيان ، وسافر من مصر متوجهاً الى الحجاز بطريق الصعيد ، وفي قُوص عاصمة هذا الاقليم، رأى العالم فتح الدين ابن دَقيق العيد ، وكان هو الخطيب بها ، فأثنى عليه بالفصاحة والبلاغة والسبق في هذا المضمار وقال « لم ار من يماثله الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبري وخطيب مدينة خُوارزم حُسام الدين الشاطبي » واذا كان خطباء العالم الاسلامي في ذاك العصر ثلاثة ، فلا عجب ان نرى ما عليه الخطباء اليوم من العجز المخجل . و واصل صاحبنا سفره في صعيد مصر الى مدينة أدْفُو ثم ركب النيل الى مدينة العطواني ، ومنها امتطى ظهر الجمال ودخل الصحراء مع جماعة من الاعراب الى مدينة عَيْذَاب فوصلها بعد خمسة عشر يوماً . قال واهلها البجاة وهم سود الالوان ، وأميرهم يعرف بالحدْرَبي وكان تحت السيطرة الاسمية للناصر بن قلاوون . ولقي صاحبنا فيها مشائخ منهم الشيخ المسن محمد المراكشي « زعم انه ابن المرتضي ملك مراكش (يعني الموحدي) وان سنه خمس وتسعون سنة » .

ولم يأت لصاحبنا ان يبحر من عيْذاب ، الى جُدّة كما كان يؤمل لانه

وجد صاحبها في حالة حرب مع الناصر ، وقد خرق المراكب وتعطلت طريق البحر ، فرجع عودَه على بدئه مع قافلة الاعراب وقطع الصحراء ثانية الى الصعيد ثم الى قُوص ، وانحدر منها في النيل الى مصر ، وكان اوان مده ، فوصلها بعد مسيرة ثمان ، ولم يلبث فيها الا ليلة واحدة وقصد الشام فاخترق شمال مصر كما اخترق جنوبها وذلك في منتصف شعبان ٧٢٦ وفي مركز على الحدود يسمى قطياً وجد صاحبنا ديواناً للتفتيش اهم من الذي حكى عنه بدمياط ، يوجد به العمال والكتاب والشهود ، فتفتش فيه امتعة التجار ويبحث عما لديهم اعظم البحث ، وتؤخذ منهم الاعشار ، ولا يجاوزه احد الى الشام الا ببراءة من مصر ولا الى مصر الا ببَراءة من الشام ، احتياطاً على اموال الناس وتوقياً من الجواسيس العراقيين ، وذلك يدل على ان العلاقات السياسية بين ملوك مصر والمغول الحاكمين بالعراق لم تكن على ما يرام . ويقول الرحالة ان الطريق الفاصل بين البلادين كان في ضمان العرب قد وُكّلوا بحفظه ، فاذا كان الليل مسحوا على الرمل حتى لا يبقى به اثر ، ثم يأتي الامير في الصباح فينظر الى الرمل فان وجد به اثراً طالب العرب باحضار مُؤثّره ، فيذهبون في طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الامير فيعاقبه بما شاء . وهكذا كانت سياسة الملوك والرؤساء ، وما زالت ، عاملاً مؤثراً في فرقة العرب والمسلمين وتفكيك وحدتهم . ويُعفى الاميرُ صاحبنا ومن معه من الرسوم الواجبة والاجراءات اللازمة ، حينما يتحقق انه مغربي ؛ لان المغاربة لا يتعرض لهم في هذا المركز ، ويوجد عند الامير موظف مغربي يسمى عبد الجليل هو

الذي يقوم بمهمة التحقق من مغربية المسافرين . وبذلك لا يختلف هذا المركز عن أي مركز تفتيشي على الحدود بين بلادين مختلفين في هذا العصر حتّى في تنصيب الخبراء في الاشخاص !...

ويصل صاحبنا الى غـَزّة من بلاد الشام وينتقل منها الى الخليل ثم الى القدس فيزور كل ما يمر به من المعاهد والمشاهد ، ويصف المسجد الاقصى ، وقبة الصخرة ، ويذكر اسماء مشائخ القدس وقد اخذ عن بعضهم العهد ثم يغادرها متنقلا بين عدة مدن الى ان يصل الى صُور قال « وهي خراب وبخارجها قرية معمورة واكثر اهلها أرْفاض ، ولقد نزلتُ بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء ، فأتى بعض اهل تلك القرية ليتوضأ ، فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح رأسه ، فاخذت عليه في فعله ، فقال لي ان البناء يكون ابتداؤه من الاساس » ويواصل السير الى ان يصل بيروت ويقصد منها لزيارة قبر ابي يعقوب يوسف الذي يزعمون انه من ملوك المغرب قال « وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز ، وعليه زاوية يُطعَم بها الوارد والصادر » ثم يذكر حكايته في الفرار من الملك وما نسجه العوام حول ذلك من عناكب الخيال . والمعروف ان ابا يوسف يعقوب المنصور الموحدي هو الذي راجت حوله هذه الاسطورة (1) ، وابن بطوطة

---

1) انظر الاستقصا ج ص ل ١٨٤ .

يجعله ابا يعقوب يوسف فلعله اخطأ في اسمه ان لم يكن ذلك من تصحيف النساخ .

ويمضي صاحبنا في طريقه الى طرابلس فيصفها ويذكر من وجد بها من العلماء ومنهم شمس الدين بن النقيب . وما يزال ينتقل من بلدة الى اخرى حتّى يصل مدينة حلب فينوه بها كثيراً ، ويغلط في تسمية نهرها بالعاصي ظناً منه انه النهر الذي يمر بحماة ، واسمه الصحيح القُوَيْق ، على انه يشرح لنا سبب تسمية النهر بالعاصي شرحاً طريفاً فيقول : « قيل انه سمي بذلك لانه يخيل لناظره ان جريانه من اسفل الى علو » ولا ينسى ان يذكر من وجد بها من العلماء ومنهم ابن الزّمْلكاني ، ويمر بعد ذلك بانطاكية ثم بحصون الاسماعيلية « ويقال لهم الفِدّاوية ولا يدخل عليهم احد من غيرهم ، وهم سهام الملك الناصر ، بهم يصيب من بَعُدَ عنه من اعدائه بالعراق وغيرها » الخ كلامه عنهم ثم يمر بمنازل النصيرية ، الطائفة المعروفة ، فيتحدث عنهم وعن هَوَسِهِم وبجبل لبنان فيصفه بخصب التربة وجمال الطبيعة وبانه لا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى ، ومن لبنان يصل الى بَعْلَبَكّ فيذكر من خيراتها ومصنوعاتها الشيء الكثير ومن ذلك صحاف الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد ، يصنعون منها دسُوتاً يجعل بعضها في جوف بعض فيكون الدست يحتوي على عشر صحاف او ملاعق واحدة منها اصغر من الاخرى الى النهاية ويصنعون لها غشاء من جلد تمسك به .

وفي ٩ رمضان ٧٢٦ وصل صاحبنا الى دمشق ، وكان عظيم الاشتيـــاق اليها . فنزل منها بمدرسة المالكية التي تعرف بالشرابشية . ووصفها فقال « ودمشق هي التي تفضُل جميع بلاد الدنيا حسناً وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها » .

ويجول فيها جولته فيتحدث عن الجامع الاموي باسهاب وعن غيره من المعاهد والمدارس والمزارات وعن الاوقاف الخيرية التي اوقفها اهل دمشق على السابلة والمحتاجين وتجهيز البنات الفقيرات الى ازواجهن واعانة العاجزين عن الحج وفكاك الاسرى واصلاح الطرق . ويذكر ان لطرق دمشق رصيفين في جنبيها يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان في وسطها ويحكي هذه الحكاية الطريفة مما يتعلق بالاوقاف الخيرية قال : « مررت يوماً ببعض ازقة دمشق فرأيت مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صفحة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شَقفْها واحملها معك لصاحب اوقاف الاواني فَجَمعها وذهب الرجل معه اليه فاراه اياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن . وهذا من أحسن الاعمال ، فان سيد الغلام لا بد له ان يضربه على كسر الصحن او ينهره ؛ وهو ايضاً ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خير من تسامت همته في الخير الى مثل هذا » .

وبالجملة فهو ينوه كثيراً بأخلاق اهل دمشق وبحسن معاملتهم للغريب

وكرم ضيافتهم ، ومن كلامه يعلم ان دمشق في ذلك العصر كانت لا تزال عظيمة العمران برغم ما مر عليها من احداث وان المجتمع الاسلامي بها كان ارقى ما يكون . ثم يذكر من لقي بها من العلماء وهم جماعة كثيرة ومنهم ابن الشّحْنة سمع عليه البخاري في اربعة عشر مجلساً بقراءة البِرْزالي واجازه اجازة عامة كما اجازه غيره من اعلامها . ولم يأخذ عن ابن تَيْمية وان قال انه رآه [1] .

وفي مستهل شوال السنة خرج من دمشق مع الركب الحجازي قاصداً معان ومنها دخل الصحراء «التي يقال ان داخلها مفقود وخارجها مولود» على حد تعبيره ، فوصل المدينة المشرفة على صاحبها افضل الصلاة والسلام ، وبعد قيامه بزيارة الروضة الشريفة وشفاء غليله من تلك المعاهد المنيفة توجه الى مكة المكرمة على الطريق المعتاد فأدى الفريضة على اتم وجه الى مكة كما كان يؤمل وطاف بجميع المشاعر وزار كل المشاهد ووصف البيت الحرام والحياة في مكة واثنى على أخلاق اهلها احسن الثناء .

وفي 20 من ذي الحجة خرج من مكة صحبه الركب العراقي ، وكان ركبا حافلا يحتوي على جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والاعاجم «لا يحصى عددهم ، تموج بهم الارض موجا ، ويسيرون سير السحاب المترا كم

١) في رؤيته له نظر ، لأن ابن تيمية عند وصول ابن بطوطة إلى دمشق كان رهن الاعتقال .

فمن خرج لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس » اما تجهيز هذا الركب بالمواد والمؤون والادوية والاشربة ووسائل الراحة فحدّثْ عنه ولا حرج ، وكان اميره يدعى البَهْلوان وهو من اهل الموصل ، وجميع مايتوفر عليه هذا الركب من الاستعداد الكامل هو من حسنات ملك العراق ابي سعيد . وقد قرّب امير الركب صاحبنا واكرمه ويعجبك حديث الرحالة عن الطريق بين الحجاز والعراق عَبْرَ نجد وخاصة عن مصانع الماء في الصحراء القاحلة وسيرْ الركب ليلا ، وقد أوقِدت المشاعل أمام القطار والمحارات فترى الارض تتلألأ نورا والليل قد عاد نهارا ، وبالجملة فان ركب الحج العراقي فيما يحدث صاحبنا لا يضاهيه ركب ، وهو يتأخر بمكة عن الركبين الشامي والمصري اربعة أيام تفتح له فيها الكعبة الشريفة فيدخلها هو ومن ينضوي تحت لوائه ويكثر أفراده من الصدقة والعطاءات لاهل مكة حتى انهم «ربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا في فِيه الذهب والفضة الى ان يفيق » وتؤثر نفقاتهم السخية على سعر الذهب بمكة فيرخص سَوْمُه وذكر الرحالة انه لما عاد الى مكة في سنة 728 بصحبة هذا الركب وقع التنويه باسم ملك العراق ابي سعيد على المنبر في الحرم وما ذلك الا لان اللّهى تفتح اللّها كما يقولون .

ويترك صاحبنا الركب العراقي في النجف ، بعدما يزور مشاهد آل البيت فيقصد البصرة عن طريق واسط ، ويصف المدينة العربية الشهيرة ويقُص حكاية خطيبها اللحّانة التي تقدمت ثم يجوب شط العرب ويخترق بلاد فارس

وفي عبَدان يلتقي باحد العُبّاد فيدعو له بقوله «بلّغَك الله مرادَك في الدنيا والآخرة» ويُعقّب هو بهذه العبارة «فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا ، وهوالسياحة في الارض ، وبلغت من ذلك مالم يبلغه غيري فيما اعلم ، وبقيت الاخرى والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة» وهنا فقط اعرب عن ان مراده كان هو السياحة في الارض ، ولم يكن قبل يذكر الا الحج . كما انه ذكر هنا عادته في سفره ، وهي انه لا يعود من طريق سلكها ما امكنه ذلك ، وانه كان يريد زيارة بغداد ولكن بعض اهل البصرة اشار عليه بالسفر صَوْبَ بلاد العجم فعمل باشارته لما كانت موافقة لعادته وزار في هذه البلاد مدينة تُسْتَر واقام في ضيافة شيخها صدر الدين من ذرية سهل ابن عبد الله التّسْتري الشهير 61 يوما قال « فلم ار اعجب من ترتيبه ولا ارغد من طعامه ... وهذا الشيخ من احسن الناس صورة واقومهم سيرة ، وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ، ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغُر لديّ كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم الق فيمن لقيتهم مثله»

وزار ايضاً مدينة اصفهان ووصف من ترف اهلها ما يقضي منه العجب ، واخذَ العهدَ عن بعض شيوخها وذلك في 24 جمادي الآخرة 727 ثم زار شيراز واثنى عليها كثيرا وجعلها نظيرة دمشق في كثير من الاوصاف ، وذكر من غريب امورها ان النساء يجتمعن بها لسماع الوعظ كل يوم اثنين وخميس

وجمعة في المسجد الاعظم وربما اجتمع منهن الالف والالفان بأيديهن المراوح يروحن بها على انفسهن من شدة الحر قال « ولم ار اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد ، ولاحظ شدة تعظيم الاعاجم للعلم والعلماء حتى ان سلاطينهم ربما سموا ابناء هم باسماء مشيخة العلم ، كسلطان شيراز ابي اسحق بن محمد شاه الذي سماه ابوه باسم الشيخ ابي اسحق الكازَرُوني قال «والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا » وممن لقي بشيراز الشيخ مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد اذ سمع عليه مسند الامام الشافعي ومشارق الانوار للصاغاني ، ومن المشاهد التي زارها هناك قبر الشاعر سَعْدي المشهور قال « وكان أشعر اهل زمانه باللسان الفارسي وربما الم في كلامه بالعربي» .

ثم دخل البرية بعد ذلك قاصدا الكوفة ومنها الى بغداد دار السلام وحضرة الاسلام كما قال ، وكان يوجد بها في رجَبِ السنةِ حين سمع مُسنَد الدارمي على الشيخ سراج الدين القَزْوِيني ولم يطل الكلام عليها ؛ لانها كانت في إدبار من امرها ، لكنه تبسط في الكلام على ملكها ابي سعيد بَهادُر وموكبه العظيم ، وكان قد سافر بمعيته اياماً ، ثم زار تِبرِيز فأعجب بسوقها الجامعة وخاصة سوق الجوهريين حيث حار بصره مما رأى من انواع الجواهر ، وهي بأيدي مماليك حِسان الصّوَر عليهم الثياب الفاخرة ، واوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين ايدي التجار يعرضون الجوهر على نساء الاتراك ،

وهن يشترينه كثيرا ويتنافسن فيه قال : فرأيت من ذلك كله فتنة يُتعوّذ بالله منها » .

وكان ملك العراق ابو سعيد عرف انه يريد الحج الى بيت الله الحرام ، فأمر له بالزاد والركوب في السبيل مع المحمل الا انه رأى الموسم لايزال بعيدا ، فسافر الى الموصل وديار بكر ثم عاد فلحق بركب العراق وكان اميره هو سابق الذكر فاظهر من الاعتناء بصاحبنا مالا مزيد عليه .. ووصل مكة وحج ثانية عام 727 ولما كانقد اختار المُجاورة بالحرم الشريف ، فقد حج ثالثةً في العام الموالي ، وحضر في هذه الحجة أناس من بلده طنجة ومن قَصْر المجاز ومن القصر الكبير ، جلّهم من الفقهاء فتعرف منهم اخبارَ المغرب ، ثم انه اقام مجاورا بمكة ايضاً الى سنة 727 وحجّ للمرة الرابعة ، وفي السنة التي بعدها وقعت فتنة بمكة فخرج منها الى جدة وركب البحر لاول مرة الى اليمن عَبْر سَواكن ، فطاف بأرجاء القطر العربي العريق ، ولم ينس ان يسجل التشابه بين اليمنيين والمغاربة في كثير من الاحوال «مما يقوي القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب اصلهم من حمير »

وابحر من عدن الى مدينة زَيْلَع بالصّومال ولاحظ عليها شدة القذارة بحيث انه لم يستطع المبيت بها ، ففضل النوم بالمركب مع اضطراب البحر ثم توجه الى مَقْدَشَو عاصمة تلك البلاد ولقي سلطانها وهو يلقب بالشيخ ، ومن غريب ماذكر من احوالها انه عند ما تصدح الموسيقى الرسمية لا يتحرك

احد ولا يتزحزح من مقامه ، ومن كان ماشيا وقف ، كما يجري الان تماما في بعض البلاد ذات الحكم العسكري ، وعاد الى اليمن عبر ظِفَار ثم عرج على هُرْمُز وسِيرَاف والبَحْرين ووصف مَغَاصَ اللؤلؤ فيما بين تلك البلاد ورجع ادراجه فعبر الى القطيف مجتازا باليمامة قصد مكة ، فحج للمرة الخامسة وذلك سنة 727 وذكر ان الملك الناصر ابن قلاوون حج في تلك السنة ولكنه لم يتصل به على مايظهر كما لم يتصل به في مصر .

وهنا يكون ابنُ بطوطة قد قضى في الرحلة سبع سنين ونصفا ، وحج خمس مرات ، وطاف العالم العربي كله وجانبا مهما من العالم الاسلامي ، ومع ذلك فأن القسم الاكبر من رحلته كان لايزال امامه . ولنتأثره مسرعين فقد اتي جدة واراد ان يبحر الى اليمن قصدَ الهِند ، ولكنه لم يجد مركبا ولا رفيقا ، فعاد الى مصر بطريق الصعيد ثم الى الشام عن طريق بلبيس وركب البحر الى العلايا بجنوبي آسيا الصغرى قال : «وهي اول بلاد الروم» فجاس خلالها وتحدث عن أمرائها ، وكان الاتراك حينذاك لم يستتموا وحدتهم بعد ، فحديثه عنهم في هذه الفترة من تاريخهم السياسي له اهمية كبيرة ، ومما يلفت النظر في حديثه عن هذه البلاد مُنظّماتُ الفِتْيان المسماة بالأخيّة التي كان يلتقي بها في طول البلاد وعرضها ، وهي منظمات شبيهة بالنقابات والكشفية وتغلب عليها الصبغة الدينية والخُلُقية ، فتنتظم فيها جماعات من الشباب ينتسبون الى مهنة معينة ويتخذون مقرالهم يجتمعون فيه كل ليلة وياكلون

ويشربون ويغنون ويرقصون مع المحافظة على الشعائر الاسلامية والاعتناء باكرام الضيف وتسلية الغريب واعانته على قضاء مآربه ولهم في هذه الطريقة التي يسمونها الفتوة سند يتصل بالامام علي كرم الله وجهه وشعارهم فيها لبس السراويل كما تلبس الصوفية الخرْقة ولعلهم انما اتخذوا السراويل شعارا لما يهدفون اليه من التزام الصيانة والعفاف .

وانتقل صاحبنا الى شبه جزيرة القِريم من ثغر صنوب بشمالي آسيا الصغرى ثم الى آزاق فبلاد البلغار ؛ التي وصلها في رمضان قال «فلما صلينا المغرب افطرنا واذن بالعشاء في اثناء افطارنا فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر اثر ذلك ، وكذلك يقصر النهار بها في فصله» وفي هذه البلاد الفسيحة ركب العرَبّات لاول مرة واكل لحم الخيل وذاق البُوزَة وهي نوع من النبيذ ، وبما ان اهل البلاد أحناف فانهم لم يكونوا يتحرجون من شربها . ولاحظ كثرة الخيل بها وانخفاض ثمنها بحيث يكون اصدارها الى الهند تجارة رابحة جدا . واتصل بالسلطان محمد ازبك خان في بلاطه المنتقل وهو «مدينة عظيمة تسير باهلها فيها المساجد والاسواق » وقد حظى عند هذا السلطان حتى ارسله بمعية احدى زوجاته الاربع الى القسطنطينية ، وكانت تقصد زيارة أبيها ملك الروم ، فاتيحت له فرصة زيارة العاصمة البيزنطية الشهيرة ولم تكن فتحت بعد .

وعاد الى مدينة السّرا عاصمة السلطان اوزبك ثم اخترق طريق خوارزم فبخارى وسمرقند وتِرْمِذ فخراسان فافغانستان الى الهند ، ويطول بنا الامر لو وقفنا معه في اي بلد من هذه البلاد وتتبعنا ملاحظاته الدقيقة واحاديثه الطّليّة عن البلاد واهلها .

وقد وصل الى الهند في محرم 734 وفي الحين أخبر به ملك الهند محمد شاه بن تغلُق ، اذ كان ذلك هو النظام المتبع في هذه البلاد ، لا يجاوز احد حدودها حتى يرفع به الى الملك ، فصدر الامر باكرامه والاعتناء به ثم اتصل به بعد ذلك في 4 شوال السنة وحظي عنده وخيره في مناصب الدولة على ماسبقت الاشارة اليه فاختار القضاء لانه منصب آبائه . وفعلا ولي القضاء المالكي بعاصمة الهند دهلي الى سنة 742 اي ماينيف على سبعة اعوام وبذلك امكنه ان يذكر من احوال هذا الملك وبلاطه وحاشيته الشيء الكثير وخاصة عن كرمة وأعْطيتّه الخيالية التي لا يفوت صاحبنا ان يُصرّفها بالعُمْلة المغربية ليدل على اهميتها ، وكذلك ذكر فتكاتِه التي تُغطّي على إحسانه مما لايمكن تلخيصه الا اذا جاوزنا الحد الذي نلتزمه في هذه التراجم . والحقيقة ان كتابته عن الهند وعن أمرائها وعن احوالها الاجتماعية ، وهي تكاد تستبد بالجزء الثاني من الرحلة ، هي من خير ما كتب ابن بطوطة تعريفا بالبلاد التي زارها وستبقى مرجعاً هاماً للمؤرخين والباحثين في شؤون الهند وحضارة اهلها تحت الحكم الاسلامي .

وفي جمادي الآخرة من عام 742 ترك الهند على رأس سفارة عظيمة الى الصين وبرغم الاستعدادات الفائقة ، فان هذه السفارة قد تَعوّقت عن الوصول الى غايتها وطوّحت الاقدار بصاحبنا الى جزائر ذِيبَة المَهَل بالمحيط الهندي حيث اقام عاما ونصفا وولى القضاء من طرف سلطانتها خديجة بنت جلال الدين وهو يحكي غرائب عن حياة اهل هذه الجزائر لانه بحكم اقامته هذه المدة بين اظهرهم وتوليه السلطة في بلادهم تعرف على كثير من احوالهم .

ثم غادر هذه الجزائر متوجها الى الصين عن طريق سيلان فَبنْغالة فالملايُو فسُومَطرة فالزّيتون التي هي ميناء صينية على المحيط الهادي تعرف الآن بتِسيوَان تَشُو وتوغل صاحبنا في داخل البلاد التي تقع على مقربة من ساحل المحيط الاعظم حتى وصل خان بَالق التي هي بكين عاصمة الصين اليوم ، ومع انه لم يجب الصين كما جاب الهند فانه لم يُخْل رحلته من اخبار مهمة عن هذه البلاد ولا سيما احوال المسلمين بها ، وتحدث عن براعة الصينيين في فن التصوير وصناعة الفخار ، وعن تعاملهم بأوراق النقد وادخارهم الذهب والفضة بشكل سبائك كما يعمل مصرف أي دولة في هذا العصر . واستَمِعْ الى حديثه عنهم في التصوير « ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك اني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا ورأيت صورتي وصور اصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الاسواق » الخ وما ندري هل اصطحب معه صورة منها ام لا ؟

اما حديثه عن امن الطرق والتحفظ على اموال الناس وسهولة المواصلات وتنظيم الملاحة التجارية فشيءٌ لايقل عما لدى ارقى الدول العصرية اليوم ،وفي الشرق على العموم كانت الطرق حسبما يروي صاحبنا مامونة ومقسمة الى الى مراحل يجد فيها المسافر كل ما يحتاج اليه وبعضها كما في بلاد المليبار ، كان مكتنَفاً من الجانبين في اكثره بدكاكين التجار وبعضها كالطريق بين دهْلي ومدينة ظِهار كانت عليها النّصُب فيها عدد الاميال التي قطعها المسافر والتي بقيت له ، فالأمر كما يقال لا جديد تحت الشمس .

ومن الصين ينكفيءُ صاحبنا راجعا عن طريق سُومَطْرة فالهند فاليمن فبلاد العجم فالعراق فالشام فمصر الى ان يصل مكة في 22 شعبان 749 فيقيم بها الى موسم الحج ويحج للمرة السادسة ثم يسافر الى المدينة المنورة ومنها الى القدس ثم الى مصر وينثني عائدا الى المغرب بعد ان غاب عنه 25 سنة فيدخل فاسا في اواخر شعبان عام 750 هـ ويَمْثُل بين يدي السلطان ابي عِنَان المرِيني فيغمُره باحسانه كما قال ويثني عليه احسن الثناء بل يعمل مقارنة بينه وبين من شاهدهم من ملوك الدنيا فيفضله عليهم .

* * *

لم تستقر النوى بصاحبنا بعد رحلته الاولى هذه ، حتّى عاد فبدأ رحلته الثانية في مملكة غرناطة بالاندلس وذلك لئلا يفوته هذا القسم من العالم الاسلامي

مع انه بروية منه ومسمع ، فقد اصبح الآن حريصاً على استيعاب البلاد الاسلامية بالزيارة ليتأتى له ان يقول مفتخرا على السائح المصري الذي لقيه بمدينة بُرْصى (وهو من الصالحين جال الارضْ الاانه لم يدخل الصين ولا جزيرة سِرَنْدِيب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الاقاليم) وليصبح بعد ذلك (مسافر العرب والعجم) كما قال له الشيخ جلال الدين التبريزي في بنغالة .

وقد خرج صاحبنا في هذه الرحلة من بلدة طنجة فمرّ بسبتة وجبل طارق وكان خاضعا للمغرب ثم مر برنُدْه فمالقة فغرناطة وكان ملكها حينئذ ابو الحجاج يوسف بن اسماعيل بن نصر ولقى بها من الاعلام ، ابا القاسم الشريف وابا سعيد بن لب وابا البركات ابن الحاج وابا القاسم بن عاصم ، وقد ذكره ابن الخطيب في الاحاطة ولم يزد على تسميته شيئا غير مانقله من خط شيخه ابي البركات تبيينا لحاله ونصه : (هذا رجل لديه مشاركة يسيرة في الطلب رحل من بلاده الى بلاد الشرق يوم الخميس الثاني من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، فدخل بلاد مصر والشام وعراق العجموبلاد الهند والسند والصين وصين الصين وبلاد اليمن وحج عام ستة وعشرين وسبعمائة ، ولقى من الملوك والمشائخ عالما وجاور بمكة واستقرعند ملك الهند فحظى لديه وولاه القضاء ، وافاد مالا جسيما ، وكانت رحلته على رسم الصوفية زيا وسجية ثم قفل الى بلاد المغرب ودخل جزيرة الاندلس فحكى بها احوال المشرق وما استفاد من اهله فكُذّب) .

وقال «لقيته بغرناطة وبتْنا معه ببستان ابي القاسم بن عاصم بقرية نبلة ، وحدثنا في تلك الليلة وفي اليوم قبلها عن البلاد المشرقية وغيرها فاخبر انه دخل الكنيسة العظمى بالقسطنطينية العظمى ، وهي على قدر مدينة مسقّفة كلها ، وفيها اثنا عشر الف أسقف (١)» .

وقد عقب ابن الخطيب على هذه الفذلكة بقوله : «قلت واحاديثه في الغرابة ابعدُ غَوْراً من هذا . وانتقل الى العدوة فدخل بلاد السودان ثم ان ملك المغرب استدعاه فلحق به وامره بتدوين رحلته»

وهذا الاجتماع الذي كان في بستان ابن عاصم اشار له صاحبنا في الرحلة وحكى انهم اقاموا فيه يومين وليلة ، وزاد كاتب الرحلة ابو عبد الله بن جزَيّ فقال «كنت معهم في ذلك البستان ومتّعنا الشيخ ابو عبد الله (يعنى ابن بطوطة) باخبار رحلته وقيدت عنه اسماء الاعلام الذين لقيهم واستفدنا منه الفوائد العجيبة» .

* * *

وعاد صاحبنا الى فاس ، فلم ينشَب ان شرع في رحلته الثالثة الى بلاد السودان . وفي سجلماسة اخذ أهبته لهذه الرحلة والتحق برفقة يرأسها احد رجال مَسُوفَة ، وذلك في غرة محرم فاتح 25 ، فبعد 753 يوما وصل الى

١) هذا مخالف لما في الرحلة فانظرها .

تغازي ، وهي قرية الملح بناؤها من احجار الملح المسقفة بجلود الجمال ، وتجارتها في الملح مع السوادين تجارة عظيمة . وبعد استراحة عشرة ايام ، استأنف الرحلة عبر الصحراء وكانت رحلة شاقة ومحفوفة بالمخاطر ، واخيرا وصل الى مدينة ايوالاتن اول عمالة السودان وهي مدينة اكثر سكانها من مسوفة ، وهم مع محافظتهم على الصلاة وقراءة القرآن وطلب العلم ، لاغيرة لهم على ازواجهم ، وللنساء هنالك حياة اجتماعية متحررة من كل القيود .

وخرج صاحبنا من ايوالاتن متوجهاً صوب مالي عاصمة البلاد فلقي سلطانها منسي سليمان ، ولم ينل منهُ خيرا ، غير انه وصفه بالعدل والاستقامة واتى بوصف معجب لبلاطه ولخروجه الى صلاة العيد ، ثم توجه الى تمبكتو ومنها الى تكدا ، ووصل في تنقلاته بين هذه المدن الى نهر النيجر ، فظنه النيل ، ورأى التمساح في بعض ضفافه « كأنه قارب صغير » كما رأى فرس البحر في بعض خُلُجانه ؛ ومن المحقق انه جاب في هذه الرحلة اماكن لم يصل اليها سائح من قبله ، ووصفها وصفا معجبا . فلهذا القسم من رحلته اهميته التي لاتقل عن اقسامها الاخرى .

وبينما هو في تكدا وافاه امر السلطان ابي عنان بالرجوع الى المغرب ، فكر راجعا الى سجلماسة عن طريق تُوات . وفي نهاية عام 754 وصل الى فاس بعد ان قضى في هذه الرحلة عامين كاملين ، وباضافتهما مع الزمن الذي قضاه في رحلة الاندلس يكون قد صرف زهاء ثمانية وعشرين عاما في التنقل والترحال ، فما اعظمها من همة ! وهكذا تكون الرجال ! .

وامره السلطان باملاء رحلته على الكاتب ابي عبد الله بن جُزَيّ ، وهو احد اولاد العالم ابي القاسم بن جزي ، فقام هذا بما كلف به من ضم اطراف الرحلة وترتيبها ، وتصنيفها وتهذيبها وسماها تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، وانتهى من ذلك في 3 ذي الحجة عام 756 ... وكأن السلطان ابا عنان لما وفّد عليه ابن بطوطة اولا في عام خمسين غفل عن امره بتدوين رحلته ، والعذر له ، فقد كان مشتغلا بتثبيت دعائم ملكه ، ومصارعة اعدائه . ثم تنبه للامر بعد ذلك فنفذه كما رأيت ، باستدعاء ابن بطوطة من اقصى بلاد السودان ، على انه قد قيل انه كان موفدا من قِبَله الى تلك الديار في مهمة ، ولا يظهر ذلك من سياق الخبر في الرحلة .

وبعد انتهاء الرحلة ينسدل حجاب كثيف على حياة ابن بطوطة التي وان طالت بعد ذلك اكثر من عَقْدَيْن من السنين فاننا لم نعد نعرف عنها شيئا بعد ان لابسناها وصاحبناها في افراحها واتراحها مدة ثمان وعشرين سنة ، غير ان ابن حجر في «الدرر الكامنة» نقل من خط ابن مرزوق : «انه بقي الى سنة سبع وسبعين ومات وهو متولي القضاء ببعض البلاد » فيرشد هذا الكلام الى انه حظي عند بني مرين وولوه منصب القضاء الذي قال عنه «انه شغله وشغل أبائه»

ويزيد ابن مرزوق فيقول ، فيما قرأه ابن حجر بخطة : «ولا علما احدا جال في البلاد كرحلته ، وكان مع ذلك جوادا محسنا» وهي شهادة لرحالتنا من العلامة ابن مرزوق تعضُدها قراءةُ الرحلة . على ان ابن حجر اشار

ايضا الى دفاع ابن مرزوق عن الرحالة فيما كان من اتهام ابي البركات بن الحاج له فقال : «وكان البِلّفيقي رماه بالكذب فبرأه ابنُ مرزوق عن والبلفيقي هو ابو البركات بن الحاج . وقد سبق نقل كلامه عن الاحاطة .

ولم يبين ابن مرزوق الجهة التي كان ابن بطوطة يتولى بها القضاء ، ولكن ابن الخطيب في «نفاضة الجراب» اثبت نص كتاب وجهه الى صاحبنا بصفته قاضي تامسنا ، يرجو منه المساعدة على شراء قطعة ارض بجواره ، يعدها للفلاحة عند الحاجة ، وذلك لما قرر الاستقرار بالمغرب ، فمن هذا نعرف مكان ولايته للقضاء الذي كان هو محل وفاته .

وعلى ظاهر كلام ابن مرزوق ، فان ابن بطوطة توفي سنة 777 وفي دائرة المعارف الاسلامية انه توفي سنة 779 وعليه كثير من الكتاب المحدثين .

ومن هنا يُعلَم انه لم يتوف بطنجة ، وان كان يوجد بها ضريح ينسب اليه ، ويَفِدُ الرحالةُ من كل جنس اذا قدموا طنجة عليه .لكنا نستريب في ان يكون ذلك هو مرقد الرحالة الحقيقي .

اولا ـ لان وفاته لم تكن بطنجة .

ثانيا ـ لان اسم صاحب الضريح في ألسنة الناس احمد بن علال وليس هو اسم بطوطة .

ثالثا - لان طنجة خضعت للاحتلال الاجنبي ؛ البرتغالي ثم الانجليزي ما ينيف على قرنين من الزمن بعد موت ابن بطوطة ، فيبعد ان يبقى قبره محفوظاً ومعروفا بعد هذه المدة الطويلة التي تغيرت فيها معالم المدينة من جميع الوجوه وعلى كل حال فهو ، وان يكن ذا صفة ، مزية ، ضريح متواضع جدا لا يتناسب وعظمة الرجل الذي طبقت سمعته الافاق .

وقبل ان نختم هذه الترجمة لا بد ان ننقل ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن رحلة صاحبنا ، لان فيه رداً على ماسبق عن ابن الخطيب من الاسترابة باخبار الرحالة الصدوق ، قال ابن خلدون .

«ورد على المغرب لعهد السلطان ابي عنان من ملوك بني مرين ، رجل من مَشْيَخة طنجة يعرف بابن بَطُوطة ، وكان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند ، واتصل بملكها لذلك العهد ، وهو السلطان محمد شاه ، وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ، ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان ابي عنان ، وكان يحدث عن شأن رحلته ، وما رأى من العجائب بممالك الارض ، واكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون ، مثل ان ملك الهند اذا زجع خرج للسفر احضر أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه ، وانه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك

المحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ديوانه ، وامثال هذه الحكايات ، فتناجى الناس في الدولة بتكذيبه، ولقيت انا يومئذ في بعض الايام وزير السلطان فارس بن وَدْرار البعيد الصيت، ففاوضته في هذا الشأن وأريتُه انكار اخبار ذلك الرجل ، لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس : اياك ان تستنكر مثل هذا من احوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشيء في السجن ، وذلك ان وزيراً اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربّا فيها ابنهُ في ذلك المحبس ، فلما ادرك وعقل سأل عن اللّحْمان التي كان يتغذى بها ، فاذا قال له ابوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم ؟ فيصفها له أبوه بشِياتِها ونعُوتها ، فيقول يا أبتِ : تراها مثل الفأر ؟ فينكر عليه ويقول اين الغنم من الفأر ، وكذا في لحم البقر والابل، اذ لم يعاين في محبسه الا الفأر ، فيحسِبها كلها ابناء جنس للفأر ، وهذا كثيراً ما يعتري الناس في الأخبار ، كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الاغراب ، كما قدمناه اول الكتاب . فليرجع الانسان الى اصوله ، وليكن مهيمناً على نفسه ، ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ، ومستقيم فطرته ، فما دخل في نطاق الامكان قبله ، وما خرج عنه رفضه ، وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه اوسع شيء ، فلا يفرض حداً بين الواقعات ، وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء ، فاذا نظرنا اصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته اجرينا الحكم في نسبة ذلك على احواله وحكمنا بالامتناع على ما خرج عن نطاقه، (وقل رب زدني علما) ».

وهناك ايضاً انتقاد آخر على الرحلة وجهه بعض كتاب الشرق وهو ان اسلوبها الانشائي لا يخلو من ضعف سواء من حيث استعمال بعض الألفاظ

العامية او اللحن ؛ ومن ثم يتلخصون الى التشكيك في ثقافة الرجل اللغويــة ، فالدكتور محمد مصطفى زيادة في محاضرته عنه يقول حين تعرض لملاحظتــه اللحن على خطيب البصرة : « غير ان هذه الملاحظة تدعو الى الالتفات ، فكتاب رحلة ابن بطوطة كما كتبه ابن جزي لم يخل من اخطاء نحوية ، فضلاً عن احتوائه على تعبيرات غريبة ، وأساليب قد تخالف ما نعهده للفصحاء ، فهل يكون معنى هذا ان ابن بطوطة لم يقرأ نص رحلته بعد اتمامها ، ليصلحها ويضبطها ضبطاً صحيحاً ؟ » وكاتباً مهذب الرحلة كثيراً ما يعلقان على ألفاظ للمؤلف بما يدل على انهما لم يفهما المراد منها .

والجواب عن هذا الانتقاد ان المؤلف حقيقة استعمل بعض الالفاظ الجارية على ألسنة الناس في المغرب ، للتوضيح والبيان وليست كلها عامية بل ان منها ما هو فصيح صحيح ، وانما لم يجر على ألسنة الناس في المشرق ، وهذا الصنيع قد ارتكبه كثير من الكتاب قديماً وحديثاً فلا حرج على المؤلف فيه ، وكنا نود لو اتسع لنا المجال ، فتتبعنا تلك الالفاظ كلها بالشرح والبيان . واما اللحن فلا يصح مطلقاً نسبته الى انشاء الرحلة ، كيف والمشرف على تحبيرها هو الكاتب ابو عبد الله بن جزي ، وهو من كبار أدباء المغرب والاندلس في وقتــه ؟ وهي فعلاً ، مع تشويهها بالطبع الرخيص لا يوجد فيها لحن مطلقاً . وعلى كل فالدكتور زيادة الذي يقع في كلامه مثل هذه العبــارة « واضحى سلاطين المماليك يفرضون لانفسهم مكاناً سامياً على ملوك العالم الاسلامي ، باعتبارهم حماة (بضمة على التاء) الخلافة (والمتمتعون) ببيعتها » ويقول « غيران هذا الحديث (المبروك) .. » ويقول : « ممتــاز كتب الرحــلات ، (من) دون الكتب التي (نتشوف) منها احوال القرون الخالية » لا يحق له ان يتحدث عن اللحن ومخالفة اساليب الفصحاء في كلام غيره . والكمال لله .

عَبْدُ المُهَيْمِنِ الحَضْرَمِي

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت : ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١ - ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقيا: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No : 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX : (202) : 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت ٨٦٠٧٩٢٠ - ٨٦٣٥٦٣ - ٨١١٥٦٣ - ص ب : ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكالبان»

TELEX : DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



26

عبد المهيمن الحضرمي

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

تهنئة وتقريظ

تَمَّم صنيعك

في عام ١٣٦٩ هـ اعترى كاتبَ هذه السلسلة مرضٌ منعه من مواصلة العمل، فأوقفها بعد أن أصدر منها بضع حلقات. ولما شُفِيَ خاطبه صديقه الوزير الأديب الأستاذ محمد بن موسى بهـــذه القصيدة العصماء يهنئه ويستحثّه على استئناف عمله الأدبي. وقد والى إصدارها بعـد ذلك إلى الحلقة الخامسة والعشرين:

هَوِّنْ عليك فلطفُ الله فيك خفِي
وصُنعُه لك بادٍ غـــيرُ منصرف
لمَّا تَزلْ في رَعِيلٍ من عِنــــايته
مُستحصِدٍ ومن التوفيق في كَنَف
تحنُو عليك يدٌ من فيض أنعُمه
أنَّى اتجهتَ فلا تحزَن ولا تخف

واسْلَمْ بِأنعَمِ بالٍ تَستطيبُ بـــه
بَرْدَ الرضى ومِزاجٍ غيرِ مُنحرف

* * *

لم يسمح البُرْءُ مختـــالاً مشاعِرَه
إلا لِمَا شام من فضل ومن شرف

* * *

يا مَن إذا صاحَ داعيه به سفَرتْ
غُرٌّ المنـــاقب بعد الياء والألف
فمـــا يُحاوِلُ إفصاحا بِرَائعـــةٍ
إلا تحـــيَّرَ بَيْنَ البِكْرِ والنَّصَف
لم يَعْرُ ذاتَك مكرُوهٌ تَنُوءُ بِه
كلّا ولا مـــا يروع القلبَ بالأسف
لكِنَّ دهرَكَ لاهٍ في سفـــاسفه
عمّـــا تُحبِّرُ من وَشْيٍ ومن طُرَف

ومن عقود يلوحُ التِّبْرُ من سقَطٍ
في جنبها وشُذُورُ الدُّرِّ من خَزَف
فصُمْتَ كيما يرى مَن كان ذا بصرٍ
مَسافةَ الُخلْف بين التَّمْر والَحشَف
حتى إذا لُحتَ لَاحَ الفضلُ مُلْتَحِفاً
رُوحَ النُّهى في رُواءِ غيرِ مُلْتَحِف
وليس يلحَقُ نورَ البدر من وَهَنٍ
وإن سرَى البدرُ وهْناً سيرَ مُنْكَسِف
فانهَضْ وَشِيكاً وقَاكَ اللهُ من وَصَبٍ
تعفُو بــــه خَرزَاتُ الدر في الصَّدف
وصِلْ بِرَاحِك أقلاماً متى نَهِلَتْ
لم يصحُ من سُكْرِه من جَال في الصُّحف
يهفُو إلى الرَّقْص إن غَنَّتْ فإن نَسقَتْ
دُرَّ الثغور صبَا شوقاً إلى الرَّشف

مِن صَادعٍ جَنَبَاتِ الشَّك من فَلَق
وقَـــادِحٍ لَمحَاتِ البرق في السُّدَف

كَأَنَّهَا القُضْبُ في يُمنَى أبي حسَنٍ
والسَّمْهَرِيَّةُ في كَـــفَّيْ أَبي دُلَف

نافِحْ بِها عن بلادٍ طالمـــا سقَطت
أخلاقُها بِعَوادي الجَهْل والجَنَف

تنكَّرتْ لِأَوالِيهَا فَدَيْدَنُها
وقد رَأيتَ ، عُقُوقُ الخَلْفِ للسَّلَف

أَزْرَوْا بِهِـم وتَنَـاسَوْهُم ولم يزِنُوا
حقًّا لهم فعَذِيرَ القوم من خَلَف

فَغِرْتَ غيرةَ نَدْب عن محاسِنِهم
مِنْ أَن تَشُوهَ بِعَزْمِ الناقِدِ الحَصِف

نَشَرْتَ منهم لَفِيفاً ضَـــاع نَشْرُهم
لَوْ لَمْ تُذِعْهُ فَما اسْتَعْدَى على التَّلَف

وَفِي الكواكِب من أَعلامهم هدفٌ
وشأْنُ قَارَةَ [1] وَضعُ النَّصل في الهدف
تَمِّمْ صَنيعَك وابْحَثْ في مَعادِنِهِم
بَحْثَ النِّطاسِيِّ في الآثار وانْتَقِف
واجمَعْ بدائعَ ما شَدُّوا وما عَقَدُوا
من الطَّرَائِفِ والأَعلاقِ والتُّحَف
وَضعْ بِلَبَّــةِ قُطْرٍ زِنْتَ سُمْعَتَهُ
أَطواقَ مُنْتَصِفٍ بِالصدقِ مُتَّصِف
تُدْنِي المَلاحَةُ مِنهَــا سَمْعَ مُغْتَرِمٍ
وَيَفْتَحُ الحُسْنُ فيهــا طَرْفَ مُغْتَرِف
أَعَاذَ فَضْلَكَ ، عبدَ اللهِ ، مَانِحُه
مِن لِمَّةِ الضُّعْف والأَسواءِ والدَّنف

(1) قارة : قوم من العرب مشهورون بجودة الرّمي ويقال في المثل : أنصف القارة من راماها .

وَدُمْتَ تَسْقِي يَرَاعاً كُلَّما هَتَفَتْ
وَرْقَاؤُهُ كَشَفَت عَن رَوْضَةٍ أُنُف

• • •

والآن ، وقد اضطلعت **« دار الكتاب اللبناني »** بإتمام نشر السلسلة وإعادة طبع ما نشر منها ، بعد توقفٍ دام خمس سنوات ، نقدم بين يدي الحلقة السادسة والعشرين ، قصيدةَ الأديب ابن موسى ؛ ونجعلُها فاتحةَ الطبعة الجديدة لهذه السلسلة . فإنّ بينها وبين أدب هؤلاء المشاهير وانتاجهم الرفيع ، تقارُباً وتشابُهاً ؛ مع ما فيها من تقدير هذا العمل والحضّ على إنجازه .

المغرب : ابريل ١٩٦٠

عبدالله كنون

عبد المهيمن الحضرمي

[بيته ، مولده ، نشأته ، طلبه العلم ، ومشيخته ، الآخذون عنه ، تحلية ابن خلدون والمقري وابن الخطيب له ، دخوله الأندلس وكتابته عن ملكها ، رجوعه للمغرب وكتابته لولي العهد ، تنازع الأمراء فيه ، بلوغه الغاية من المجد والشرف ، ذهـابه الى افريقية صحبة السلطان ، حلوله بتونس محل الكرامة ثم وفاته بها ، همته وحسن بديهته ، تضلعه من العربية ، مدح أبي حيان له ، فوائده ، أدبه وشعره ، ولده الأنجاب .]

الأستاذ الرئيس صاحب القلم الأعلى أبو محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن علي بن محمد بن عبدالله بن محمد الحضرمي السبتي ، يرتفع نسبه إلى العَلاءِ بن الحَضْرمي صاحبِ رسول الله ﷺ ورضي عن صاحبه . وأصل سلفه من اليمن قدموا إلى الأندلس وكان لهم بها شأن. قال ابنُ الأحمر : « ولجده الأمير كُرَيْب بالأندلس ثورة » وكان أحد جدوده المسمى عبدون لَحِقَه الضَّيْم ببلده فارتحل إلى المغرب فنزل سبتة . وبيتُهم بها شهير يُعرفون ببني عبد المهيمن . وكان والد المترجم قاضيَها أيام بني العزَفي وَوُلد هو سنة 676 فنشأ في صون وعفاف وطلب العلم على جِلَّة شيوخها وغيرهم كأبي اسحاق الغـافقي وابن رُشَيْد وابن الشاطّ وابن أبي الرَّبيع وابن الغمَّاز وأبي جعفر

ابن الزبير وأبي بكر بن عُبَيْدة وابن صالح الكناني وخلف القتبوري وخَلْق ، وأجاز له مالك بنُ المُرَحّل وأبو الفتح بن سَيّد الناس وولده أبو عمر ، والابرقوهي ، من المشرق ، وابن عبد الهادي وخليل المراغي وأبو حيان والدمياطي ، وستُّ الفقهاء بنتُ الواسطي وكثير غيرهم ، وقد بلغت مَشْيَخَتُه الألْفَ .

ونَجُب وفَهُم وتصدر للإفــادة على حداثة سنّه فبَذّ الأقران ولَحِقَ بالشيوخ الكبار وكان له القِدْحُ المُعَلّى في عـلم العربية والمشاركةُ الحسنةُ في الأصْلَيْن والإمامة في الحديث والتبريزُ في الأدب والتاريخ واللغــات والعروض . وأخذ عنه الجمُّ الغفير من ايمة العلم والأدب يكفي أن نذكر من بينهم المقَّرِيَّ الجَدَّ وابنَ مرزوق الكبيرَ وابن الخطيب وابن خلدون . وحلّاهُ هذا الأخيرُ بإمام المحدثين وقال فيه « كانت بضاعتُه في الحديث وَافِرةً ، ونِحْلتُه في التّقْيِيدِ والحِفْظ كامِلةً وكانتْ له خِزَانة من الكُتب تَزيد على ثلاثة آلافِ سِفْر ، في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسـائر الفنون مضبوطةً كلُّها مُقابَلَةً . ولا يخلو ديوانٌ منها عن ضبط بخط بعض شيوخه المعروفين في سَنَدِه إلى مؤلفــه حتى الفقه والعربية الغريبة الإسناد الى مؤلفها في هذه العصور » وقال فيه المقري الكبير : « جمع فأوعَى ، واستوعب أكثر المشاهير وما سعى ، فهو المُقِيم الظاعِن ، الضارب القَاطِن » وهو يشير بذلك إلى سَعَةِ روايتِه وكثرة من أخذ

عنهم عن أيمة المشرق والمغرب سماعاً أو إجازة مع أنه ليس له رِحلة .

وهذه تَحْلِيَةُ ابنِ الخطيب له في الإكليل : « تاجُ المَفْرِق ، وفخرُ المغرِب على المَشرِق ، أطلَع منه نوراً أضاءت له الآفـاق ، وَأَتَى منه بذخيرة حمَلَت أحاديثَها الرِّفاق ، مـا شِئْتَ من مجدٍ سامي المَصاعِد والمَراقِب ، عزيزٍ عن لَحاقِ النجم الثـاقب ، وسلَفٍ زينَت سماؤه بنُجوم المنَاقِب » .

ثم قال في ذكر نشأته وتبريزه : « نشأ بسبتة بلَدِه بين علم يُفيدُه ، وفخر يَشِيده ، وطهارة يلْتَحِفُ مَطارِفَها ، ورياسةٍ يتَفَيَّأُ وَارِفَها ، وأبوه رحمه الله تعـالى قُطبُ مَدارِها ، ومَقَامُ حجِّها واعتمارِها ، فسلك الوُعُورَ من المعارف والسُّهول ، وبذَّ على حداثة سنه الكُهول ، فلما تحلَّى من الفوائد العلمية بمـا تحلى ، واشتهر اشتهارَ الصباح إذا تجلَّى ، تنافست فيه هِمَمُ الملوك الأخاير ، واستأثرتْ به الدول على عادتهـا في الاستئثار بالذَّخائر ، فاستقلَّت بالرياسة ذِراعُه ، وأخدَم الذوابلَ والسيوفَ يَراعُه ، وكان عينَ المُلك التي بهـا يُبْصِر ، ولسانَه الذي به يُسهِب أو يَختصِر ، وقد تقدمت له إلى هذه البلاد (يعني غرناطة) الوِفادةُ ، وجَلَّت به عليهـا الإفادة ، وكتب عن بعض ملوكِها ، وانتظم في عقُودهـا الرفيعة وسُلُوكِها ، وله في الأدب الرايةُ الخافقة ، والعقود المُتَنَاسِقَة ، ومَشْيَخَتُه حافِلةٌ تزيد

عن الإحصاء ، وشعرُه مُنْحَطٌ عن محله من العلم والشهرة ، وإن كان داخلاً تحت طور الإجادة » .

نَعَمْ ، وَفد إلى غرناطة مع والده لما استولى صاحبُها وهو الثالث من ملوك بني الاحمر على سبتة سنة 705 ونقل رؤساءَها بني العزَفي مع جُمْلة أعيانِها الى حَضْرته وكان بنو عبد المهيمن ، كما علمتَ ، من عُيون أعيانها فضلاً عن صِهْرِهم مع العزَفيّين فنُقِلُوا إليها كذلك . واستكمل المترَجَمُ قراءَة العلم هناك وكَتَب لملكها المذكور مُختَصّاً بالوزير ابنِ الحكيم مُنتظِماً في طبقة الفضلاء الذين كانوا بمجلسه مثلِ ابن سيِّد الفهري وابي العباس العزَفي وابن خَميس التِّلمْساني .

ثم لما نُكِب ابنُ الحكيم رجع الى سبتة وكتب عن قائدها يحيي ابن مَسْلَمة مُدّةً فلما استخلص بَنُو مَرِين سبتةَ سنة 709 واستولى السلطان ابو سعيد على المغرب واستقل بالأمر وليُّ عهده ابنُه ابو علي وكان مُحباً للعلم مُنتَحِلاً للأدب ؛ استدَعى عبدَ المهيمن من سبتة فقلَّده كتابتَه وعلاَمتَه سنة 712 ، وهذه العلامةُ هي بِمَثَابَةِ الطُّغْراء تُوَضعُ اسفَل مكتوبات السلطان ، وانما يتولاها رئيسُ الكُتَّاب وربما وضعَها السلطانُ بيده . فلما خرج الأمير أبو علي على ابيه تحيَّز عبدُ المهيمن إلى أخيه الامير أبي الحسن . فلما صُولح أبو عليّ على النزول عن العاصمة والخروج الى سِجِلماسَة وكتب شروطه على السلطان ، كان مِن جُملتها كوْنُ عبد المهيمن معَه ، وأمضى السلطانُ ذلك . فأنِفَ

أبو الحسن منها وأقسم ليقتُلَنَّه إنْ فعَل . فرفع عبدُ المهيمن أمرَه إلى السلطان فأمرَهُ باعتزالها معاً والرجوع إلى خدمته . وفي ذلك ما يُؤذِنُ برفعة قدره وعلو شأنه حيث تنافس فيه الأمراءُ الثلاثةُ وهو مِصْداقُ قول ابن الخطيب فيما مضى « تنافست فيه همم الملوك الأخاير »

واستمر في خدمة السلطان أبي سعيد وعَظم أمرُه واختصّه منْديلٌ الكِنَاني كبيرُ الدولة وزعيمُ الخاصّة وأنكحه ابنته ، ولما نُكِبَ مَندِيل استغنى عنه السلطانُ مدةً ثم أعاده الى حاله من الكتابة والعَلامة . ولما تُوفي أبو سعيد وتولى ابنُه ابو الحسن زاد في تقريبه وكان يُجِلُّه كثيراً وسار معه في حركته الى افريقية سنة 748 ولكنه لم يحضر واقعةَ القيروان لِما كان به من عِلَّة النِّقْرِس ، فلما وصل خبرُ الهزيمة وكانت الهَيْعَة بتونس تحيّزَ أولياءُ السلطان مع حَرَمِه الى القَصَبَة وانتبذ عبدُ المهيمن عنهم إلى المدينة مُتوارياً في بيت صديقه والدِ ابنِ خلدون ، والمؤرخُ العظيمُ يومئذٍ غلامٌ ابنُ 16 سنة . فلما انجلَت تلك الغَيابَةُ ورجع السلطانُ اعرض عن عبدِ المهيمن لِما كان من انخذاله عن أهله ، وجعل العلاَمة لابْن أبي مَدْيَن وكانت من قبل مقْصورةً على هذا البيت ، وأقام عبدُ المهيمن مُعطّلاً من العَمل شهراً ثم افتقد السلطان مكانه وردّه إلى ما كان عليه . ذكر القاضي أبو الحسن النُّباهِي في كتاب المَرْقبة العُلْيا أنه سُمِعَ ينشد بتونس أيام إعراض السلطان عنه ، وقد مرّ به قومٌ من أعيان جند فاس :

يأيها النـــاس سيروا إنَّ قَصْرَكُمُ
أَن تُصبِحُوا ذاتَ يوم لا تَسِيرُونا
حُثُّوا المَطِيَّ وأَرخُوا من أَزِمَّتِها
قبلَ المات وقَضُّوا ما تُقَضُّونا
كنَّــــا أُناساً كما كُنتُم فغيَّرَنَا
دهرٌ ، فأنتُم كما كنا تكُونُونا

قال : « وهذه الأبيات أَوَّلُ شعر قيل في العرب على ما نقله ابنُ اسحاق » وانشادُ المترجم لها في ذلك الظرف الخاصّ دليل على شدة تأثُره من تغيُّر السلطان عليه وتأخيره عن منصبه ، فيا عجباً لهذه الولاية، كيف تتَحكم في ذَوي الأقدار، وتَستَزِلُّ عظماء الأخطار، وصدَق رسولُ الله ﷺ حين قال : نِعمَت المُرضعَة وبِيسَت الفاطِمة !..

وحلَّ عبدُ المهيمن بتونس كغيره من أعلام المغرب الذين صَحِبوا السلطان مَحلَّ إجلال وإعظام كما يدلُّ قولُ أبي القاسم الرَّحَويّ شاعِرها فيهم من قصيدة :

هُمُ القومُ كلُّ القوم أَمَّا حُلُومُهم فأرسَخُ من طَوْدَيْ ثَبِيرٍ وثَهْلان
فلا طيشَ يعلُوهم وأَمَّا علُومهم فأَعلامُها تَهديك من غير نِيران

ومنها في ذكر عبد المهيمن :

وهامَتْ على عبد المهيمن تُونُسٌ
وقد ظَفِرَتْ منه بوصلٍ وقُرْبان
ومـــا عَلِقَتْ مني الضمائرُ غيرَه
وإنْ هَوِيتْ كلاًّ بِحُبِّ ابنِ رِضْوان

ويعني بابن رضوان أبا القاسم عبدالله بنَ يوسف بنِ رضوان المالَقي الكاتبَ الرئيس لانه رفع إليه هذه القصيدة يرجو منـــه أن يذكره لشيخه عبد المهيمن في ايصال مدحه للسلطان . ومن مدح الرَّحَوِيّ لعبد المهيمن ايضاً مِن قصيدة طويلة :

لَهِيَ النفسُ باكتساب وسعي وهُوَ العُمْرُ في انتهاب وَفِيّ
وأرى الناسَ بين ساعٍ لرشد يتوخّى الُهدى وساعٍ لِغَيِّ
وأرى العِلمَ للبرية زَيْناً فتزَيَّنْ مـــنه بأحسن زِيِّ
وأرى الفضلَ قد تجمع كُلاّ في ابن عبد المهيمن [1] الحضرميِّ

(1) سبق ان قومه كانوا يعرفون في سبتة ببني عبد المهيمن .

ثم لم يلبث عبد المهيمن أن توفي بتونس في ذلك الطاعون الجارف ثاني عشر شوال عام 749 وكانت جنازتُه حافِلةً رحمه الله .

ومما يتصل بأمر ولايته ويدل على علو همته أن السلطان أبا الحسن المَرينيّ سبَّه بمجلس كتّابه ذاتَ يوم فأخذ عبدُ المهيمن القلمَ وكسَره وقال « هذا هو الجامِعُ بيني وبينك » ثم إنّ السلطان نَدِم وأفضلَ عليه وخَجِلَ مما صدر منه .

وحُكِيَ ان القاضي المَليليّ وعبدَ المهيمن حضرا مجلس السلطان مرةً فجرى ذكرُ الفقيه ابن عبد الرزّاق فقال المَليليُّ جمعَ من الفنون كذا ، حتى وضع يده على عبد المهيمن وقال مُخاطِباً للسلطان : ويكتُب لك احسنَ من ذا . فوضَع عبدُ المهيمن يدَه على المليلي وقال : نعم يا مولاي ويَقضِي لك أحسنَ من ذا ! وفيه من سرعة الجواب وحُسن البديهة ما لا يخفى . ونَظِيرُه ما حُكِيَ من انه ذكَر يوماً بني العزَفي فأثنى عليهم فقال له أحدُ الحسَيْنيِّين مُنكِّتاً وكان بينهم شيءٌ « إنّهم كانوا يُحِبّون أهلَ البيت فكيف حُبُّك انتَ لهم ؟ » فقال « أُحِبُّهم حبّ التشرُّع لا حب التشيُّع » ويظهر انه كان في خُلُقِه حِدّة ، ويُشيرُ ابنُ الخطيب إلى شيء من ذلك حين يقول : « يغلِبُ عليه ضجَرٌ يكاد يُخِلُّ به ! »

وكان ينطق بالكلام مُعرَباً مما يدل على تضلُّعِه من العربية حتى قال فيه أبو حيان :

ليس في الغَرْب عالِمٌ مِثْلُ عبـد المهيمنِ
نحنُ في العلم إسْوةٌ أنا مِنْه وهُو مِنِي (١)

وناهِيكَ بها من أبي حيان عـلى علو مقامه في اللغة والنحو . وتَشكُّكُ المقريّ في النفح في نسبة البيتين لأبي حيان لأن مروره بالمغرب كان قبل ظهور عبد المهيمن لا يَصِح ، فليس بلازم ان يكون لَقِيَه لِيَمْدَحه بل يجوز ان يكون بلغه خَبَرُه وعلُوُّ كعبه في العلوم وخصوصاً العربية التي هي بضاعةُ أَبِي حيان ، فاذا اضفتَ إلى ذلك أن عبد المهيمن رُبّما كان استجازه فأجازه كما سبق القول ، لَمْ يبعُد كونُ أبي حيـان مدَحَه بالبيتين السابقين من باب التنزّل والاعتراف بالفضل لأهله . لا سيما ورَاوِيهما ثِقةٌ ، وهو العلامةُ ابنُ غازي ، ذكرهُما في حاشيته على الالفية .

ومن فوائده اللغوية أنه كان يُنكِرُ إضافةَ الحوْل الى الله عز وجل فلا يُجيزُ ان يقال بحول الله وقُوّته ، قال : لأنه لم يرِدْ إطلاقُه . والمعنى

---

(١) هو بضم الهاء واسكان الواو لغة قال عبيد :
وركضك لولا هو لقيت الذي لقوا
ومني بتخفيف النون على حد قول الشاعر :
ايها السائل عنهم وعني لست من قيس ولا قيس مني
ولا غرو ان يرتكب ابو حيان غريب اللغة فان الرجل نحوي افنى عمره في دراسة هذه الشواهد .

يقتضِي امتناعَه لان الحوْل كالحِيلة أو قريب منها . ورُدّ بوُرُوده في السُنَّة فلا مَنْع . ومنها أنه سُئل عن قوله تعالى « وهو الذي خلَق الليلَ والنهارَ والشمسَ والقمرَ ، كُلٌ في فَلَكٍ يَسْبَحُون » لِمَ عادَ ضميرُ مَن يعقِلُ الى ما لا يعقل ؟ فأجاب بأن الشيء المُعَظَّم عند العرب تُعامِلُه معاملةَ العاقل وان لم يكن عاقلاً لِعِظَمِه عندهم . وكان جوابُ غيره انه قال : لما اشترك مع مَن يعقل في السّباحة وهي العَوْم عُومِلَ لذلك مُعاملتَه . وبَحَثَ فيه المقريُّ الجدُّ بان السباحة لِمَا لا يعقل كالحوت وانما لِمن يعقِلُ العَوْمُ لا السباحة . وايضاً فإلحاقُه بما العومُ له لازمٌ كالحوت أولى من الحاقه بما هو غيرُ لازم له. ثم اجاب بأنه لمـّا عُومِلَت في غير هذا الموضع معاملةَ من يعقل في نحو قوله (والشمسَ والقمَر رأيتُهم لي ساجدِين) لِصدُور أفعال العقلاء عنها أُجرِيَ عليها هنا ذلك الحكم للأنس به في موضعه . ولا يخفى أن جواب عبد المهيمن هو الطبيعي والمعقول .

وقد رأيتَ أن غالب ما يُوَصفُ به الرجل هو الحديثُ والعرَبية فأما الحديثُ فيكفي ان مَشْيَخَتَه كانت تحتوي عـلى ألف شيخ ولكنها ضاعت وضاع بها علم كثير – كما يقول ابنُ القاضي – ومن هذا الباب اعني اهتمامَه بالرواية ولقاءِ المشائخ ، أنه كان السبب الحامل للامام ابن رُشَيْد على جمع رحلته الشهيرة العامرة بالفوائد الحديثية والأسانيد . وقد نوّهَ ابنُ رُشَيْد نفسُه بذلك وذكرَ مُقابلتَه لهـا

معه ، واعتناءَه باكتتابها لنفسه واكتسابها ، وتحمُّله لها عنه ومعرفتَه لفضلها حتى قال : « لولا عزمُه عليَّ في تخليصها مـــا خلصتها ، ولا أخرجتها ولا أظهرتها ، لعدم الراغب ، وقلة الطالب » وممـــا جاء في ختامها بخط المُترَجم في مخطوطة الاسكوريال : « بلغت قراءةً بجميعها على المُصنِّف أبقى الله حياته ونقلاً ومعارضةً معه بأصله هذا في يوم الاربعاء مُنتصف جمادى الأخرى عام عشرين وسبعمائة . وكتب عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد الحضرمي السبتي بمدينة فاس[1] حرسها الله تعالى حامداً الله ومصلياً على نبيه محمد المصطفى ومسلماً تسليماً كثيراً وخطه مغربي جميل جداً كما وَصَفُوه .

وأما العربيةُ فاطبق مُترجِمُوه على طول باعِه فيها ، وإليك عبارة لابنِ الاحمر في نَثيرِ الجُمَان بشأن معرفته لكتاب سيبويه : « واما كتاب سيبويه فكان بمسائله عارِفاً ، وعلى إقرائه بطول عمره مُداوما وعاكِفاً ، لم يكن له في المعرفة به قَرين ، ولقد تصدَّر لاقرائه وهو ابن عَشْر سنين » . ومما يتعلق بهذا الموضوع مـــا ذكره نفح الطيب في ترجمة جدِّه الامام المقري ، من فوائده ونصه : « وتوفي الشيخُ ابنُ مالك سنةَ اثنتين وسبعين وستمائة ، وفيها وُلِد شيخُنا عبدُ المهيمن الحضرمي

---

(1) ذكر ابن القاضي في الجذوة ان سكنى المترجم بفاس كانت بزقاق حجامة وزاد انها دار ابن ماواس في زمنه .

فقيل مات فيها إمامُ نحو وَوُلِد فيها إمامُ نحو » وهذه الفائدةُ ان صحَّت من حيث دَلالتُها على ان المُترَجم إمامُ نحو، ما في ذلك شك، فانها غيرُ صحيحة من ناحية التاريخ، لأن عبد المهيمن ولد كما سبق القول عام 676 لا عام 672 وصاحبُ النفح نفسُه ذكَر ذلك في ترجمته. وقد اشتبه الأمر في هذه القضية على المقَّري الجدّ، لأن الذي قِيلت فيه تلك الكلمةُ هو ابنُ آجرُّوم النحويُّ المشهور لا عبد المهيمن، وهو الذي وُلد في سنة 72 التي توفي فيها ابنُ مالك فقيل مات نحويٌّ وَوُلِد نحويٌّ.

ويقول ابنُ الاحمر بعد العبارة السابقة عنه: « وقد دوَّن الكثير من العلوم وصنَّف، وقرَّط مسامعَ الفهوم وشنَّف ونحن لم نقف على أنه كتب شيئاً غير مشيخته الحافلة التي ضاعت في أيام حياته، وإنْ عُرفَ بأنه كان متصلَ الاجتهاد والتقييد، لا يفتُر له قلم إلى أن مضى لسبيله كما جاء في الاحاطة. وعلى كل حال فباعتبار انه كتب للرئيس أبي طالب العزَفي بسبتة، ولبعض ملوك بني الاحمر بغرناطة، ثم لأبي سعيد المَريني ولولدِه أبي الحسن، لا بد ان يكون له نتاجٌ ادبيٌّ ضخم وخصوصاً في النثر، ومع ذلك فليس بيدنا شيء كثير من آثاره الادبية وانما هي بعض نُتَفٍ وقصائدَ لا تكفي في الحكم على انتاجه الأدبي ومعرفة مقامه بين الادباء وان شوَّقت

الى البحث عما ضاع منها وَشفَّتْ عمّا وراءَهـا من نفْس حسّاسَةٍ وقريحةٍ صَنَاع ، فمن ذلك قولـه في السَّرَاوَة والتأبّي :

أبتْ هِمّتي أن يراني امرُؤٌ على الدهر يوماً له ذا خُضُوع
وما ذَاكَ إلّا لِأنّي اتّقَيْتُ بعِزِّ القناعة ذُلَّ الخُشُوع

ومن قوله في غريب التشبيه :

لقد راقني مَرْأى سِجِلْمَاسَةَ الذي
يُقِرُّ له في حسنه كلُّ مُنْصِفِ
كأنَّ رؤوس النخل في عَرَصَاتِهَا
فَواتِحُ سُورَاتٍ بآخِرِ مُصحَفِ

قال في نفح الطيب : « وهذا من التشبيه العقيم الذي لم يُسبَقْ إليه فيما أظن . وكان سبب قوله ذلك ان السلطان امير المسلمين أبا الحسن المريني لما تحرّك لقتال اخيه السلطان أبي علي بسجلماسة وَظفِرَ به استمطر أنواءَ افكار الكُتّاب وغيرهم في تشبيه النخل فقال عبدُ المهيمن مـــا مرّ فلم يتركْ مقالاً لقائل » ومن قوله في رقة النسيب ، والتشوق إلى الحبيب :

نفسي الفِداءُ لعهدٍ كنت آلفُهُ
وطِيبِ عَيْشٍ تَقَضَّى ، كُله كَرَمُ

وجِيرةٍ كان لي أُنسٌ بوصلِهِمُ
والأُنسُ أفضَلُ ما في الوصل يُغْتَنَمُ

كانوا نَعِيمَ فؤادي والحَياةَ له
فالآنَ كلُّ وُجودٍ بعدهم عدَمُ

بانُوا فعادَ نهارِي كلُّه ظُلَماً
وكان قُربُهُمُ تُمحَى به الظُلَمُ

والعينُ مِنِّيَ لَا تَرْقَا مدامِعُها
كأَنَّها سُحُبٌ تَهْمِي وتنسَجِمُ

تبكي عُهودَ وصال منهمُ سلَفتْ
كأَنَّما هِيَ في إنسانِها حُلُمُ

لَئن ضحكتُ سروراً بالوصال لقد
بَكَيْتُ حزناً عليهم والدموعُ دَمُ

هم علَّمُوني البكا ما كنتُ أعرِفُه
يا لَيْتَهُمْ علَّمُوني كيف أبتَسِمُ
واسترْضعُوني لِبَانَ الوصل في صِغَرِي
حتى اذا عَلِقَتْ روحي بِهِمْ فَطِمُوا

ومن قوله يمدح الوزير الشهير أبا عبد الله بن الحكيم الرُّنْدي :

تراءى سُحَيْراً والنسيمُ عليل
وللنجم طَرف بالصباح كليل
وللفجر نهرٌ خاضه الليل فاعتلَتْ
شَوَى أَدْهَمِ الظلماءِ منه حُجُول
بُرَيْقٌ بأعلى الرَّقْمَتَيْن كأنه
طلائعُ شُهْبٍ في السماء تجول
فمزَّق ساجي الليل منه شَرارَةٌ
وخرَّقَ سِتْرَ الغيم منه نُصول

تبسَّم ثَغرُ الروض عند ابتسامه
وفاضت عيونٌ للغـــمام هُمُول
ومالت غصونُ الْبَانِ نشوَى كأنها
يُـدارُ عليهـا من صَبـاه شَمُول
وغنَّت على تلـك الغصون حمـائمٌ
لَهُنَّ حفيفٌ دونهـا وهَـدِيـل
إذا سجعَت في لحنهـا ثم قَرْقَرت
يطيـح خفيفٌ دونهـا وثقيـل
سقَى اللهُ ربْعـاً لا يزال يَشُوقني
إليـه رسومٌ دُونَـهُ وطُـلول
وجـادَ رُبـاه كلمـا ذَرَّ شارقٌ
مـن الوَدْق هَتَّانٌ أَجَشُّ هَطول
ومـا لِيَ أستسقي الغـمام ومَـدمعي
سَفوح عـلى تلك العِرَاصِ هَمُول

وعـاذِلَةٍ باتَتْ تـلوم عـلى السُّرى
وتُـكْثِرُ مـن تَعْـذَالِها وتُطيـل
تَقُولُ إلَى كَمْ ذَا ؟ فِرَاقٌ وغُرْبَةٌ
ونَأْيٌ على ما خَيَّلَتْ ورَحِيلُ
ذَرِينِيَ أسعَى للتي تُكْسِبُ العُلا
سَناءً وتُبقِي الذكر وهو جميل
فَإمَّـا تَرَيْنِي من مُمَارسة الهوى
نَحِيلاً فَحَدُّ المَشْرَفِيِّ نحيل
وَفَوْقَ أَنَابِيب اليَرَاعَةِ صُفْرة
تَزِينُ وفي قَدِّ القناة ذُبول
ولولا السُّرى لم يُجْتَلَ البدرُ كامِلاً
ولا بَاتَ منه للسُّعُود نزيل
ولولا اغترابُ المرء في طلب العلا
لَمَا كان نحوَ المجد منه وُصول

ولولا نوالُ ابنِ الحكيم مُحمدٍ
لأصبح رَبْعُ المجد وهو مَحِيل
وزيرٌ سما فوق السِّماكِ جلالةً
وليس له إلا النُّجومَ قَبِيل
مِن القوم أمَّا في النَّدِيِّ فإنَّهم
هِضَابٌ وأَمَّا في النَّدَى فسُيُول
حَوَوْا شَرَفَ العلياءِ إرْثاً وَمَكْسَباً
وطابت فُروع منهمُ وأُصول
وما جَوْنَةٌ هطَّالَةٌ ذاتُ هَيْدَبٍ
مَرَتْهَا شَمَالٌ مُرْجِفٌ وَقَبُول
لها زَجَلٌ من رَعْدِهَا ولوامع
من البرق عنها للعيون كُلُول
كما هَدَرَتْ وَسْطَ القِلاص وأَرسلت
شَقَاشِقَهَا عند الهِيَاج فُحُول

بأَجودَ من كفِّ الوزير محمد
إذا ما توالت للسِّنين مُحُول

ولا روضةٌ بالحسن طيِّبةُ الشَّذا
يَنِمُّ عليها إذْخِرٌ وجَلِيل

وقد أُذْكِيتْ للزَّهر فيها مَجَامِرٌ
تَعَطَّر منها للنسيم ذُيول

وفي مُقَل النُّوار للطَّلِّ عَبْرَة
تُرددها اجفانُهَا وتُحِيل

بأطيبَ من أخلاقه الغُرِّ كلما
تفاقَم خطبٌ للزمان يهول

حويتَ أبا عبد الإله مَناقِباً
تَفُوت يداً مَن رامها وتَطول

فغَرناطةٌ مصرٌ وأَنتَ خَصِيبُها
ونائِلُ يُمناكَ الكريمة نِيل

فِدَاكَ رجالٌ حَاولوا دَرَكَ العُلا
بِبُخل وهل نَالَ العَلاءَ بخيل
تَخَيَّرَكَ المولى وَزيراً وناصحا
فكان له مِمَّا أراد حُصول
والقَى مقَاديرَ الأُمور مُفَوَّضاً
إليك فلم يَعدَم يمينَك سُول
وقام بحفظ الملك منك مُوَيَّدٌ
نَهُوضٌ بما أَعْيى سواكَ كَفِيل
وَسَاسَ الرعايا منك أَشْوَسُ بَاسِلٌ
مُبِيدُ العِدا ، للمُعتَفِين مُنيل
وأبلجُ وقَّادُ الجَبِين كأَنَّما
على وَجْنَتَيْهِ للنُّضار مَسِيل
تَهِيمُ به العَلْيَاءُ حتى كأنها
بُثَيْنَتُهُ في الحب وهو جَمِيل

له عَزَمَاتٌ لو أُعِيرَ مَضَاءَهَا
حُسَامٌ لما نَالت ظُباه فُلُول
سَرَى ذِكْرُه في الخافِقَيْن فأصبحت
إليه قَلُوبُ العالَمِين تميل
وأعدَى قَرِيضِي جودُهُ وثَنَاؤُهُ
فأَصبَح في أَقصى البلاد يَجُول
اليكَ أَيا فَخْر الوزارة أَرقَلَتْ
بِرَحْلِي هَوْجَاءُ النَّجاء ذَلُول
فَلَيْتُ إلى لُقياك ناصيةَ الفَلا
بأَيدي ركابٍ سيرُهنَّ ذَمِيل
تُسَدِّدُنِي سهماً لكل ثَنِيَّةٍ
ضَوَامِرُ أَشْبَاهُ القِسِيِّ نُحُول
وقد لفظتني الارضُ حتى رمت الى
ذَرَاكَ بِرَحلي هوجَلٌ وهَجُول

فقيَّدتُ أفراسِي بـــه وركائبي
ولذَّ مُقَامٌ ي به وحُلُول

وقد كنتُ ذا نفسٍ عَزُوفٍ وهمَّة
عليها لأَحداث الزمان ذُحول

وتَهْوَى العُلا حظي وتُغْرِي بضده
لذاك اعترته رِقَّةٌ ونُحُول

وتأبَى لِيَ الأَيامُ إلَّا إدالةً
فَصَوْنَكَ لِي إنَّ الزمان مُدِيل

فكلٌّ خضوع في جنابك عِزَّةٌ
وكل اعتزازٍ قد عَداك خُمُول

وله يَحِنُّ إلى بلده سبتة قبل التخلص لمدح ابن الحكيم :

سقَى ثَرى سبتةَ بين البلاد
وعَهْدَهَا المَحمودَ ، صَوْبُ العِهاد

وجادَ مُنْهَلُّ الحيـــا رَبْعَها

بِوَبْلِهِ تِلك الرُّبى والوِهاد

فكم لَنا في طُورِ سِينائِها

مِنْ رائحٍ للأُنسِ في إثْرِ غاد

وعَيْنُها البيضاء كم ليلةٍ

بيضاء فيها قد خلَتْ لَوْ تُعاد

وبالمنـــارةِ التي نُورُها

لكل من ضَلَّ دليلٌ وهاد

نَرُوحُ منهـــا مِثلَما نغتدي

للأُنس ، والأَفراحُ ذاتُ ازدياد

في فِتْيَةٍ مِثلِ نُجُوم الدُّجى

ما مِنْهُمْ إلا كريمٌ جَواد

إرتَشَفُوا كأْسَ الصَّفَا بينهم
وارتضَعُوا أَخْلَافَ مَحْضِ الوداد

وَيَا لِأَيَّام بِيَنْيَلُوشٍ [1]
لقد عدَتْ عنها صُرُوف العَواد

أدركتُ من لُبْنَى بها كلَّما
لُبانَةٍ ، وساعَدَتْنِي سُعَاد

ونلتُ من لذَّاتِ دَهْرِي الذي
قد شِئْتُهُ ، وللأماني انْقِيَاد

منازلٌ ما إن على مُبْدِلٍ
هاءَ ، مكانَ اللَّام فيها انْتِقَاد

سلَوْتُهَا مذ ضَمَّنِي بعدَها
نادِي الوزير ابنِ الحكيم الجَواد

---

(1) بينيلوش ضاحية بسبتة بديعة الحسن .

وله في مدح صديقه والد ابن خلدون وكان اقام عنده بتونس مُختفياً نحواً من ثلاثة اشهر :

جزى الله ابنَ خلدون حياةً
مُنَعَّمَةً وخُلْداً في الجِنان [1]

فكَمْ وَالَى وأوْلَى من جميل
وَبِرٍّ بالفِعَالِ وباللسان

وراعى (الحَضْرَمِيَّةَ) في الذي قد
جَنَى من وُدِّه وَرْدَ الجِنان [1]

أبا بكر ثناءك طُولَ دهري
أُردد باللسان وبالَجنان

وعَنْ عَلياكَ ما امتدَّت حياتي
أُكافح باللسان وبالسِّنان

(1) كلتاهما جمع جنة ولكنه اراد بالأولى دار الخلد وبالثانية الرياض .

فمِنك أفدتُ خِلاًّ لستُ دهري
أرَى عن حُبّه أثْنِي عِناني

وله في التورية باسماءِ الكتب وهو من اكثر ما رأيتُ في معنـاه انسجاماً :

مَن اغتدى (مُوطّئاً) أكنافَه
صحَّ له (التمهيدُ) في أحواله
وقابَلَ (استِذْكارَه) (بالُمنتقَى)
مِنْ رَأْيه (المختار) من أعماله
وَأَضحَتِ (المَسالِكُ الُحسْنَى) له
تُدْنِي (تَقَصّياً) خُطَى إقباله
وسار من (مشَارِق الأَنوار) في
أَدنى (المَدَارِك) إلى آماله

وله في المُشط والنَّشَفة [1] من آلات الحمّام :

إني حسدتُ المُشْطَ والنَّشَفَ اللّذا

لَهُما مَزايا القُرْب دُوني مُخْلَصَهْ

فَأَنامِلٌ مِنْ ذَا تُبَاشِرُ صُدْغَه

ومَرَاشِفٌ مِن ذَا تُقَبِّلُ أَخْمَصَه

والى هنا نكون قد الَممْنا ببعض أدبه المنظوم ، وأما المنثور ، وهو الذي كان غالب بضاعته بحكم توليه لكتابة الإنشاء حِقْبةً طويلة من عمره ، فانا لم نذكر منه شيئاً . وذلك لأنا لم نظفر منه بقليل ولا كثير . وابن الخطيب في مخطوطة الإحاطة التي وقفنا عليها ترجم لنثره وترك محل الترجمة بياضاً فارغا .

وقد أوقفنا صديقنا الاستاذ البحاثة السيد محمد المنوني على شِبْه مقامةٍ للمترَجم في نحو عشر صفحات ، أنشأها على لسان عَشْر جَوار ، بيضاء وسمراء ، وطويلة وقصيرة ، وسمينة ونحيفة ، وحضرية بدوية ، وشابة وعجوز ، تفاخر كلٌّ واحدة منهن نظيرتها بأن الحسن هـــو

(1) النشفة والجمع نشف : حجر ذو تحاريب ينقي به الوسخ في الحمام .

وصفها والجمال هو حِليَتُها ؛ في نثر مسجوع مُفتتَح بالحمد والصلاة ومُخلّل بقِطَع شعريّة تُناسِبُ المقام . وهي مقامة أدبية طريفة إلا أن تحريف النسّاخ شوّه جمالها ، فضلاً عن أنها كما جاء في صدرها مختصر المقامة ، وليست المقامة ذاتها ، فلا شك أن الذي اختصرها هلهَلَ نسْجَها ولم يُحْكِمْ حَبْكَها .

وفكرةُ المفاخرة من هذا النوع بين الجواري ، موجودةٌ في قصة من قِصَص الف ليلة وليلة معروفة ، الا أنها انما تقع بين سِتٍّ جوار فقط ، بيضاء وسمراء ، وسمينة وهزيلة ، وصفراء وسوداء . وليس هناك تماثلٌ في العَرْض ولا في التصميم بين مقامة صاحبنا وقصة الف ليلة وليلة . مما يدل على أنه ليس هناك استيحاءٌ مطلقاً من احد الجانبين ، ولعلها فكرة شعبية كانت شائعةً في القَصَص العامّي فاستوحى منها كاتبُنا وقاصُّ الف ليلة وليلة .

وعلى كل حال فقد اختلف العَمَلان الأدبيّان في الكمّ والكَيْف وان اتّحدا في الفِكْرة ، فعَددُ الجواري في المقامة عشرٌ وفي القصّة ستٌّ ، ومع ذلك فهما لا يتّفقان بالكيف إلا في أربع من الجواري ، ثم لا يتلاقيان بعدُ لا في تقديم ولا في توصيف، باستثناء تعقيب مفاخرة كل جارية بقِطْعة من الشعر الذي يُناسب تفاخرها . وتنتهي قصة البَصري

صاحبِ الجواري الست ببيعه لجواريه للخليفة المأمون ، ثم مَنّهِ عليه بردهن اليه في الآخر. أما مقامة عبد المهيمن فتنتهي بحكم العجوز بين بقية الجواري ، بما يُرضي غُرورَ كل واحدة منهن ، ما عدا القصيرة التي أوصتْها بالتأدب مع مُناظِرتِها الطويلة ، ومـــا عداها هي التي أنصفتْ واعترفتْ للشابَّة بفضلها عليها وحُجّتِها القائمةِ أمام دعواها الباطلة . وبذلك انسحبتْ من صفّ الجواري وإن جمعَهـا مَعَهنّ هذا الاسم أولاً على سبيل التغليب .

وفي المقامة حركاتٌ تمثيلية تُنبىءُ عن ذوْق فني لدى الكاتب ، فمثلاً عند تقديم الجارية البيضاء يقول : « واذا بجارية يغلب ضياءُ وجهها ضياءَ الشمس ، فوقفت بين الصفوف وسلمت ببنانها الخَمْس » يعني انها أشارت للسلام بيدها فقط ، بينما هو يقول في تقديم السَّمْراء : « ثم حطّت اللثام عن وجه يُشَهّي الالتِثَام ، وابلغت في السلام ، وأقبلت تواضُعاً على رُؤوس الأقدَام » فوصف تسليمها بما يناسب شعورَها بالغَضَاضَة . وفي تقديم الجارية الطويلة يقول : « واذا بجارية تتخطّى الرّقاب ، بعد أن حطّت النّقاب » فجعلها تتخطى الرقاب لقَامَتِها الفارعة ، على حين أنه لما قدم القصيرة قال : « واذا بالقصيرة قد اقبلت تجرُّ اذيالَها... فولولت وصاحت ... ثم قعدت على مكان ، وتكلمت بأفصح لسان » فجَعَلها تجرُّ اذيالها بما يناسب حالة قِصرها ، وتُوَلْوِلُ وتَصيح لِتُثِير الانتباه اليها ، شأنُ قِصَارِ القَامة في

اصطناع الاسباب التي تلفِتُ اليهم الانظار ، فهـــذا يَضَعُ طربوشاً طويلاً على رأسه ، وهذه تلبَسُ حـــذاءً بكعب رفيع الخ . ثم ختم بهذه الحركة البـــارعة وهي جُلوسها على أعلى مكان لأجل أن يراها الحاضرون ولا تنغمِرَ بقِصَرِهـــا بين الجالسين من ذوي القُدود الكاملة . وفي تقديم العجوز يقول : « فلما اتمت الحضَريَّةُ هذه الابيات ، وقد أفصحت في البلاغة والغايات ، اذا بهَزَّةٍ عظيمةٍ في المَحْفل ، كاد يَرْجِعُ أعلاه منها أسْفَل ، فأتتْ عجوز قد اشتبكت مع صَبِيَّة ، وبينهما مُعاطَاةٌ ومُجادَلَة قوية ، والصبيةُ تنادي وتقول : كَثُرَ الحمق وقلَّت العُقول ، يا قومُ اعدِلوا بيني وبين هذه العجوز ، بكلام يتعقَّلُ ويجُوز ، فقالت العجوز : يا هــذه الزَّمي الوَقار ، وكُفِّي النَّقار ، فأنا أفصحُ منك وأعظم ، وأسبَقُ وأقدم » فأتى بمنظر صاخِب ، كلُّه حركة واستنكار بالنسبة للنظَّارة وللشابَّة والعجوز التي تطامنَت في الأخير لتستأنف تظاهُرَها فيما بعدُ بكلام يدُور كلُّه على ما لها من الدَّهاء والحِيلة في تأليف الرجال وتسْخيرهم ! ولو كان هذا العَرْضُ على مَسْرح حديث لما زاد حَيَويَّة ونشاطاً على ما قدَّمه به المُترجم .

ونأسَفُ لأنَّ ضِيقَ المجال يمنعُنا من ايرادها هنا بجُمْلَتِها ، لو كانت صحيحةً ، فكيف مع تحريفها الفظيع الذي اشرنا إليه . ولكننا

نورِدُ منها بعض العبارات السّالمة من التحريف أو القابلة للتصحيح وهي وحدها تدل على ما لكاتبها المترجَم من روح فكاهية خفيفة . فمن ذلك تحميدٌ على لسان البيضاء : « الحمد لله الذي جعل البياضَ طِراز كل جمال ، وشرّف أهله بالحياء والكمال ، وأعطاهم عزة لا تبيد وصيَّر السُّمرَ لهم عَبيد » .

وهذه الأبياتُ على لسان السّمراء :

الحمدُ لله ليس التِّبرُ كالوَرِقِ
قد أحسنَ اللهُ في خَلْقِي وفي خُلُقي
فالجِسْمُ مني نُضَارٌ صِيغَ مَنْظَرُه
بمِسْكَةٍ فَغَدَا طِيباً لِمُنْتَشِق
يا من يُعَيِّرُنَا باللَّون إنَّ لكم
جهلاً يقودُ الى الطغيان والحَمَق
كم أسمرٍ قَلْبُه كافُورَةٌ وله
من السّعادة نجمٌ لاح في الأُفق

ومنه قولُ القصيرة للطويلة : « يا شقيقةَ الزّرافة ، الى كم تُطيلين هذه الخُرافة ، نحن اهــل المعاني الرّقاق ، وفِتْنَةُ العُشّاق ، وعلى منظرِنا طَلاوَة ، ورَوْنَقٌ وحَلاوَة ». وقولُ السمينة في النحيفة : « أين هذه المَسْلُولَةُ الصَّوْت الواقِفَةُ بين مَيْدَانِ الحياة وميدان المَوْت ، المقبوضَةُ اللّحْم ، التي حُرِّم عليهــا – كما حُرِّم على بني اسرائيل – الشّحْم »

وقولُ النحيفة في السمينة : « أَسَمِعْتُم مقالة هذه العَاهَة ، ومــا ظَهر منها من قِلّة النّزاهَة ، هذه التي تفتَح فمَها مثلَ التّمساح ، وتَبْلَعُ القَرْع وتُخرِجُها صِحَاح » ومن الشعر على لسان الحضرية:

ألا إنما الحُسْنُ حُسْنُ الحَضَر
علينا وفينا ومنــا ظَهر
فان كنتِ يا هذه نَجْمةً
بأعلى السماء فإنّي قَمر
بسِحْر الجُفُون وغُنْجِ العُيون
أَسُلُّ القلوب كَسَلّ الشّعَر

ومِنْ ليل شَعْرِي ظَلَامُ المَسا
ومن وَجْنَتِيَّ الصَّباحُ الأَغَرّ

ومن وصفه للعجوز : « وكانت العجوز مخضُوبَةَ البَنان ، مُسوّكة الفم وليس لها أسنان ، مَصْبوغةَ الحاجِب والسَّالِف ، تَندُب على ما فاتها في الزّمن السَّالِف » ومِن تحميدٍ على لسان الشابة : « الحمد لله الذي غَرَس رَيْحانةَ الشّباب ، في قلوب ذوي الالباب » ومن شعر على لسانها ايضاً :

روضُ الشباب تبدَّتْ فيه أربعةٌ
وَرْدٌ ، وَزَهْرٌ ، وَنِسْرِينٌ وَرَيْحَانُ
مَنْ قَالَ إنَّ زَمَانَ الشَّيْبِ يُشْبِهُه
عهدُ الشباب فذاك القولُ بُهْتَانُ

هذا ما استطعنا تقديمَه من آثار هذه الشخصية الفذة ، وهي آثار تتضاءل أمام معارفه الواسعة ، التي قضت عليها خدمة الدولة فلم يفضُل له من الوقت ما يُلتَمَسُ فيه ما لديه ، كما عَبَّر ابنُ الخطيب ، وهذا

في حياته ، فكيف وقد طوته المنون وعدت السنون على ما أسأره من أثارة علمية وأدبية قليلة فلم تبق منها الا أقلها .

وأنجب عبدُ المهيمن ابنه أبا سعيد ، كان عاليَ الهمة كآبائه : فلما بويع السلطان ابو عنان طلب منه ان يكون مرتسماً في جملة كتابه ، فامتنع وقال : لا أكون تحت حكم غيري ، يعني بذلك أن اباه كان رئيس الكتاب فلا يكون هو مرؤوساً لغيره .

وأنجب أبو سعيد هذا ابنه عبد المهيمن وكان صاحب القلم الأعلى كجده رحمة الله عليهم جميعاً .

ذكريات مشاهير رجال المغرب

في العلم والأدب والسياسة

سلسلة متلاحقة ظهر منها

الحلقة الاولى وتحتوي على :

١) عبد العزيز الفشتالي
٢) ابو القاسم الزياني
٣) محمد ابن ادريس
٤) محمد اكنسوس
٥) ابو جعفر بن عطية
٦) ابو العباس الجراوي
٧) ميمون الخطابي
٨) مالك بن المرحل
٩) عبد العزيز الملزوزي
١٠) الأمير سليان الموحد

والحلقة الثانية وتحتوي على :

١١) عثمان السلاجي
١٢) ابن غازي
١٣) ابن زاكور
١٤) ابن الطيب العلمي

تابع الحلقة الثانية :

١٥) ابن الوتان
١٦) ابن عبدون المكناسي
١٧) ابو بكر بن شبرين
١٨) ابن رشيد
١٩) ابو موسى الجزولي
٢٠) ابن آجروم

وظهر من الحلقة الثالثة الاجزاء التالية :

٢١) ابو القاسم الشريف
٢٢) ابن الحاج الفاسي
٢٣) احمد زروق
٢٤) الشريف الادريسي
٢٥) ابن بطوطة

ابُوالعَبّاسِ العَزَفي

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٢٢ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت: ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٦٠١ - ص.ب ١٥٦ - رمز بريد ١١٥١١

برقياً: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No: 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX: (202): 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦٠٥٦٣ - ٨١١٥٦٣ - ص.ب: ٨٣٣٠ / ١١

برقياً «دكتالبان»

TELEX: DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433



27

ابو العباس العزفي

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

دار الكتاب المصرى
القاهرة



ابو العبّاس العزفي

[العزفيون ونسبهم ، مكانتهم الاجتماعية ، ولايتهم بسبتة ، منزلة المترجم فيهم ، نشأته ، كفاياته ، دخوله غرناطة مغرّباً مع قومه ، وفاته وتحقيق فيها ، حيثيته الادبية ، نظرة في شعره ، صور من شعره]

بيت العزَفي كان من بُيوتات سبتة النبيلة ، وهم ينتسبُون الى لَخْم من العرب اليَمانيّة ، وقد ترأسوا بِسبتَةَ ، وتداولوا الحكم فيها بالاستقلال والتّبَع ، منذ استبدّ بها زعيمُهم الفقيه أبو القاسم جدّ المترجَم في مدة عمر المرتضَى ، الملكِ الذي قبل الآخر من ملوك الموحدين ، وبالضبط في سنة ٦٤٧ . ومن حُسْن حظ سبتة ولايةُ بني العزفي عليها في هذه الفترة التي كان المغرب فيها يَمُوج ويعِجّ بالأَهوال والأوْجال ، من جرّاءِ انتقال المُلْك من المُوَحِّدين الى المَرِينِيّين فبقيت بِمنْجىً من الفتنة وما يصحَبُها من اضطراب الأحوال إذ قام رؤساؤها الجُدُد بضبطها وتحصينها حتى انتظم أمرها واشتهر ذكرها . وكانت لهم أجفان بحِرِيّة لا تزال جائلةً في اليَمّ ، تحمي شواطيء البلاد من هجمَات العدو ، وهم معَ ذلك عاملون على تنشيط الحركة

العلمية والأدبية والأخذ بِضَبْعِها ، بما كان لهم من ميل صادق الى المعرفة ومشاركة طيّبة في فنونها .

ثم كان أنْ دخلوا في طاعة بني مرين ، لما استدَفَّ لهم مُلْكُ المغرب في أيام السلطان يعقوب المنصور المَرِيني . ولما انتقض ابنُ الأحمر على السلطان يوسف بن يعقوب وغدَر بأهل سبتة ، نقَلَ بني العزَفي إلى حضرته غَرْناطة . فبَقُوا بها الى ان استردَّ السلطان ابو الربيع سليمان سبته ، واستقام ما بينه وبين ابن الأحمر فاستأذنوه في الرجوع الى المغرب فأذِنَ لهم ، واستقرُّوا بفاس . ثم ردهم السلطان ابو سعيد عثمان الى سبتة وعقَد لأبي زكرياء يحيى بن أبي طالب منهم عليها ، وتُوفيَ أبو زكرياء ، فقام بالأمر بعده ابنُه محمد ، ولم يستقم له حال ، فأخَّره السلطان ابو سعيد ، وكان ذلك نهايةَ رياسة بني العزَفي بسبتة .

أمّا مُترجَمُنا فهو الشاعر البليغ ، أبو العباس احمدُ بنُ الرئيس أبي طالب عبدِ الله بنِ الرئيس أبي القاسم محمد بنِ أبي العباس أحمد ابن محمد بن أحمد بن محمد بن حُسَيْن بن علي بن محمد بن سليمان بن محمد الشهير بابْنِ أبي عزَفةَ [1] ، اللَّخْمِي السَّبْتي ، وإلى كُنْيَةِ هذا الجَدّ الأخير يرجعُ نسبهم الذي به يُعرَفون وهو العَزَفي .

---

(1) – تصحف في جزء الاحاطة المطبوع أولاً وثانياً الى عرفه بالراء ، فقوي الداعي الى التنبيه على صوابه .

وقد رأيتَ ان والده وجدّه كانا رئيسيْن على سبتة ، وكذلك أخوه أبو زكرياء ، اما هو فلا نعلم انه تبوّأ مقعد الرياسة بالرغم من وصف ابن الخطيب وغيره له بالرئيس، فلعله وصفُ تشريف فقط . وكان جده الأعلى أبو العباس من رِجالات سبتة عِلْماً ودِيناً وتقوى، وله الإمامة في الحديث ، وهو مُؤلّف كتاب « الدُّرّ المُنَظَّم في مولد النبي المُعَظَّم » الذي أكمله ولدُه الرئيس ابو القاسم .. ومعلوم ما كان للرؤساء العَزفيِّين بسبتة من الاعتناء بمولد الرسول ﷺ ، والاحتفالِ به ، حتى قيل إنهم أولُ من أحدث ذلك في المغرب . وفي مقدمة الكتاب المذكور ، يُشيرُ أبو العباس إلى سبب إحداثهم لذلك ، ويُقارِنُ بين احتفال المَسيحيِّين بميلاد عيسى عليه السلام ، وإهمالِ المسلمين لمولد نبيهم ﷺ .. وكان والدُ أبي العباس هذا ، الذي هو الجدُّ الثالث للمترجَم ، قاضياً فقيهاً مُحدِّثاً أيضاً ، فرِيَاستُهم الروحيّة بسبتة كانت وَطِيدة قبل رياستهم الزَّمَنِيَّة .

وللمُترَجم فضلاً عن أخيه الرئيس أبي ذكرياء ، أخٌ آخرُ عالِمٌ نبيه، هو ابو القاسم عبد الرحمن صاحبُ كتاب « الاشادَة بذكر المُشْتَهرين من المتأخّرين بالإجادة » وهو كتاب ألّفه للوزير ابْن الحَكيم الذي كان شديد الرعاية لهم أيامَ تغرُّبهم بِغرناطة ، وقد نقل منه المَقّري في « أزهار الرياض » ما يدل على انه كتاب مَشْحُونٌ بالفوائد وكذلك

ابن القاضي في « الجذوة » ولا شك أنه يُكَوِّنُ حلقةً عظيمةَ الأهمية بالنسبة الى التاريخ الأدبي في المغرب .

ومما ذُكر نعلم ان مترجمنا نشأ في بيت الحسَب والرياسة ، واسترضَع أفاويقَ النُبْل والكيَاسة ، فكان كما قال فيه ابنُ الخطيب : (فذّاً في الأدب ، طرفساً في الادراك ، مهذَّب الشمائل ، ذَلِقَ اللسان ، ممتِعَ المجالسة والمحاضرة ، حلوَ الفكاهة ، يرمِي في كل غرض بسهْم .) وليس هذا بكثير على رَجُلٍ دَرَج من مَهْد الأدب ، وَرُبي في حِجْره ، خصوصاً في ذلك العهد حيث كان الأدب من أهم أدوَات الرياسة ، وأعظم شروط الولاية ، وخصوصاً من خصوص في سبتَة الفيْحاء التي كانت حينذاك مَثابَةَ الكثير من أهل العلم والفضل على اختلاف طبقاتهم ، وتبايُن مناحِيهم .

وقال فيه أخوه أبو القاسم في كتابه « الاشادة » : « هو أخي ، الذي بإخائه أزْهَى وأنتَخِي ، وكَبيري المعتَمَدُ بإجلالي وتوقيري ، ولولا خوفي من أن يلزَمني ما لزِم مادحَ نفسه ؛ لأطنبتُ في وصف ما له من المحاسن التي فاق بها أبناء جِنْسه ، مع أنها لم تزَلْ على مَنَصَّة البيان مجلُوَّة ، وبألسِنَة الإبداع مَتْلُوَّة » وهذه التَّحْليَةُ على تواضعها كافيةٌ في الدّلالة على رفيع قدره وعظيم خطْرِه . كما انها تدل على إفادة أبي القاسم في إشادته وأنَّ كتابَه تحفةٌ فنّية بالغةُ القِيمة .

وقـــال ابنُ الخطيب عنه أيضاً : « حدثني الشيخ أبو زكرياء بن هُذَيْل . قال : حضرتُ بمجلس ذي الوزارتين أبي عبدالله بن الحَكيم وأبو العباس بدرُ هَالتِهِ ، وقُطْب جلالتِه ، فلم يُحَدِّثْ بشيء الاّ ركَضَ فيه ، وتكلّم بِملْءِ فيه ، ثم قُمْنا الى زبّارين[1] يصلحون شجرة عِنَب ، فقال لعريفهم : حقٌّ هذا أن يُقصَّر ويُطال هـذا ، ويُعمَل كذا ، فقال الوزير : يا ابا العباس ، مـا تركتَ لهؤلاء أيضاً حظاً من صناعتهم يستحقون به الأُجرة » . وفي هذه الحكاية شاهد آخر على عظيم خِبْرة الرجل وسَعة اطّلاعه .

ويظهر انه كان كبيرَ بني أبيه ، والمقـــدَّم عليهم في الكِفَايات، فهـا أنت ترى مجلسَه وقُرْبَه من ذي الوزارتين ابن الحكيم ، وزير محمد الثالث من ملوك بني الأحمر الذي غدَر بهم ، واغتصب بلادهم وقد كان هو الذي تولى مُخاطبَة ابن الأحمر عن قومه لما قدموا عليه في حاضرة ملكه غرناطة . قال في « اللمحة البدريّة » :

« وفي شوال من عام خمسة وسبعمائة ، قرَع الاسماعَ النبأ الغريب من تملكه – يعني محمد الثالث – لمدينة سبتة وحُصولِها في قبضة ملكه ، وانتزاعِها من يد رئيسها أبي طالب عبد الله بن الرئيس أبي القاسم بن أبي العباس العزفي، فاستولى عليها واستأصل ما كان لرؤسائها

(1) أي مشذبين ، فان الزّبر في لسان المغاربة بمعنى تشذيب الأشجار .

من الخزائن والذخائر ، ونقلَـهم ، وهم عِدّة الى حضرته ، فكان ذلك غـُرَّةَ المحرم من العام بعده [1] ودخلوا عليه ، وقد احتفَل الملِك ، واستركب في الأبهة الجُنْد ، فلـثـَمُوا أطرافـَه ، واستعطفتْه شعراؤهم بالمنظوم من القول، وخطباؤهم بالمنثور، فأنشد يومئذ الرئيسُ أبو العباس أخوهم :

لَكُم حِمىً في فؤادِي غيرُ مَقْرُوب
فضَـائعٌ في هـواكم كلُّ تأنيب
إنْ كانـ ما ساءَنِي مِمَّا يَسُرُّكُمُ
فعَذِّبُوا فقـــدِ استعذَبتُ تعذِيبي

قصيدةً شهيرة ، فطـَمْأنَ رَوْعهَم وسكـَّن جأشـَهم ، وأسكنهم في جِوَاره، واجرى عليهم الأرزاق الهِلالية [2] وتفقدَهمْ في الفـُصول الى ان كان من أمرهم ما هو معلوم . »

(1) – كان الغدر بالعزفيين في شوال ٧٠٥ على يد أمير مالقة فرج بن اسمعيل ابن الأحمر ولد عم ملك غرناطة، وقد وقع نقلهم أولاً الى مالقة، ثم منها الى الحضرة حيث وصلوا اليها في محرم ٧٠٦ .

(2) – يعني المرتبات الشهرية .

فانظر الى ابن الخطيب كيف لم يُشِرْ إلا الى ما أنشده أبو العبّاس ولم يُسَمِّ غيرَه، إذْ كان الفردَ الكاملَ منهم والفذَّ النابغ فيهم، ولا يُعترَضُ على ذلك بتقديم أخيه أبي زكرياء يحيى للولاية دُونَه ، فان ذلك إنما كان بعد وفاة أبي العباس ، فانه تُوُفِّيَ بغَرْناطةَ قبل رجوعهم إلى المغرب ، وبعد حلولهم بها بعامَيْن . قال في الإحاطة :

«قال في عائد الصلة : ولما كان من تقلّب الحال وإدالة الدولة ، وخَلْع الأمير - يعني محمداً الثالث - وقَتْل وزيره - يعني ابن الحكيم - يوم عيد الفطر من عام سبع وسبعمائة، وانتُهِبَتْ دارُ الوزير ، ونالت الأيدي يومئذ مَن شَمِلَه دَهْلِيزُ بابِه من أعيان الطبقات وأُولي الخُطَط والرُّتب ، ومنهم أبو العباس هذا رحمه الله فأفلَت تحت سِلاح مشهور ، ومَيْر مَرْقوب ، وثَوْب مسلوب ، فأصابتْه بسبب ذلك عِلّةٌ أياماً الى ان أَوْدَتْ به فقَضتْ عليه في غرناطة في الثامن والعشرين لذي الحجة من سنة سبع وسبعمائة . ودُفِنَ بمقبرة الغُرباء من الرَّبَض عند الوادي تُجاهَ نجْد [1] رحمةُ الله عليه . »

---

(1) - كذا في الاحاطة ، طبعة مطبعة الموسوعات ، وفي طبعة دار المعارف : تجاه قصور نجد .

فهو لم يدخُل فاساً ، ولم يبق الى الوقت الذي ردّ فيه السلطانُ أبو سعيد المريني قومَه الى مَقَرّ رياستهم سبتَة ، ولو بَقِيَ لما قُدِّم عليه أحدٌ منهم .

ثم ان ما ذكره ابنُ الخطيب من تاريخ وفاته مخالف لما عند المقّرِي في «أزهار الرياض» وابنِ القاضي في «الجذْوة» من أنها كانت في ذي الحجّة من عام ٧٠٨ لاعام ٨٠٧، وان اتفق ابنُ القاضي مع ابنِ الخطيب في اليوم الذي وقعت فيه الوفاة ، وعيَّنه الأولُ فقال انه يومُ الأحد . ويُؤيِّدُ ما للمقري وابن القاضي أنَّ ابنَ الخطيب نفسَه ذكر في «اللمحة البدرية» كائنَةَ خلْع محمد الثالث وأرَّخَها بيوم عيد الفطر من عام ٧٠٨ وذكر أيضاً في «الإحاطة» نفسها قتل الوزير ابن الحكيم يوم خلْع مليكه فأرَّخه بصبيحة عيد الفطر من عام ٧٠٨ .. فاذا كان مترجَمُنا أصيب في ذلك اليوم ومات لأيام منه فلا تعدو وفاته ذا الحجّة متم عام ٧٠٨ .. وعليه فقد وَهِمَ ابن الخطيب فيما ذكره من ذلك التاريخ في كتابه «عائد الصلة» ، ونقله في «الإحاطة» . والكمالُ لله .

على أن ابن القاضي إنما ذكره استطراداً في ترجمة أخيه أبي القاسم لأنه ليس على شرطه من حيث كونهُ لم يدخل فاساً ، بخلاف أخيه المذكور الذي استوطنها ومات فيها .. ومع ذلك فانه لم ينسُبْهما معاً

بنسبة عشيرتها العزفيّة المشهورة ، بل اقتصر على نسبتها إلى لخم وهي غير كافية في التعريف . ولذلك انبهم الأمر على صاحب تاريخ الشعر والشعراء بفاس، فذكر أبا القاسم ناسباً له الى اللخمية فقط .

هذه حيثيّة الرجل الاجتماعية .. وأما حيثيّته الأدبية فقد جاء في تحلية ابن الخطيب له قوله : « الفقيه الرئيس المتفنّن ، حامل راية مذهب الشعراء في وقته ، المشار اليه بالبنان في ذلك » وهي عبارة توهم أن هناك مذهباً للشعراء ، وطريقة خاصة في زمن الشاعر ، أوقل مدرسة شعريّة كان هو رائدها وزعيمها ، لاسيما وقد ثبتت هذه العبارة في نسخة أخرى من « الاحاطة » بلفظ (حامل راية مذهب الشعر في وقته) ولسنا نعلم للشعراء في وقت المترجم مذهباً خالفوا به المعهود لديهم في الشكل أو المضمون ، لا في المغرب ولا في المشرق ، والا فما بال صاحبنا ابن الخطيب لم يبيّن لنا هذا المذهب الذي كان الشاعر يحمل رايته في وقته ؟ وما له حين عرض لوصف شعره قال : « وشعره نمط عال ، ومحل للبراعة حال ، لطيف الهبوب غزير المائيّة ، أنيق الديباجة ، جمّ المحاسن » مما لا إشعار له بمذهب معيّن ، ولا طريقة تبيّن ، وان أشعر بتفوّق الشاعر وتمكّنه من قرض الشعر الجميل . لذلك نرى أن لفظة مذهب زائدة في هذه العبارة إن لم تكن من مبالغات ابن الخطيب . على أن اللفظة جاءت في نسخة ثالثة من « الاحاطة » بصورة مهذّب الشعر ، وهي كذلك مقبولة معقولة ، ومنسجمة مع وصفه لشعره المنقول آنفاً .

ولا نقول هذا تنقيصاً من قدر المترجَم ، وإنما دفعاً لذلك الإيهام ، وفي الحقيقة ان الرجل من خواصٍّ أدباء المغرب ومن شعرائه الموهوبين، ولقد امتاز بصفات نادرة ترتفِعُ به الى طبقة العِلية من أهل التفنُّن والابداع فشعره ريَّانُ من الفصاحة اليَعْربيَّة ، حسَنُ السبك ، دقيقُ التعبير عن اعمق العواطف القلبية ، جميل التصوير للخوَالِج النفسية ، يُكثِرُ فيه من استعمال البديع ووجوه التحسين اللفظي ، ولكن من غير أن يجعله غاية ويُضحِّي لأجله بالمعنى المراد ، فهو يُورِدُه في تناسق متناسب مع أغراضه ومعانيه ، كتناسُبِ خطوط اللوحة الفنِّية من ريشَة الرَّسام العظيم ، وهو على إتقان فنه وإجادة صُنْعه ، عامرُ الأبيات بالمعاني والأخيلَة والتَّولِيدات المُستحسَنة ، فالمقطوعةُ او القصيدة من شعره كالشجرة الطيبة : منظرٌ ومَخبَرٌ ، وعبرةٌ لمن اعتبر . ومن اعجب شيء في شعره هذا الاتزانُ الرائق في اكثر أنواع الشعر اضطراباً وهو شعرُ الوجْدان ، مما يدل على قوة العارضة وحضور المَلَكة . ولعل ذلك أثرٌ من آثار التربية الأرستقراطية التي تلقَّاها الشاعر في بيت الحسب والرياسة .

وهاك تغَزُّلَ تلك القصيدة التي أشار لها في اللمحة البدريّة وقال إنها قصيدة شهيرة :

لكُم حميً في فؤادي غَيرُ مقْروب
فضَائعٌ في هواكم كلُّ تأنيب

إن كانَ ما ساءني مما يسرُّكم
فعذبوا فقد استعذبتُ تعذيبي

عُودُوا إلى الوصل أو عُودُوا عَلَيْلَكُم
وبادِرُوا فرِضَاكم طِبٌّ مطبُوب

كم أرسلتْ أدمعي تَتْرى بصِدْقِيَ في
دَعْوى هواكم، فقابلتُم بتكذيب

ولانَ بالصبر قلبي حين غالَبني
شوقي كما لانَ غالِبٌ بمغلوب

لولا الحبيب الذي ينأى بنأْيِكم
ما كان قُربكم عندي بمحبوب

ولا تشكَّتْ جِيَادِي ما أضرَّ بها
من طُول رَكْض وإسْآد وتأْويب

بي منكم رشَأٌ لولا لواحظُه
ما كان قلبِيَ عن صدري بمسلوب

إذا بدا خرّت الألحاظ ساجدةً
لِنُور وجْهٍ بتاج الُحسْن مَعْصوب
تخـــالُ حبّةَ قَلْبِي خالَه أبداً
يُصلَى بجَمْرٍ على خدّيْهِ مشبوب
شالَتْ عقاربُ صُدغَيْه وحفَّ بها
حيّاتُ وحْفٍ مع الأَذْيال مَسْحُوب
تجنِي القلوب ، فتجني وَرْدَ وَجْنَتِه
فتَنَثني بــين مَلْسُوع ومَلْسُوب
رِياضُ حُسْنٍ رِمَاحُ الهُدْبِ مُشْرَعَةٌ
لِلذّب عنهـــا بطَعْنٍ غير تَذْبِيب
فيهـــا مَصَارِعُ لِلعُشّاق دامِيَةٌ
وكلُّهم بين مطعون ومضروب

فهل لاحظتَ هـذا الانسجام بين اللفظ والمعنى بِرَغْم المُحسّنات البديعية والزّخارف الكلامية ؟ وهل لاحظت هذا الجمال الشائع في كل

بيت من أبيات القصيدة وخاصةً في البيتين التاسع والعاشر ، وعلى الاخص هذا الوصف الرائع للخال :

تخال حبَّة قلبي خاله أبداً يُصلى بجمرٍ على خدَّيه مشبوب

ولم ينقل لنا الرواة هذه القصيدة كاملة ، فنستطيعَ ان نتتبَّعها الى النهـاية مع قول ابن الخطيب فيها إنها قصيدة شهيرة ، ولكنَّا نَرْوِي هنـــا قصيدة في معارضتها قالها الملك عبد الله بن الملك حسين،وقد اطلع عليهـا في ترجمة الشاعر التي كنا نشرناها بمجلة السَّلام لاخينا العــلامة السيد محمد داود ، وهو الذي مكَّننا منها . قال الملك عبد الله :

كم بالحِمَى من نزيـــل عزَّ مطلَبُه
وكم به من أنِيس غــيرِ مَحْروب
أيْن الحبيبُ تَضُنُّ اليــوم مَنزِله
أبِالسَّرَاة تَراه أمْ بِمَلْحُـــــوب
أنَّى لصبري على بعدي ونأيِكم
وفي ابتعادكُمُ هجري وتعذيبي

لا أبعدَ اللهُ قوماً كنتُ آلفُهُم
ففي اجتماعي بهم قصدي ومرغوبي

إن عدتُمُ تجـــدوني وَفْقَ عهدِكُم
أو جئتُكم ساعياً في زيٍّ مجلوب

يا آلَ سَلْمَى لَقِدْماً فــازَ سهمُكم
بِمَن يُوالي وَلاءً غيرَ مكذوب

كم همتُ أمشي ولا أدري أفي قَمَرٍ
مَسْرَايَ أم في نهــارٍ كان تَسْرِيبي

وشاكِرَاتُ جيـــادي سَعْيُها خبَبٌ
وراضِيَاتُ ركابي مَسٌّ عُرقُوب

إن كان ذلك يُدني من رحابكم
أو كان في سعيهــا مِيعَــادُ تقريبي

كلُّ البــلاد يَبَابٌ بعدكــم أبداً
وكلُّ أرض سواكم أرضُ مجدوب

دارُ النـــــبي إلى نفسي مُحَبَّبَةٌ
وفي اتصـــالي بها قصدي ومطلوبي

هو الرسول الذي لولاه مــا ذُكِرَتْ
لِلْعُــرب مــأْثُرَةٌ في يوم تضريب

هي البلاد التي أُسُّ الأَساس بِهــا
أصلُ الشريعة ، أصلُ المجد والطيب

واللهِ ، لا أبتغي أرضاً بهــا بــدَلاً
لَوْ رَامَ آخرُ إغــرائي وترغيـــبي

قلْ للأَديب الذي قد جاء يُتحِفنَا
بفــائق من تَحِيَّـــــاتٍ وتَحْبِيب

إحمِـلْ ودادي وأشواقي إلى بَلَد
بـه الأشاوسُ من مُرْدٍ ومِن شِيب

واقْرِ السَّلام لِمَـن بالغَرْبِ يقطُنُهُ
وَأكِّدِ الوُدَّ مشفوعـاً بترحيب

والخطاب في الأبيات الأخيرة للاستاذ داود الذي زار الاردن وقابل الملك عبد الله . ونحن نروي هذه القصيدة على مـا فيها من المسامحة ايذاناً بما يجلبهُ نشر أدب المغرب لأهله من سمعة حسنة وأحدوثة طيبة ، ونرى أنّ اعجـاب الملك الهاشمي بقصيدة العزفي ناشيء عن تمثله للحالة التي قيلت فيها، فانها شديدة الشبه بحالته ، اذ كل منهما تشرد عن مَوْطنِه وضيّعَ مُلكَ آبائه .

وللمترَجم فيما يناسب بيت (ثالث عقـارب صدغيه) من وصف الشَّعَر عِذَاراً وغَيرَه ، كلٌ معنى طريف ؛ فمِن ذلك قوله :

وَمُعـذَّرٍ في حُسنِهِ قد قـامَ عُذْرُ المبتَلَى
لمـا خطَبْتُ وِصالَه وسألْتُه أنْ يَعْدِلا

لم يَرْضَ رَدّاً لِلْجَوَا ب فَخَطَّ في خَدَّيه: لَا !

وقوله ·

أَبْدَى عِذَارُكَ عُذْري في الغَرام به
وزادَني شغَفــاً فيه إلى شغفي

كــأنه ظنَّ أَني قد نسيتُ له
عَهْداً فعرَّض لي بالــــــلَّام والا لِف

وقوله :

عــــذَلوني فيمن أحِبُّ وقــالوا :
دَبَّ نَمْلُ العِـــذَار في وَجْنَتَيْه

وكذا النملُ كلَّمَا حـــلَّ شيئاً
مَنَعَ النفسَ أَنْ تَمِيل إلَيْــه

كنتُ قبل العذار أعذَرُ فيـه
ثُمَّ مِن بَعْـدِهِ أُلَامُ عليْـه
إنَّمـا دبَّ نحوَ شَهْدٍ بفيـهِ
فلـذاك انتهى الى شَفَتَيْـه

وقـال في مثل الجِناس الواقع في بيت (عودوا الى الوصل أو عودوا عليلكم) :

هَجْرُكُمْ مـالي عليه جَلَدُ   فأَعِيدُوا لي الرِّضى أوْ فَعِدُوا
مـا قسَا قَلْبِيَ من هجركم   ولقد طـال عليه الأَمَـدُ

ومعنى البيت الثاني مُقتَبَسٌ من الآية : « أفطال عليهم الأمدُ فقست قلوبهم» والحديث « ألا لا يَطولَنّ عليكمُ الأمد فتَقسُو قلوبُكم » .

وله ، يمدح الوزير ابنَ الحكيم ، وصدّرها بهذا الغزل البديع الذي تفنَّن فيه ما شاء ، ثم تخَلّص منه الى شكوى الحال ، ومنها الى مدح المذكور :

مَلَكْتَ[1] رِقّي بالجمـــال فأَجْمِلِ
وَأصبْتَ من قلبي بِجَوْرِكَ فاعْدِلِ

أنتَ الأَميرُ على المِـــلَاح ومَن يَجُرْ
في حُكْمِهِ، إلّا جفُونَـــك يُعزَلِ

إن قيل انتَ البدرُ فالفضلُ الذي
لـــك بالكمال ونَقْصه لم يُجْهَـــلِ

لولا الحظوظُ لكنتَ انتَ مكانَه
ولكان دُونَك في الحضيض الأَسفل

عينـــاك نازَلتِ القلوبَ فكلُّها
إمّا جَرِيحٌ أو مُصَـــــابُ المَقْتَلِ

---

(1) دخله زحاف الوقص وهو حذف ثاني الجزء المتحرك ، وهو فيه صالح ، فاذن لا حاجة لتشديد اللام من ملكت مع بنائه للمجهول لمخالفته لاصبت في اول العجز .

هزَّتْ ظُباها بعد كَسْر جُفُونهـــا
فأُصِيبَ قلبي في الرَّعيل الاوّل

ما زلتُ أُعذَل في هواك ولم يَزلْ
سمعي عن العُـــذَّال فيك بِمَعْزِل

أصبحتُ في شغل بحبك شاغـــل
عن أن أُصيخَ إلى كلام العُـــذَّل

لم أُهْمِــــــلِ الكِتْمانَ لكن أَدمُعي
همَلَت ولو لم تَعْصِني لم تَهمُـــــــل

جَمعَ الصحيحين الوَفاء مع الهوَى
قلبي ، فأملَى الدمع كشْفَ المُشكل

ما في الدَّبور ولا ٱلجَنُوب جوابُ ما
أُهْدِي إليك مع الصَّبـــا والشَّمأَل

حمّلتُها من طيب عَرْفِك نَفحةً
تُحيي ذَمَاء عليلك المُتَعَلِّل

ان كنتَ بعدي حُلتَ عما لم أحل
عنه وقد أهملتَ ما لم أُهمل

أو حالتِ الأحوال فاستَبْدلتَ بي
فأنا بحُبّي فيك لم استَبْدل

لاقيتُ بعدك ما لوَ أنّ أقلّه
لاقى الثّرَى لأذاب صُمَّ الجَندل

وحَملتُ في حُبّيك ما لو حُمِّلتْ
شُمُّ الجبال أخفَّه، لم تَحمِل

من حَيف دَهرٍ بالحوادث مُقْدِمٍ
حتى على خِيسِ الهِزَبْرِ المُشْبِل

قد كنتُ منه قبل كَرِّ صُروفه
فوق السّنام فصرت تحت الكَلْكل

ونُصُـــــولِ شَيْبٍ قد أَلَمَّ بلِمَّتي
ونُضُوبِ غَضٍّ شبيبةٍ لم تَنصُــل

ينوي الاقــامةَ ما بقيتُ وأَقسَمتْ
لا تنزِلُ اللذّاتُ ما لم يَرْحَــل

وَمُسِرِّ[١] ضِغْنٍ وَدَّ أَنَّ حَمِيمَــه
لاقَى الحِمَــام وأنــه لم يَقْفُل[٢]

يطوي على حسدي[٣] الضلوعَ فقلبُه
بـأُوَارِهِ يَغْــلِي كَغَلْيِ المِرْجَــل

---

(1) ثبت في طبعتي الاحاطة : ومسِر ظعن ، ولا شك ان كسرة السين في الاصل المطبوع عليه حولت الى نقطتين ، ومن ثم صحفت ضغن بظعن .

(2) ثبت لم يفعل ونظن ان يقفل انسب بالمعنى ومجال الشاعر المقرّب .

(3) في الطبعتين : جسدي .

في صَدْرِه ما لَيْس في صَدْري له
مِن مِثْلِه مِثقـالُ حَبّةِ خَـردل

أعرضتُ عنه ولو أسفَّ[١] لِذَمّـه
شِعْرِي لجَرَّعَـه نقِيعَ الحَنْظل

جلَّيْتُ في حلَبَات سَبْقٍ لم يكن
فيهـا بِمُرْتَاحٍ ولا بِمُؤَمّـل

ما ضرَّه سَبقيه في زمن قَضى[٢]
أنْ المُجَلّيَ فيه دُونَ الفِسْكَل

ساءَتـه مـني عَجْرَفِيَّةُ قُلَّبٍ
بَـاقٍ على مَـرِّ الحوادث حُـوَّل

(1) وفيها : اشف .

(2) نظن ان قضى هنا انسب من مضى التي ثبتت في الاحاطة .

مُتخرّقٍ في البَذْل مُدَّةَ يُسْرِه [١]
مُتَجَلِّدٍ في عُسْرِه مَتَجَمِّل

حتَّى يَثُوبَ له الغِنَى من ماجِدٍ
بقضاء حاجات الكرام مُوكَّل

مِثْلِ الوزير ابن الحكيم ومَا لَه
مِثْلٌ يقُوم مَقَامَه لِمُمَثِّل [٢]

سادَ الورَى بحديثه وقَديمه
في الحالِ والماضي وفي المُسْتَقبل

من بَيْتِ مَجْدٍ قد سَمَتْ بِقِبَابِه
أَقْيَالُ لَخْمٍ في الزّمان الأوَّل

---

(1) في الطبعتين : سيره .

(2) وفيها : متمثل وهو غير مناسب معنى واعرابا .

سامِي الدَّعائِم طَالَ بَيْتَ زُرَارة
ومُجَاشِعٍ وَأَبِي الفَوارس نَهْشَل
يلْقَى العُفَاةَ ببَسْطِ وَجْهٍ مُشْرِق
تجلُو طَلاَقَتُه هُمُومَ المُجْتَلي
وإذا نحَا بالعَدْل فَصْلَ قَضِيَّةٍ
لم يُخْطِ فَصْلاً من إصابة مَفصِل
عجِلٍ على من يَسْتَحِقُّ مَشُوبَةً
فاذا استحقَّ عقُوبَةً لم يَعْجَل

والقصيدة أطولُ من هذا .. ولكن فيما أوردناه منها استيفاء للاغراض التي ضمَّنها اياها الشاعر . والقارىء يرى أنه يقدر ما رقّ قسْمُ الغزل منها وراق ، ودلَّ على مَقدَرَة فائقه في المُزاوجة بين جمال المعاني وجمال الالفاظ .. بقدر ما جاد قِسْمُ الشكوى ، وانسجم مع حال المترجم ، فصوَّر لنا النكبة التي حاقتْ به وبقومه تصويراً له في النفس أشجَى وقْع وأعظمُ تأثير . ولا يغفُل القارىء عن التملي بحسن البيت الثاني والبيت الخامس والبيت السادس من

غزلها البليغ . . اما البيت العاشر فقد غلبت عليه صنعة التورية بالكتب ، فلم يجيء متناسباً مع هـــذه الابيات الاخرى المشبوبة العاطفة والتي لم تُضعِف الصناعةُ حرارتها .

ويبلغ الشاعر ذروة الاحسان في التعبير عن حـــاله بهذا البيت من قسم الشكوى :

قد كنت منه قبل كرِّ صُرُوفه فوق السَّنَام فصرت تحت الكلكل

ويا لله من وصفه لهذا الشَّيْب الطّالع بِلمَّتِه ، مُؤذِناً بنُضُوبِ مـــاء شبيبته ، الذي لا تنزلُ اللذات ما لم يرحل ، مُقسِمة على ذلك ، لانه حِليَةُ الوقار ، ولا يطيب مع الوقار متاع ، كما قـــال شاعرنا نفسه في قطعة جميلة من نظمه :

ويوم كساه الدَّجنُ دُكْنَ ثِيَابِه
وهبَّ نسيمُ الروض وهو عليل

ولاحتْ بافلاكِ الرياض كواكبٌ
لها بالبُدورِ الطّالعات أُفـــول

وجالتْ جيادُ الراح بِالرّاح جَوْلةً
فلم تَحْـلُ إلّا والوَقـــارُ قَتِيل

وكلامه في وصف غريمه الذي يظهر انه كان احد قرابته ، وكان مع الدهر عوناً عليه ، هو ايضاً مما يدل على رسوخ قدمه في البلاغة ، وتمكنه من التعبير عما بدَ ِخيلة نفسه اشدّ التمكن ، وقد مزج فيه بين الفخر والازراء على هــذا الغريم بما لا كفاء له في الحسن .

اما مدحه لابن الحكيم فهو من تقارض الاكفاء وشكر الكرام لليد التي تمتد اليهم بالمُؤاساة حين يتعثر بهم الدهر، ويقلبُ لهم ظهر المِجَنّ .. وهو حيث الاسلوب قوي متين وذو معان سامية كما يُرَى فيما رويناه منه .

وبالجملة فان هذه القصيدة من غرر شعر المترجم ، وقد أشار ابن الخطيب الى ذلك ، وانه انما اجتلبها كلها لكون صاحبها يمدح أديباً ناقداً ، وبليغاً بصيراً بالكلام ، فبطبيعة الحــال لا بد أن يأخذ نفسه بالاجادة ، ولا يسعه عذرٌ في ذلك . والامر كما قال ، الا أننا نرى الاجــادة طبعاً لصاحبنا لا تتخلف عنه في حال من الاحوال . وابن الحكيم على فضله وعلمه وأدبه ، كان مزجى البضاعة في الشعر على ما عند ابن الخطيب نفسه في ترجمته بالاحاطة، وان كان أعلم الناس به ، وأشدّهم تيقظاً لموافقة الحسن وضده .

وله من قصيدة أخرى يمدح بها الوزير المذكور :

هـــذا الصباحُ فغادني بصَبُوح
وانهَضْ برَاحِك فهي رَاحةُ رُوحي

لا تَكتَرِثْ لِخُطوب دهرك واسقِني
كأساً تُحَسِّنُ منه كلَّ قبيح

واسْرَحْ سَوامَ اللفظ بين حدَائِق
مـــا سَائِمٌ في مثلهـــا بِمُرِيح

فُتِنَت بزهرة زهرها فتمايلت
تختـــال في الحِبَرات بعد مُسُوح

شقَّت شقائقُها جُيوبَ كمائم
أَسَفاً على زِقٍّ يَخِـــرُّ جَرِيح

وعُيونُ نرجسها تَلُوح شَواخِصاً
لِوَميض بَرْقٍ في الكُؤوس مُلِيح

والوردُ تُخجِلُه أنامِلُ سَوْسَن
تُومي إليه بالسَّلام وتُوحي

وأتى الربيعُ رُبوعَها بسواجِعٍ
عُجْمٍ تَشُقُّ فؤادَ كل فَصيح

سَجَعَتْ تُبَشِّرُها بِعَوْدِ شبابِها
فأصِخْ إلى شِقٍّ بها وسَطِيح

ما لي وللأطْلال أسألُ صامِتاً
منها وأعوِلُ في مَهامِهَ فِيح

في الرَّاحِ والريحانِ شُغْلٌ شاغل
لي عن عِيَافَةِ بَارح وسَنِيح

وأهِيمُ في وَرد الخـــدود وآسها
لا في عَرارِ بالفَــلاة وشِيح

وأصُونُ سمْعي عن مَقَالَةِ عــاذل
لِتذلُّلي والحِبُّ غَــيْرُ مُشيح

كم عرَّضوا لي بالمَــلَام وصرَّحوا
فعَصيتُ في التَّعْرِيض والتَّصْريــح

عجباً لهم يَلْقَونَني بمـــلامهم
في حُبٍّ من يَلْقَوْنَ بالتَّشبيح

إن صوَّحَ الروضُ النَّضيرُ فخَــدُّهُ
أزْهَــارُه أمِنَتْ من التَّصْويح

وتحــارُ أعيُنُ مُبْصِريه إذا بَدا
في ثِقْل أرْدَافٍ وخِفَّــة رُوح

قَلْبي بعَذْلِهم يَزِيــدُ تَوَقُّــــدا
لا غَرْوَ في نَارٍ تُشَبُّ بِرِيــح

وإحسانه في هذه القصيدة كالتي قبلها كثير .. وهو في قوله : (ما لي وللاطلال) الابيات الثلاثة، يذهب مذهب أبي نواس في الازراء بطريقة القدماء وما كان سنةً عندهم من الوقوف على الاطلال وسؤالها والبكاء عندهــا ، ويعوّض ذلك بوصف الرياض ، ومحــاسن الطبيعة ، وسجع الطير ممــا يمثل بيئة الشاعر وجمال البقعة التي يعيش فيها . واما قوله (عجباً لهم يلقونني بملامهم) البيت فهو من فرائــد معانيه وخرائد لآليه ، وكذلك قوله (قلبي بعــذلهم) البيت هو من لطيف التنظير وجميل التصوير .

ويشير الشريف السبتي في شرح مقصورة حازم إلى براعة الشاعر في توليد المعاني وَغَوصه عليها في هذا المثــال الذي يقول فيه « وقد ولّد الرئِيس أبو العباس بن أبي طالب العزفي من تشبيه البروق بالسلاسل توليداً ما أظنه سُبِـقَ إلى مثله ، فقال يخاطب الوزير أبا عبدالله بن الحكيم ، واصفاً له بسرعة البديهة إذا كتب :

له قَلمٌ يُجارِي لو البُرُوق   لَخِلْت السلاسلَ فيها قُيُودا

وهذه النهاية في الإحسان » ويقول في مثال آخر : « وقد قال الفقيه الرئيس أبو العباس بن أبي طالب العزفي رحمه الله في قصيدة هي من قلائده :

لم تشتَعِلْ نار المشيب بمفرقي حتى أراقَ الدهرُ ماء شبابي

وانما أهتدي اليه أبو العباس من الآية ، يعني قوله تعالى « واشتعل الرأس شيباً » ومن قول الشاعر :

هريق شبابي واستشَنَّ أديمي . . . »

وهذه القصيدة التي منها هذا البيت قد روى لنا ابن الخطيب منها أربعة أبيات أخرى من مطلعها وهي :

أَمّـــا الرُّسوم فلم تَرِقَّ لِمَا بي
واستعْجمتْ عن أن تَرُدَّ جـــوابي
واستبدلت بِوُحوشِهـــا من أُنّسٍ
بِيضِ الوُجـــوه كواعِبٍ أَتْراب
ولقد وقفتُ بهــــا أرقرقُ عبرةً
حتّى اشتكى طولَ الوُقوف صِحابي

يبكي لِطُول بُكَاي في عَرَصاتها
صَحْبِي ورجعتِ الحَنِينَ رِكابي

وله في المقطوعات الغرامية :

وكم ليلةٍ نلتُ فيها المُنى وباتَ لِيَ الحبُّ فيها نَجِيا
إذا ضلَّ لحظي في جُنْحِها هدَتْ وجنتاه الصراط السويا
أراع فأسأل عن صُبْحها فيُرْجِع لي جُنْحُها : نَمْ هَنِيا
إلى أن بدا لي سَرْحَانُها يُحاوِلُ لِلْجَدْي فيها رُقِيا
فيا لَكِ من لَيْلَةٍ بِتُّها أنادِمُ بَدْرَ دُجاها البَهِيًّا
حكتْ ليلةَ السَّفْحِ في حُسْنها فأصبحتُ أحكي الشَّرِيفَ الرضيا

يُشيرُ الى قصيدة الشريف الرضي التي أولها :

يا ليلةَ السَّفْحِ هلا عُدتِ ثانيةً سقَى زمَانَكِ هَطَّالٌ من الدِّيَمِ

وهذه القصيدة شهيرة ؛ وكان لها صدًى بعيدٌ عند أدباء المغرب .

وله أيضاً :

وعدتَني أنْ تزُورَ يا أملِي ... فلمْ أزَلْ للطَّرِيقِ مُرتَقِبـــا

حتى إذا الشمسُ للغروب دَنتْ ... وصُيِّرَتْ من لُجَيْنِها ذَهبـــا

أَنِسْتُ بالبَدْرِ منك حين بدَا ... لأنّه لو ظَهَرْتَ لاحتجَبـــا

وله :

كأنما الخـــالُ مصبـــاحٌ بوَجنَتِه

هبَّتْ عواصِفُ أنفاسي بِـــه فطُفِي

أو نُقطةٌ قطَرَتْ في الخدِّ إذ رَسَمت

خطَّ الجمـــال بخط اللاَّم والألف

وقال متشوّقاً إلى بلَـده سَبْتَـةَ ، وما له بها من حُبٍّ وسَكَن وهي قطعة من أخفّ شعره روحاً وأعذبه لفظاً :

لِيَ في سبتَةٍ سكَنْ ... حُبُّه في الحَشا سكَن

فهْو يَزدادُ جِـــدَّةً ... معَ إبـــلائِه الزّمن

أَصبَحَ القلبُ عِندَهُ ... وبِغَرْناطَة البَـدَن

إنَّ هَـارُوتَ لو رَأَى ... سِحْرَ ألحـاظِه افْتَتَن

رَشَأٌ سِحرُ بَابِـلٍ ... بَيْن عَيْنَيْه قَد كَمَن

زَارَني والرَّقِيبُ قَدْ ... غابَ واللَّيلُ حِين جَنْ

بَعْدَ بُعْدٍ حنَى الضُّلو ... عَ على الشَّجْوِ والشَّجَن

فَشَهِدْنَا على نِكَا ... حِ ابْنِ مُزْنٍ بِبِنْتِ دَن

وَنَعِمْنَا الى الصبا ... حِ كَرُوحَيْن في بَدَن

وسَكِرْنَا فظُنَّ خَيْـراً بِنَا واتْرُك الظَّنَن

وشعره أكثر من هذا ولكنه لم يصلنا منه إلا هذا النزر اليسير مع كثرة التبديل والتحريف والسقوط في أبياته ، وقد اخترْنا منه أنسب الروايات بظاهر المعنى ، وصحّحنا الأخطاء العربية والعَروضيَّة حَسْبَ الامكان .

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

ذكريات

مشاهير رجال المغرب

بقلم
عبد الله كنون

دار الكتاب اللبناني — دار الكتاب المصري
بيروت - لبنان القاهرة ج م ع

وزارة المعارف المكتبات المدرسية

صواب بعض الأخطاء

الواردة في الجزئين (26) و (27)

اقرأ في ص 34 ج 26 : بليونش بدل ينيلوش .

وفي ص 12 ج 27 : 707 بدل 807

وفي ص 15 منه : عَليلَكُم بدل عَليْلَكُم

وفيها أيضاً : ولاذ بالصبر بدل ولان بالصبر ..
كما لاذ بدل كما لان .

وفي ص 20 منه : شَالتْ بدل ثالث

وفي ص 22 منه : فطال عليهم الأمد بدل أفطال .

وفي ص 29 منه : يستحق مَشُوبة بدلَ مَشُوبة ... بقدر ما رق
بدل يقدر .

وفي ص 30 منه : دُكْن ثيابه بدل رُكْن .

وفي ص 31 منه : وهو من حيث الاسلوب وهو حيث الأسلوب

وفي ص 35 منه : له قلم لو يجاري البروق بدل يجاري لو البروق .

وفي ص 39 منه : الظّنَن بدل الظّنَن .

وبقيت أخطاء أخرى طفيفة لا تخفى على القارىء الأديب .

هذه السلسلة

لم تُكتب تراجمُ هذه السلسلة لتُنشَر منفردةً هكذا كلُّ ترجمة في حلقـــة مستقلة ، وانما كُتِبت لتكون ضِمْنَ مُؤلف واحد ذي ثلاثة أجزاء حسْبَ طبَقةِ أصحابها من أدباء وعلماء وسَاسَة ، مُرتبة في كل جزء على حسَب الحُروف وحسَب القِدْمِيَّة الزَمنِيَّة في كل حرف ، كما أُشير الى ذلـــك في مقدمة الحلقة الاولى ، وعليه فمَن يقرُنها الى سلسلة أخرى انما يظلِمُها وينظرُ اليهـــا نظرة تقليديَّة لم نقصِدْ اليها البتَّة .

وأول الفوارق بينها وبين غيرها من السلسلات المعروفة ان تلك السلسلات تتناول تراجمَ رجـــال مَدرُوسين كتبتْ عنهم عشراتُ الأبحاث بمختلف اللغات في العالم العربي وغـيره ، ولهم آثار منشورة مُتداولة بخلاف هذه السلسلة فان غالب رجالها من المجهولين أو المنْسيِّين على أقل تقدير ، ومِمَّن ضاعت آثارهم فـلا نقف على القليل منها إلا بعد الجهد الجهيد من البحث والتنقيب .

وهذا لا يُنافي وصْفنا لهم بالمشاهير فانا كما في المقدمة المذكورة قد اعتبرنا شُهرتهم في عصرهم وان كانوا عندنا ليسوا كذلك .

على أن تسمية هذه التراجم ذِكريات هي مِمَّا يُحدِّد خُطتها ويرسم طريقتها، فالرجاء الا تحمل على غير هذا المحمِل تذرُّعاً للتحامُل عليها، ومَيْدانُ التجربة فسيح أمام ذوي الاقتراحات والأفكار ، وكل يعمل على شاكِلتِه والله من وراء القصد .

المؤلف

28



عبد الواحد المراكشي

اسمه ونسبه ، نشأته العلمية ، رحلته الى الأندلس ، نبوغه المبكر ، تركه للأخذ عن الامثال وتعلقه بمشيخة الرواية العالية ، ظهور شخصيته ، اتصاله بالرؤساء والأمراء ، توطد مكانته الاجتماعية ، مداخلته لرجال الدولة تفيده اطلاعاً واسعاً على اسرار السياسة واخبار القصر ، لقاؤه للخليفة ، رحلته الى المشرق ، اقامته بمصر ، حجه ، دخوله بغداد وتأليفه لكتابه المعجب ، وصف الكتاب ، أهميته الإخبارية والأدبية ، بعض اغلاطه التاريخية ، أدب المراكشي ، نموذج من انشائه البليغ ، اضطراب في تاريخ وفاته .

هذا رجل من رجالات المغرب ، كان له شأنٌ وبالٌ مدة حياته ، ثم طواه الاهمال والنسيان حتى بُعِثَ في عالم الاستشراق حديثاً ، فإذا هو أكثر أهميــة بالنسبة الى تاريخنا السياسي والأدبي مِمّا كان عليه قَيْدَ الحياة .

لم يؤرخ له احدٌ في مغرب ولا مشرق ، وان كان هو قد كتب تاريخ المغرب للمشرق . وكأنّه كان يعرف ما سيؤول اليه أمرُه من جُحود ونُكران ، فكتب هذه السطور القليلة التي يتحدث فيها عن نفسه في تاريخه « المعجب » ، ولولاها لما علمْنا من حاله شيئاً .

وان الصُّدَف العجيبة التي رَمَتْ بهذه النسخة الفريدة من كتابه القيِّم الى مكتبة ليدن فجعلته يقعُ في يـــد المستشرق الهولاندي (رينهارت دوزي) الذي عنيَ بنشره ، ونوّه بقيمته التاريخية لِهيَ التي ندينُ لها بجميل الاحتفاظ بذكره وأثره. وكم للصُّدَف على الباحثين من يد تثبتُ أن الأمر ليس كله تدبيراً وترتيباً .

اسمُه الكامل كما بالسَّماع الموجود في أول مخطوطة َليْدَن من كتابه المعجب ، عبدُ الواحد بنُ علي التميمي المراكشي يُلقّبُ بمحي الدين ويكنى أبا محمد ، أما اللقب فلا شكَ أنه أُطلِقَ عليه في المشرق اثناء اقامته هناك ، إذ ليس من شأن المغاربه اتخاذ هذه الألقـــاب المضافة الى الدّين بل ولا غيرها الا النادر جداً . وأما الكنية فـلا ندري هل كان لها مدلول واقعي بمعنى أنه كان له ولدٌ كنّي به أم أنها مُجرّد تشريف ، اذ كان يجوز في عُرْفهم تكنية من يُولد له . ولكن الأمر المؤكد هو أنه لم يُشر قط في كتابه الى زَوْج ولا الى أولاد ، ولم يُبْدِ َحنيناً الى بيت ولا الى أُسرة ، إلا شكوى مُبهمة من هموم الحياة وغمومها التي لا يخلو منها انسان .

وكانت ولادته على ما نصه هو في تاريخه بمراكش لسبـع خلوْنَ من ربيع الآخر سنة 581 في أوائل أيام يعقوب المنصور الموحدي أي عند ما كانت الدولة الموحدية في ُعنفُوانها والمغربُ الكبير في أزهى

عصوره علماً وتقدماً وحضارة . ثم فصلَ عنها وهو ابنُ سبعة أعوام
الى مدينة فاس ، وهي يومئذ حاضرةُ المغرب ومَوضِعُ العِلم منه ،
اجتمع فيها علمُ القيرَوان وعلمُ قرطبة ، بذِكر صاحبنا نفسِه ، فلم
يَزلْ بها الى أن قرأ القرآن وجوّده ورواه عن جماعة كانوا هنـــاك
مُبرّزين في علم القرآن والنحو ، ثم عاد الى مراكش فلم يزل متردداً
بينها وبين فاس للدراسة في هذه ولا شك ، وصِلة رَحمِه في تلك ،
وان لم يُشِرْ هو الى هذا المعنى الذي يؤخذ من كلامـه عن فاس .
على أنه وهـــو التلميذ المجتهد لم يكن يُخلي وجوده في مراكش من
الدراسة والتحصيل والاستفادة من اعلام الرجال الوافدين عليها لغرض
من الاغراض ، اذ كانت عاصمة الدولة تَهـوي اليها أفئدة الناس من
كل طبقة ومن كل صوب ، وهـا نحن نلتقي به فيها خلال سنة 595
وهو ابن اربعة عشر عاماً أي في سن التفتح الذهني ولا سيما للنبغاء
امثاله ، وقد زار مراكش الوزير ابو بكر بن زُهر لتجديد بيعة محمد
الناصر بن يعقوب المنصور ، وشُهرة الوزير المذكور في العلم والادب
تغني عن التعريف به ، فما يكون من صاحبنا إلا ان يسعى الى لقائه
والاتصال به ، والسماع منه والرواية عنه ، وقـــد كان ابو بكر بن
زهر حينئذ في الثمانين من عمره في السنة التي توفي فيها ، فلو لم ينتهز
المراكشي هذه الفرصة لفاته لقاؤه الى الأبد ، ولما حصل له شرف
الأخذ عن هذا العَلم الشهير . وقد كان من جملة ما سمعه منه خبر زيارة
الأديب الشاعر عبد المجيد بن عَبْدون لوالده الوزير أبي مروان في

زيّ اهل البادية بحيث تجهّمته عين ابي بكر واستهان به لغرارة الصّبا حتى رأى من ادبه وإجلال والده له ما عرّفه بجاله . وهو خبرٌ طريف يطلعنا من صفات ابن عبدون وأخلاقه على مـــا لا تطالعنا به التراجم والكتب .

ولم يفتر مترجمنا عن الطلب وينته من التحصيل حتى اشبع نهمته وشفى غليله ، فلما رحل الى الأندلس وهو ابنُ اثنتين وعشرين سنة لم يجد عند فضلائها الذين أدركهم ما يأخذه عنهم ، ولم يُفِدْ من لقائهم إلا معرفتهم اسماً وعيناً وتاريخ ميلادٍ ووفاة . وهذا مما يدلُّ على نبوغه المبكر وتناهيه في هذه السن الى درجة الاستيعاب لضروب المعارف ، وخاصة الأدبية التي هي بضاعته، بحيث لم يَجِدْ فضلاً يطلبه عند هؤلاء الفضلاء من بقية الأندلسيين الذين رحلَ اليهم. وهو ايضاً مِمّا يدلُّ على نهضة العلوم والآداب بالمغرب في ذلك العهد نهضة لم تبقَ الأندلس تعَدّ معها شيئاً. وقـــد تقدمت الاشارة الى قول المراكشي في فاس إنها ورثتْ علم القيروان وعلم قرطبة. ولكن هذا الكلام ليس على إطلاقه ، فانه إن صحّ في اشبيلية التي يظهر أن صاحبنا قصدها أولاً لأنها كانت عاصمة الأندلس على عهد الموحدين ومقرّ السلطة المركزية فلن يصح في قرطبة ، وقد طالما امتازتْ على سائر مدن الاندلس الكبرى بمكانتها العلمية التي لا تزاحم ، وحسبُك بمناظرة ابن رُشد وابن زُهر في التفضيل بين المدينتين بمجلس يعقوب

المنصور ، وقول ابن رشد لمناظره يكفي من فضل قرطبة أنه اذا مات فيها مُطْرِبٌ بيعَتْ آلاتُه باشبيلية ، واذا مات بهذه عالم بيعَتْ كتُبُه بقرطبة . . والمراكشي الذي لم يكن هواه مع آلات الطرب والمطربين بل مع الكتب واصحاب الكتب ، لم يهدأ له بالٌ حتى كان في قرطبة حيث وجد ضالتَه المنشودة في الشيخ أبي جعفر الحِمْيَري . . آخر ما انتهى اليه علمُ الآداب بالاندلس على حد تعبيره وذلك سنة 606. فلزَمه نحواً من سنتين يَغترفُ من معارفه الجمّة ويتضلّع مما لم يكن عند غيره من مختلفِ الفنون . . وفي الوقت نفسه يجلس للطلبة يقرأون عليه اذ كان كما علمت تامّ التحصيل لم يلقَ في الأندلس من ينفرد دونه بفضيلة قبل الشيخ المذكور، ومن جملة ما قرىء عليه في هذه الفترة ديوانُ المتنبي في نسخة صحيحة كتِبَتْ من املاء أبي جعفر الحِمْيَري هذا . ويظهر من أحوال المراكشي التي ذكرناها أنّ الرجل كان ذا همّة عالية في طلب العلم وأنه كان مَعْنياً بلِقاء الشيوخ ذوي الرواية الوَاسعة والسَّنَد العالي ، ففي مراكش ما سمِع بوجود الوزير أبي بكر بن زهر حتى اقتحَم مجلسه وهو ابنُ اربعة عشر عاماً يُنصِتُ الى حديثه ويَرْوي من شعره ، وفي قرطبة لما ظفِر بالشيخ أبي جعفر لزمه وعكف على الأخذ عنه مدة تقرُب من السنتين لِما رآه من سعةِ علمه وعلوّ روايته ، فإنه قال في وصفه « ما رأيتُ أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكر لحكاية تتعلق بأدب أو مَثل سائر أو بيتٍ نادر أو سجعةٍ مُستَحْسَنة مِنه رضي الله

عنه وجازاه عنا خيراً . » أدْرَكَ جِلة من مَشائخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعانه على ذلك طولُ عُمره وصِدْقُ محبته وافراط شغَفِه بالعلم الى ان يقول : « توفي في شهر صفر من سنة 610 ، وقد كمُلتْ له سِتٌ وتسعون سنة ، لم يبقَ في الاندلس أعلى رواية منه في كل ما يروى ولم أرَ قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحسن اختياره ومعرفته بعِلل هذه الصناعة اكثر إنصافاً منه ولا أسرعَ رجوعاً الى الحق . . »

فانظرْ كيف يُسجِّلُ وفاة شيخه عن سن عالية ، كما سجّلَ ذلك في كلامه على ابن زهر ، وانظر كيف ينص على انه لم يكن في الاندلس اعلى رواية منه ، فهذا الهُيَام الشديد عنده بلقاء الشيوخ والرواية العالية منذ ابتداء طلبه هو مما يشِفُّ عما له من نفس توّاقة الى الكمال لا تصِلُ الى درجة من العلم الا تطلعتْ لِما فوقها ، وهو الذي سيَحمِله فيما بعد الى مغادرة المغرب والرحلة الى المشرق كما فعَلَ من قبله كثيرٌ من أهل هذا الشأن مغاربة واندلسيين .

والى هنا لم نذكر من نشاط صاحبنا الا ما يتعلق بطلبه للعلم وجده في تحصيله وهو قد كان له منذ فتاء سِنّه نشاط اجتماعي لا يقِلُّ عن نشاطه العلمي عجّلَ بظهور شخصيته ، ومهّد له السبيل الى ربط علاقات كثيرة مع شخصيات كبيرة ، والوصول الى مقامات

عليا تنقطع أطماع أمثاله من الادباء الناشئين دونهـا ، وقد اعانه على ذلك ما بدا من نجابته المبكرة ، وما فطر عليه من شجـاعة أدبية تتمثل في إقدامه عـلى نقد الاشخاص والاعمال ، وإبداء رأيه فيما يعرض له من امور سياسية وغيرها بكامل الصراحة مـع اهتمامه بما جرَيات الامور وعدم عزوب الشاذة والفاذة من حركات رجال الدولة عنه . وهذه الصفات مـا اجتمعت لأحد الا كان َصدْرَ المجالس ومطمح الانظار ، ومن ثمّ كانت رغبة من اتصل بهم مـن الكبراء والامراء فيه شديدة ، حتى ان الامير أبا اسحق بن يعقوب المنصور وزير اخيه الناصر ، وواليَ اشبيلية بعد ذلك كان يقول له : « والله اني لأشتاقك اذا غِبْتَ عني اشدّ الشوق واصدقه . » وكان تعرفه الى هذا الامير في اشبيلية سنة 605 أي في رحلته الاولى الى الاندلس وهو ابنُ اثنين وعشرين سنة بواسطة احد اصدقائه من الكتاب اسمه محمد ابن الفضل ، هو الذي اوصله اليه ، فأنشده المراكشي حين لقِيَه قصيدة من نظمه يمدحه بها ، قال فاستحسنها رحمه الله وبالغ في الثناء عليها تفضلاً منه وسؤدداً . ويظهر أنه التحق بخدمته من يومئذ لانه داخله اشد المداخلة ، ونشأت بينهما علاقة متينة مِما جعل الامير يقول فيه كلمته السابقة .

وصاحبنا المراكشي يقول عن الامير : « كان لي رحمه الله محباً وبي حفِياً ، وصلتْ اليّ منه اموال وخلع َجمّة غير مرّة » بل انه ليعلن

عن رأي سياسي خطير له في هذا الامير فيقول انه خير ولد يعقوب المنصور واجدرهم بالامر ، لو كانت الامور جارية على إيثار الحق واطراح الهوى . . هذا مع ان الناصر كان ولي العهد بويع له في حياة ابيه ، وظهر منه عند ولايته من الحزم والشجاعة وحسن التدبير ما هو معلوم ، وإنما خانه الحظ في وقعة العقاب فانكسرت نفسه للهزيمة الساحقة ، ويشير المراكشي الى خلتين كانتا فيه وهما لثَغ لسانه والبخل ، فلعله وهو الاديب الذي صناعته الفصاحة وعيشه مِمّا يتفضل عليه به اهل الكرم والجود من امراء وغيرهم انما فضّل مخدومه الامير ابا اسحق على اخيه الخليفة الناصر لاتصافه بنقيض الخليتين المذكورتين في الفصاحة والكرم .

وكانت للمراكشي علاقة مودّة ايضاً بالامير يحيي بن يوسف بن عبد المؤمن اخ الخليفة يعقوب المنصور ، فانه لما ذكره في جملة اولاد يوسف قال : « كان يحيى هذا رحمه الله لي صديقاً ، ومن جهته تلقيت اكثر اخبارهم ، لم ارَ في الملوك ولا في السوقة مثله رحمة الله عليه ، وما استجزت لفظة الصداقة مع ان الواجب لفظُ الخدمة إلا لِما كان رحمه الله يكتب اليّ : « اخي وصديقي في بعض الاوقات ووليّي في بعضها اجتمعت عندي بخطه رقاعٌ كثيرة خلع عليّ فيها فضله ، وحلّاني بما لم أكن استحقه » وفائدة هذا الخبر مهمة جداً لأنها من جهة تؤكد ما قلناه من انه كان ذا شخصية محببة مرغوب فيها ممن

عرفه من ذوي الحيثيـــات ، ومن جهة اخرى تدلنا عـــلى مصدر المعلومات الدقيقة التي يعطيها عن بني عبد المؤمن من ملوك وأمراء وأميرات وأصهارهم وكل من له صلة رحم بهم ، حتى ليظنّ أنـه يمت اليهم بقرابة وما هو الا حب الاطلاع الذي جُبلَ عليه ، وإفضـاء هـــذا الامير اليه بتلك الانباء المضبوطة عن افراد أسرتهم ، ومـا لكل واحد منهم من فضائل ونزوات ، على انه لم يكن يستخبر من هذا الامير وحده ، فان اخوته محمداً واسحق فضلاً عن ابراهيم مخدومه وصديقه كلهم كانوا مصادر خبر له ، تمده بالتفاصيل الكافية عن كل ما يهمّه من هذا الشأن فقد قال في اثناء الحديث عن يوسف بن عبد المؤمن : (أخبرني من لقيتُه من ولده كأبي زكرياء وابي عبد الله وأبي ابراهيم اسحق وغيرهم ممن لقيتُه وشافهتُه منهم انه كان أحسنَ الناس ألفاظاً بالقرآن الخ) فهو كما رأيت يستقي من كل مورد . وغريزة حب الاطـــلاع التي كان مفطوراً عليها تجعله يتساءل عن كل شيء ويستنبىء من كل احد . ولقد تشبت بسوس ثورة على الناصر سنة 597 قام بها رجل من جزوله ، فكان صاحبنا يتطلع الى اخبارها حتى وقع قمعُها . وجاءه كتاب بذلك من صديق له من ابناء العمال لم يكن بلغ الحلم بعد ، وهو نفسه في تلك الاثناء جاوز السابعة عشرة من عمره على ما عُلِمَ من سنة ولادته ، وكان توصله بذلك الكتاب قبل ان يصل خبر الفتح من طرف الجهـــات الرسمية المتولية لذلك ، وهو

سبق صحفي يسجله المراكشي بغاية الاهتمام اظهاراً لما كان له من علاقات متعددة ومن تتبع للحوادث السياسية في تلك السن المبكرة .

والخلاصة ان الرجل كان ذا مكانة اجتماعية مرموقة شق طريقها بنفسه ، وبما له من مواهب فكرية وخلقية نادرة ، فلم يزل يتوقل في مراقي المجد منذ نعومة اظفاره يصحب كبار العلماء ، ويخالط الكتاب الجلة ورجال الدولة ، حتى اصبح جليس الامراء ، وممن يحضر في بيعة الخليفة ويقابله مقابلة خاصة ، وقد عبر هو عن تطور حاله على هذا النحو بعبارات واضحة كقوله في الحديث عن علاقته بالامير ابي اسحق : ثم علتْ حالي عنده بعد ذلك نضّر الله وجهه الى ان كان يقول لي في اكثر الاوقات : والله اني لأشتاقك اذا غبت عني أشد الشوق الخ.

ولما ذكر بيعة الخليفة يوسف الثاني وكانت يوم الخميس 11 شعبان سنة 610 قال : (وبويع البيعة الخاصة يوم الخميس ويوم الجمعة بايعه اشياخ الموحدين والقرابة ، وفي يوم السبت أذن للناس عامة ، شهدتُ ذلك اليوم) وهو يعني بالبيعة الخاصة تقديمه للخلافة من طرف بعض اعمامه وبعض زعماء الموحدين عند الفراغ من دفن ابيه يوم الخميس ، ويوم الجمعة بايعه بقية القرابة واشياخ الموحدين ثم كانت البيعة العامة التي حضرها المراكشي يوم السبت مع طبقة الناس التي يحددها له مركزه الاجتماعي . ويقول في مقابلته لهذا الخليفة : (لقيته وجلستُ

بين يديه خالياً به وذلك في غرة سنة 611 فرايت من حِدّة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها اكثر السوق فكيف الملوك ما قضيتُ منه العجب) وهي مقابلة نظن ان بعض اصدقائه من الامراء وربما كان مخدومه أبا اسحق هو الذي سعى له فيها وعرف الخليفة بما له من المزايا ، ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا انه حدثه عما له من الآراء السياسية والافكار الاصلاحية ، فلذلك رأينا الخليفة يخلو به ويسأله عنْ جزئيات قلّ من يعرفها ، ولكن هذه المقابلة لم تكن لها نتيجة ايجابية بالنسبة الى صاحبنا ولا بالنسبة الى سياسة الدولة ، وقد كان الناس ينتظرون تغييراً في السياسة العامة تلافياً لتلك الانتكاسة التي مُنيَت بها الدولة على إثر هزيمة العِقَاب فلم يقع شيء من ذلك ، قال المراكشي عَقِبَ خبر المقابلة الذي رويناه عنه آنفاً (والى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يتوقع) .

ولما شعُر صاحبنا انه قد بلغ الغاية من الحظوة والتقريب لدى رجال الدولة وان الحياة بالنسبة اليه قد صارت رتيبة لا جديد فيها تاقتْ نفسُه الى الرحلة والى لقاء المشائخ والتكاثر من الرواية كما كان يفعل نظراؤه من ذوي الطموح والنّهم العلمي . . وحقاً انها لتضحية كبيرة أن يزهد في كل ماله من رفعة قدر وعزة شأن ، ويفارق الأهل والأوطان ، مغترباً في سبيل العلم والتوسع في الرواية الذي لا يَحصُل الا بالتوسع في الرحلة ، ولكن من خطب العَلياء لم

ُيغلِه المهْر . وهكذا نراه يُودع صديقه ومخدومه الامير أبا اسحق في آخر يوم من ذي الحجة متم عام 613 وهو اول وال على اشبيلية ولايته الثانية فيما يقول المراكشي ، فيفيدنا أنه كان ُعزلَ عنها فيما بين سنة 605 وهذه السنة ، ولعله لما كان في قرطبة ملازماً حلقة شيخه أبي جعفر الحِمْيري ، كان هـــذا الامير معزولاً عن ولايته . وتوجه المراكشي بعد مغادرته اشبيلية الى َمرْسِية ، ولعله منهـا أبحر الى مدينة تونس ، حيث أقام مدة ريثما تأتى له الإبحار الى مصر. نقول هذا لأنه يذكر وصوله الى تونس عن طريق البحر ، ولا يذكر مـن أين ركبه ويذكر دخوله اليها سنة 614 فيؤرخه بالسنة لا بالشهر ، وذلك ما يفيد بقاءه فيها بعض تلك السنة او كلها ، واما ذهابه الى مصر بحراً فلانه يذكر أنــه لم يدخل من بلدان افريقية غير تونس ، ولو كان سافر الى مصر براً لمرّ في طريقه اليها بمدن كثيرة ، ولعله لم يجد في تونس ما يرغبه في زيارة بقية المدن الافريقية ، أو لعلّ الطريق البرّي لم يكن مأموناً وقتئذ لِما ُعلِمَ من َعيْثِ الأعراب واضطراب الأمن في افريقية بسبب الثورات المتوالية آنذاك ، وعلى كل حال فانه توجه الى مصر بعد سنة على أكثر تقدير من حلوله بتونس ، وأقام بها بضع سنوات ، ففي سنة 617 يخبرنا أنه كان بالصعيد المصري ، حيث اتصلت به وفاة الامير أبي اسحق . ويتحدّث عن بعض الثوار بالمغرب فيقول ان خبر الظفر به بلغه وهو بالديار المصرية سنة 618 ، وفي سنه 619 وكان لا يزال بمصر حيث علم بوفاة بعض الكتاب .

ولا شك أنه كان خلال هذه السنين يتّصل برجال العلم والادب وأهل الرواية والحديث ؛ يأخذ ويعطي ويستفيد ويفيد وإنما لم يحدثنا عن نشاطه في مصر وفي بلاد المشرق عامة لأن كتابه موضوع لأخبار المغرب فلا مجال للحديث عن غير ذلك ، وقد كان وهو في المغرب يتشوّف الى اخبار المشرق ورجاله الأعلام وخاصة منهم أهل الادب ؛ فإنه لما ترجم للكاتب محمد بن عبد ربه قال : (وله رحمه الله رحلة الى مصر لقي فيها ابن سناء المُلْك ، وأخذ عنه من شعره ، وهو أوّل من سمعتُ يذكره عندنا ويَروي شعره .) فها هو ذا في مصر ، موطن ابن سناء الملك ، فليَلْقَ أعلامها وادباءها وليَرْوِ ما شاء من اخبارهم وأشعارهم فهو لذلك ارتحل ، ومن أجله اغترب .

وتنتهي اقامته في مصر فنلتقي به في الحجاز سنة 620 يؤدي فريضة الحج ويأخذ الحديث عن أئمته الاعلام ، ففي الفصل الذي ذكر فيه فضل المغرب من كتابه المعجب نجده يروي حديث « لا يزالُ أهل المغرب ظاهرين على الحق » من طريق محمد بن أبي الفضل الشَّيْباني سماعا عليه بمكة في رمضان من هذه السنة ، وذلك مما يؤكد لنا أنّ رحلته كانت لهذا الغرض النبيل وهو لقاء الشيوخ والتوسع في الرواية ، ونلاحظ أنه هنا لما كان البساط ملائماً لسياق بعض مروياته عن مشائخه الذين اخذ عنهم في المشرق لم يتردد في إيراد ذلك على السَّنن المعروف والاصطلاح المعهود ، فهو إذن ما أغفل

ذكر نشاطه الذي من هذا القبيل في المشرق ، إلا لعدم المناسبة، وفي كتابه كله لم يذكر شيئاً إلا بمناسبته .

وتحلُّ سنة 621 فاذا بصاحبنا في بغداد في خدمة أحد وزراء الخليفة العباسي الناصر لدين الله . ويسأله هذا الوزير أن يؤلف له كتاباً في أخبار المغرب وتقويمه وسير ملوكه وخصوصاً بني عبد المؤمن من لدُن ابتداء دولتهم الى هـــذه السنة ، فيجيب السؤال ويؤلف كتابه المعجب . وهذه قصة تكرَّرتْ مِراراً ، ما سافر أحد رجال الفكر من المغرب إلى المشرق وتحدَّث بأخبار بلاده وما لاهلها من تفوق في العلوم والآداب إلا وُطلِب منه أن يقيم الحجة على ذلك بتأليف كتاب في الموضوع .

هكذا كتب أبو عبد الله الحُمَيْدي في بغداد نفسها كتابه (جذوة المقتبس في اخبار وُلاة الأندلس) وكتب أبو الخطاب ابنُ دِحْيَة في مصر وفي نفس هذا العصر كتابه (المطرب من اشعار أهل المغرب) وكتب ابو العبـــاس المقّري في دمشق موسوعته الأندلسية الضخمة (كتاب نفْح الطيب من غصن الاندلس الرَّطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب) فالمراكشي الذي كان احد هؤلاء الرسل الغيارى على سمعة بلادهم ، لم يتردد وقد طلب منه كتابة تاريخ للمغرب على سبيل التعريف به في ان يقدّم وثيقة لا تاريخاً فحَسْب تشهد بعظمة

المغرب في الميدان السياسي والحربي والاقتصادي والثقافي مع الإلمام بوصف طبيعة البلاد وموقعها الفريد ، وجمالها الفتان ، وإنا لمدينون لهذا الوزير الاديب باصطناع صاحبنا وحمايته وحمله على تأليف هذا الكتاب الذي كان في زمن وضعه هدية المغرب الى المشرق ، فأصبح في زمننا هذا هدية المشرق الى المغرب ، لانه عرّفنا من تاريخنا ومن دقائق اخبار ملوكنا ، ومن حضارتنا وتقدمنا العلمي والادبي ما لولاه لكنا نجهله تماماً ، وحسبك منه هذه الصفحات البيض في حياة يوسف بن عبد المؤمن ، وما بذل من سعي محمود في سبيل تقدّم المباحث العلمية والفلسفية على الخصوص ، وما كان من اخذه بضبع الفيلسوف ابن رشد ، وندبه الى شرح فلسفة أرسطو ، تلك الشروح التي كانت اساس النهضة العلمية بأوروبا في عهد الانبعاث ، فان هذه المعلومات القيّمة كلها مما انفرد به تاريخ المراكشي ولولاه لبقيت في حكم المجهول . . على أن تاريخ الموحدين عنده وهو القسم الثاني من الكتاب كله من هذا القبيل ندرة وطرافة ، وخاصة الناحية الفكرية مما لا نجده عند غيره من المؤرخين لهذا العصر الا قليلاً جداً . والسبب في ذلك أنه كان يكتب عن مشاهدة حسيّة ، ومعرفة يقينيّة بما كان له من صلة متينة مع رجال الدولة وامراء البيت المالك فضلاً عن روحه الادبية وحساسيته الفنية التي تجعله يلاحظ ما لا يلاحظه غيره ، ويهتم بالاشياء الدقيقة التي يكون لها ميزان ثقيل في تقدير الاشخاص والاعمال وهي لا تثير انتباه الرجل العادي من الناس

وكذلك القسم الأول من المعجب ونريد به ما كتبه عن تاريخ الاندلس على عهد الخلافة الاموية ، وملوك الطوائف ، ثم على عهد المرابطين ، مما كان اعتماده فيه على محفوظه أو على بعض المصادر القليلة كجذوة الحميدي ويتيمة الثعالبي هو مما لا يقلُّ أهميّة عن تاريخه للموحدين لانه لم يثبت فيه الا العيون من الانباء والآداب ، والفصول التي كتبها عن حياة المعتمد ابن عبّاد وأدبه ونكبته في هذا القسم هي مما لا كفاء له في الحسن . ومن ثم كانت فائدة الكتاب الخبرية والادبية لا تقدر بقيمة ، ولقد اعتمد عليه المستشرقون وخاصة دُوزي اعتماداً كاملاً في كتابته تاريخ الحياة الفكرية بالأندلس ، وُحقّ لهم ذلك ، فهو من المصادر ذات الاهمية الكبرى في هذا الباب ومـــا اشبهه بكتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن طباطبا من حيث التركيز وجمعه بين المادتين الخبرية والادبية ، فكلاهما من هذه الحيثية ذو اهمية كبرى ، هذا بالنسبة الى المغرب وذلك بالنسبة الى المشرق . هذا وتنويهنا بقيمة الكتاب الخبرية والادبية لا يمنعنـا من القول انه يجب التثبت من صحة بعض تواريخه ، لانـــه وقعت لمؤلفه اغلاط في تاريخ بعض الحوادث المهمة بسبب اعتماده على الذاكرة وعدم رجوعه الى مصدر مختص إلا كتاب جذوة المقتبس للحُمَيْدي كما قلنا ، وهو كذلك مما كتبه صاحبه بالاستناد الى حفظه ، فلم يخلُ من اغلاط من هذا القبيل . ومن اغلاطه في وفيات الاشخاص مـا ذكره في وفاة صاعد الاديب البغدادي الشهير ، والمنصور بن ابي عامر

ويوسف بن تاشفين وحفيده تاشفين بن علي ، ومن اغلاطه في تاريخ الحوادث ما ذكره في تاريخ وقعة الزلاقة وتسمي يوسف واصحابه بالمرابطين ومبدإ اختلال احوال المرابطين ، ودخول الموحدين الى مراكش ، ومن اغلاطه في الاسماء قوله في ولادة بنت المستكفي انها بنت المهدي ، وخلطه في قضية عزل الكاتب محمد بن ابي الخصال ومن تولى ملك الموحدين من ولد يوسف الثاني بعد وفاته ، إلى هفوات اخرى تصحح من كتب التاريخ المضبوطة ، وهي بكل وجه لا تقدح في اهمية الكتاب الكبرى التي ذكرناها . لكن المؤسف هو ان النسخة الوحيدة التي توجد من المعجب والتي عليها جرى طبعه اول مرة في أوروبا وتتابع بعد ذلك في مصر والمغرب يقع بها خصاص بمقدار كراس كان يشتمل على بقية تاريخ الحكم بن هشام ومن بعده من ولاة بني أمية الى تاريخ الحكم المستنصر ، فصار الكتاب بسبب ذلك غير كامل ، ولئن كان ما فاتنا منه بسبب هذا البتر من اخبار بني أمية قد نجده في غيره من التواريخ ، فان ما يكون للمؤلف فيه من تعليق او انتاج او خبر شخصي ذكره عرضاً كما هي عادته هو مما لا يعوّض . ومع هذا كله فان الكتاب يبقى حجة بيد المراكشي على انه مؤرخ عبقري يعنى باللباب دون القشور ، وبالمهمات دون التافه من الامور ، ويعطينا في الوقت نفسه مادة ادبية غزيرة من انتاج صاحبنا تدل على رسوخ قدمه في الكتابة وتمكنه من ناصية الانشاء بطريقة الترسيل البليغ من جراء تقلبه على

ما نظن في خطة الكتابة عـــن الولاة والامراء الموحدين منذ نشأته ولذلك فهو في نظرنا من حيث الكفاءة الادبية كاتب بارع ، ولئن كان يتعاطى الشعر مع الكتابة ، فهو فيه ليس بذلك ، وعلى الاقل فان درجته فيه دون درجته في الكتابة، وقصيدته التي مدح بها الامير أبا إسحق وهو في عنفوان شبابه وقال انه اثنى عليها كثيراً هي ممّا ينبيء بضعف ملكته الشعرية . وهذا أولها :

لكُمُ على هذَا الوَرى التَّقديمُ ... وعَليهمُ التفويضُ والتَّسليمُ

اللهُ أَعلاكُم وأعلى أمْره ... بِكُمُ وأنفُ الحاسدينَ رغيمُ

أَحيَيْتُمُ المنصور فهو كأنَّهُ ... لَمْ تَفتَقِدْه مَعالِمٌ وعـــلومُ

ومَحابِرٌ ومَنَابِرٌ ومحَـــارِبٌ ... وحِمًى يُحاطُ وأرْمَلٌ ويَتِيمُ

وقد اعترف هو نفسه في تواضعه المعهود بعدم رضاه عنها ، وله فيمن اسمه فتح وجنّسه .

يا مَن لَهُ عن كِنَاسٍ ... مِنَ المُتَيَّم قَلْبُـــه

ما أَنتَ كَاسْمِك فَتْحٌ ... وإِنَّما أنتَ قَلْبُـــه

اما نثره فقد تقدّمتْ منه نماذج عديدة ، واليك منه هذا الفصل في وصف مدينة فاس : « ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علمُ القيروان وعلم قرطبة اذ كانت قرطبة حاضرة الاندلس كما كانت القيرَوَان حاضرة المغرب، فلما اضطرب امر القيروان كما ذكرنا بعَبَثِ العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني امية بعد موت ابن أبي عامر وابنه رحلَ من هذه وهذه من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة فنزل اكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة ، واهلها في غاية الكيْس ونهاية الظرف ، ولغتهم افصح اللغات في ذلك الاقليم وما زلتُ أسمع المشائخ يدعونها بغداد المغرب . وبحقٍّ ما قالوا ذلك ، فإنه ليس بالمغرب شيء من انواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب اليها ، وموجود فيها ، ومأخوذ منها لا يدفع هـذا القول احد من اهل المغرب . ولم يتّخذ لمتْونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لانها خير من مدينة فاس في شيء من الاشياء ، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة ، فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة ، والا فمدينة فاس احق بذلك منها ، وما اظن في الدنيا مدينة كمدينة فـاس اكثر مرافق وأوسع معايش واخصب جهات، وذلك انها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ويتخلل الانهـار اكثر دورها زائداً على نحو من اربعين عيناً ينغلق عليها ابوابها ، ويحيط بها سورها ، وفي داخلها

وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج الى شيء يجلب اليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه فانها لا تحتاج الى مدينة في شيء مما تدعو اليه الضرورة ، بل هي توسِعُ البلاد مرافقَ وتملؤها خيراً » .

ويقول في وصف القيروان : « وكانت القيروان في قديم الزمان منذ الفتح الى ان خرّبتها الأعراب دار العلم بالمغرب اليهـــا ينسب اكابر علمائه ، واليها كانت رحلة اهله في طلب العلم ، وقد ألف الناس في اخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ، ككتاب ابي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطُّبني وغيرهما من الكتب ، فلمـــا استولى عليهـــا الخراب كما ذكرنا تفرق اهلها في كل وجه فمنهم من قصد بلاد مصر، ومنهم من قصد صقلية والاندلس ، وقصدت منهم طـــائفة عظيمة اقصى المغرب فنزلوا مدينة فاس ، فعقبهم بها الى اليوم » .

اما قرطبة فيصفها قائلا : « وقد تقدم ذكر قرطبة وانها كانت دار ملك المسلمين ومقر تدبيرهم الى ان نشأت الفتنة واختل امر بني أمية بالاندلس ، وبلغت قرطبة هـــذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة ، حكى ابن فياض في تاريخه في اخبار قرطبة قال : « كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون

امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا مـــا في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها ، وقيل انه كان فيها ثلاثة آلاف مقلّس، وكان لا يتقلس (1) عندهم في ذلـــك الزمن الا من صلح للفتيا ، وسمعت ببلاد الاندلس من غير واحد من مشائخها ان الماشي كان يستضيء بسرج قرطبة ثلاثة فراسخ ، لا ينقطع عنه الضوء ، وبهـــا الجامع الاعظم الذي بنـــاه ابو المطرّف عبد الرحمن بن محمد المتلقب بالناصر لدين الله ، وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله . فزيادة الحكم معروفة الى اليوم » .

فهذه أوصافه للعواصم المغربية الثلاث تعطينا صورة واضحـــة من نثره المرسل البليغ الذي لا يتكلف فيه ولا يتخلف ، وقد اخترنا ان يكون المثال الذي نعطيه منه منوعاً وان كان في موضوع واحد لتَتَبين منه مقدرته وحسن تصرفه في التعبير عـــن مقاصده باسلوب سهل جميل ، ولتَتَبين أيضاً مكانة فاس وما بلغته في هذا العصر من الحضارة والعمران فضلاً عن جمالها الطبيعي وموقعها البديـع .

وبعد فقد كانت سنة 621 أخصب السنين في حياة صاحبنـــا المراكشي بسبب إنتاجه فيها لكتابه المعجب ، وهذا على ما نعرف عنه لحد الآن ، وقد يكون له انتاج آخر في غيرها من السنين، وإنما

(1) اي يلبس القلنسوة .

نحن لم نقف عليه كما أننا لم نقف له على خبر بعدها الى ان دخل في ذمة التاريخ وتغمده الله برحمته .

هذا وأرّخ الاستاذ خير الدين الزركلي في كتابه الأعلام ، الطبعة الاولى ، وفاة المراكشي بسنة 625 ثم في الطبعة الثانية جعلهـا سنة 647 اعتماداً على كتاب هدية العـــارفين لاسمعيل باشا البغدادي ولم يذكر هذا الاخير مستنده في ذلك .

كتب للمؤلف

خاصة بتاريخ المغرب وأدبياته

1) النبوغ المغربي في الادب العربي .

وهو تسجيل للمساهمة القيمة التي قام بها المغرب في بناء صرح الحضارة الاسلامية والحياة الفكرية العربية (يعاد طبعه الآن في ثلاثة اجزاء)

2) مدخل الى تاريخ المغرب .

بالخرائط والصور وهو يتضمن عرضاً شيقاً لتاريخ المغرب منذ عصور الجاهلية الى الآن . (الطبعة الثالثة).

3) امراؤنا الشعراء .

مجموعة من الشعر الجيد الذي قاله ملوك المغرب وأمراؤه من لدن الفتح العربي الى الآن .

4) المنتخب من شعر ابن زاكور .

وهو مجموعة من شعر هذا الشاعر المغربي الرقيق مشكولة ومشروحة ومصدرة بترجمة له واسعة . (نفد)

5) شرح الشمقمقية لابن الونان . (طبعة ثانية)

6) شرح مقصورة المكودي .

وهما قصيدتان عامرتان من المطولات مشروحتان بقلم المؤلف ومصدرتان بترجمة ناظميهما .

7) رسائل سعدية .

وهي مجموعة من الرسائل والظهائر السلطانية التي صدرت عن ملوك الدولة السعدية بأقلام أشهر كتابها . محققة مشكولة في مجلد .

مطابع دار الكتاب اللبناني

بيروت – ص. ب : ٣١٧٦

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

ذكريات
مشاهير رجال المغرب

بقلم

عبد الله كنون

مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني
للطباعة والنشر
بيروت

تصحيح أغلاط مطبعية وقعت
في الحلقة الثامنة والعشرين

ص	غ	ت
9	البلي	البليـغ
9	ضطراب	الاضطراب
10	من يولد له	من لم يولد له
16	الخليتين المذكورتين في	الخلتين المذكورتين من
17	في تلك الأثناء جاوز	في تلك الأثناء لم يكن جاوز
20	وهو أول وال	وهو وال
20	مَرسية	مُرْسية
20	وفي سنة 619 وكان	وفي سنة 619 كان

29



ويليه

بحث في أن ابن أبي زرع هو مؤلف الذخيرة السنية

ابن ابي زرع

مؤرخ ليس له تاريخ ، الخلاف في اسمه وفي كتابه القرطـاس ، منشأ الخلاف ،
هل هما قرطاسان ؟ القرطاس الذي بأيدينا هو لابن ابي زرع ، وَهمُ دائرة المعارف
في جعلهـا صالح بن عبد الحليم هو ابن ابي زرع ، من صالح بن عبد الحليم ؟
التحقيق في اسم المترجم واسم ابيه وكنيته ، ابو العبـاس ابن ابي زرع
من قرابته ، اسرته ومكانتها الاجتماعية ، حاله ، كتابه ازهار البستان .
مؤلف الذخيرة السنية ، حصيلته الثقافية ، صفاته واخلاقه ،
تحريه وتجرده ، التحقيق في وفاته ، قيمة القرطاس
العلمية ، نموذج من إنشائـه .

هذا الرجل على شُهْرتِه الواسعة ، واقتران اسمه بتأليف أمّ كتاب تاريخي للمغرب منذُ استقلاله عن الخِلافة العبّاسية إلى قيـام الدولة المَرينيّة ، لا نعرِفُ عن تاريخه شيئاً ولا عن حياته ولا حتى عن أُسرَتِه ، الاّ القليلَ الذي لا يُغنِي من معرفة ، بل اننا لَنَصْطَدِمُ بالجهل حتى لاسمِه والخلافِ فيه خلافاً ما نظن أنه وقع في اسم شخص أسدَى الى بلاده يداً كُبرى وعَارِفةً عظمى مثلَما فعل ابنُ أبي

زرع ، وإنه مع ذلك لـَمِنَ المَنْسيِّين ومِمّن لم يُحظَوْا بدراسة ولو خاطفة تكشفُ عن جانب من شخصيته المتمثلة في كتابه الفريد

لذلك فنحن سنُحاوِلُ أن نُجَلـّي بعضَ الغموض الذي يُساوِرُ هذه الشخصيةَ بالنظر فيما انتهى الينا من أقوال عن « السجِلّ المدَني » لصاحبها وحياتِه وتاريخِه ومُقَارَنَةِ تلك الأقوال بعضِها ببعض ، والحكمِ بما صحّ لدينا منها والاشارةِ إلى ما في كتابه من مَعَانٍ وأفكار تُميطُ اللـّثَامَ بعضَ الشيء عن ملامح وجهِه الذي بقي مُتحجّباً مدى أجيال . ولكنّ هذا لا يعني أننا سنَصْنَع ترجمةً لابن أبي زرع من لا شيء فما ادّعيْنا أننا وفـّيْنا حقّ الترجمة لأحدٍ مِمّن تتَواَفر عناصِرُ ترجمتهم فأحرَى لِمَن كان مثلَ صاحبنا يكادُ لا يُعرف اسمُه على وجه التحقيق . . وانما هي ذكرى من هذه الذّكـْرَيات التي نُحْيِيها لأعلام المغرب بما لدينا من إمكانيات محدودة ، ومعلومات ضيّقة وإن كانت لحدّ الآن هي أوسع ما كُتِبَ عن كثير منهم .

ولعل أول مُشكِل يُواجِهنا من المشاكل المتعلقة بترجمتِه وهو أحرَى بتقديم النظر فيه على غيره ، هو الخلاف الواقع في كوْنِه هو مؤلفُ كتاب القِرْطاس المعروف او غيره ، إذ بِحَلـّه يمكننا أن

نبُتُّ في غيره من المشاكل ، كاسْمِه ونسَبِه ، ونُقيم بعضَ معالم شخصيته التي لا نُلْفِيها إلاّ في ذلك الكتاب .

ومنشأ هذا الخلاف هو ما ورَد في كتاب السَّلْوَة للعلامة محمدْ بن جعْفر الكتّاني حين تعرّض لذْكرِ القِرْطاس في ثَبَت أسماء المصادر التي استَقى منها كتابه المذكور ونصه : « الأنيسُ المطرب وروض القِرْطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لصالح ابن عبد الحليم ، ومنهم من ينسُبه للشيخ الامام الواعظ الخطيب المفتي الولي الصالح الورع الزاهد أبي الحسن أو أبي عبدالله أو أبي العباس أحمد بن أبي زَرْع . والصواب أنهما اثنان الأنيسُ الصغير وهو للأول وكان فراغه من تأليفه عند وفاته في سنة ستة وعشرين وسبعمائة وألف كتاباً آخر سماه زَهرَ البُستان في أخبار الزمان أكبر من الأنيس . والانيس الكبير وهو للثاني ، وكانت وفاته في بضعة عشر وسبعمائة وكثيراً ما يتفقان فيهما في الاخبار بالمسائل . »

وهذا الكلام أصلُه لصاحب كتاب مشاهير أعيان فاس في القديم وهو مؤلّفٌ مجهول ذكره عرَضاً أثناء حديثه عن بيت بني أبي مدْيَن . ويحسن أن نُورِدَهُ هنا بلفْظِه ، ثم نُعقّب عليه بِبَيان ما فيه . وهذا هو بتمامه : « وقد ذكر ذلك صالحُ بنُ عبد الحليم في الأنيس المطرب وروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، وكان انتهاؤه من تأليفه هذا عند وفاته في سنة ست وعشرين وسبعمائة . .

وقد ألّف صالحُ بن عبد الحليم كتاباً آخر سماه زهر البستان في أخبار الزمان أكبر من الأنيس . والأنيسُ اثنان : الصغير وهو تأليف صالح بن عبد الحليم المذكور ، والكبير وهو تأليف الشيخ الكبير الامام الخطيب البليغ الواعظ الزاهد الوَليّ الصالح العلامة المدرس المُفْتِي أبي العباس أحمد بن أبي زَرْع ، تولّى الامامةَ والخُطبةَ بجامع القرويين بطلب العوامّ منه ذلك ، ولحَظَه الناس وطلبوا منه الاسْتِسْقاء فصلى لهم بخارج باب الفُتوح وقدّم بين يدَيْه آل النبي صلى الله عليه وسلم يسْتَشْفِعُ بهم كما فعل عمرُ بنُ الخطاب بالعبّاس رضي الله عنهما ، فسُقِيَ الناسُ وحمِدُوا الله على اجابة دعائهم . وكانت وفاةُ ابن أبي زرع في بضعةَ عشَر وسبعمائة ، وكثيراً ما يتّفِقَان فيهما في الإخبار بالمسائل . انتهى كلامه بحذف ما لا علاقة له بالموضوع وبتصحيح بعض العبارات اذ كان يغلِبُ عليه التحريف وَهلْهَلَةُ الأسلوب لعامّية صاحبه فيما يظهر . وعلى كل حال فهو يتضمن الدلالات الآتية :

1) أن هناك قِرْطاسَيْن اثنين صغيراً وكبيراً ، وهما لمؤلّفَيْن مختَلِفين ، فالصغير لصالح بن عبد الحليم والكبير لابن أبي زرع .

2) أن هذا القِرْطاس الذي بيدنا هو الصغير ، ومؤلفُه هو صالح ابن عبد الحليم ، بدليل أنه يذكر له من تأليفه كتاب زهر البستان في أخبار الزمان ، وهذا الكتاب ذكره مؤلف القرطاس الذي بيدنا

مراراً على أنه من تأليفه وأحال عليه في استيفاء بعض الأخبار التي اختصرها في القرطاس .

3) أن اسم صاحب القرطاس الكبير هو أبو العباس أحمد بن أبي زَرْع وكان إماماً وخطيباً بجامع القرويين فضلاً عن وصْفه بالشيخ الكبير والعلامة المدرس المفتي .

4) أن وفاة صالح بن الحليم كانت سنة 726 حين انتهائه من تأليف كتاب القِرْطاس الصغير على حين أن وفاةَ ابن أبي زرع قد سبقت ذلك فكانت في بضعةَ عشرَ وسبعمائة .

والأمر الأول غريب جداً فإننا لم نَر من ذكر أن هناك قرطاسين أو أنيسين اثنين أيْ كِتابَينْ في تاريخ المغرب ، مُتماثِلَيْن في المبتدأ والمنتهى ، ويتّفِقان معاً في الإخبار بالمسائل ، وهما مع ذلك يحملان اسماً واحداً .. إلا هذا المؤلف المجهول ، وحتى لو ذكرهما أحدٌ غيرُه لكان ذلك من الغرابة بمكان ، فكيف وقد انفرد هو بهذا الخبر مع جهْل شخصه ودلالة اسلوبه على عامّيتـه ؟ لا جرم أن تحُفَّ الشُبْهَةُ بقوله هذا ويكون الباحث المتثبت في حِلٍّ من الأخذ به ، لأنه من الجائز أن يكون اختلاف نسخ القرطاس هو الذي لَبّس عليه فظَنّ الكتاب الواحد كتابين .. وقد اختلفت هذه النسخُ بالفعل اختلافاً كثيراً كما يُشيرُ لذلك كلُّ الناشرين لكتاب القرطاس،

ونُقِلت عنه بعض العبارات بلفظ لا يوجَد في النسخة التي بأيدينا وإن كان معنَاها موجوداً فيها(1) .. وذلك حتْماً مما يُوقِع قارئه في الوَهْم وخاصة" إن لم يكن من أهل العلم كمؤلف كتاب مشاهير أعيان فاس .

وبخصوص الأمر الثاني نلاحظ أننا لا نجد بين أيدينا إلا قِرْطاساً، أو قُلْ أنيساً واحداً ، فاذا كانا اثنين مفروغاً منهما موجودين زَمن هذا المؤلف ، وهذا هو الصغير ، فأين ذهَب الكبير ؟ نَعم إن عدم الوجْدان لا يدل على عدم الوجود ، ولكن أين النقل عنه وهو مما تتَواَفرُ الدواعي اليه لا سيما في المسائل التي يكون أشبَع الكلام فيها أكثر من صِنْوِه الصغير ؟ إن هذا المؤلف كان يعيش في أواخر القرن التاسع لأنه من تلامذة أبي عبد الله القَوْري المتوفى سنة 872 والشيخ عبد العزيز الورياغلي المتوفىسنة (881) وإذَنْ فان الأنيس أو القرطاس الكبير كان لا يزال موجوداً إلى هذا الحين ، ولكن احداً

---

(1) مثال ذلك ان ابا بكر السيوطي ، وهو مؤلف مغربي مجهول ، في كتاب الانساب له نقل عن القرطاس ان الامام ادريس الثاني كان يدرس اثني عشر علماً وهو ابن اثنتي عشرة سنة .. واذا قرأنا يدرس بالتخفيف كان معناها يقرأ ويتعلم وهذا موجود في القرطاس الذي بأيدينا . اما اذا قرئت بالتضعيف من التدريس فذلك ما لا يوجد فيه ، وهو خطأ حمل بعضهم على نسبة ذلك للقرطاس الكبير .

من المؤلفين في التاريخ أو غيره لم يُعرّج على ذكره ، لا قبلُ ولا بعدُ ، ولم ينقل عنه شيئاً لا نجِدُه في هذا الصغير ، مما يُثبِتُ أن الكتاب واحد وان من حسِبَه اثنين انما اختلط عليه الأمر بسبب تعددُ النسخ واختلافها .

ثم ان كل من ذكر القرطاس أو الأنيس فانه ينسُبه لابن أبي زَرْع ، ولم نر من نسبه لصالح بن عبد الحليم غير المؤلف المذكور . . فهذا ابن خلدون في العِبَر ، وابنُ الخطيب في الإحاطة ، والجزنائي في زَهْرة الآس وابنُ القاضِي في الجَذْوة والمقّرِي في النفح والحلَبِي في الدرّ النفيس وحاجي خليفة في كشْف الظنون وعبد السلام القادري في الدرّ السّنِيّ والزّيَاني في الحادي المطرب والناصري في الاستقصا وابنُ جعفر الكتاني في الأزهار العاطرة الانفاس وغيرُهم من المؤرخين الأثبَات والنسّابين الحُفّاظ الذين لم نستحضرهم الآن كلهم ينسُبونه لابن أبي زرع وينقلون عنه نقولاً تتّفِقُ والنسخةَ الموجودة منه التي يقول صاحبها انه هو مؤلف الكتاب الثاني المسمى بزهر البستان في أخبار الزمان ، فكيف ندَعُ أقوالَ هؤلاء الأعلام جميعاً لقول مؤلف مجهول وهو مع ذلك مشكوك في علمه وتحقيقه ؟

أضِفْ إلى هذا اجماعَ أهل العلم من المُعاصِرين شرقِيين ومُستَشرقِين وعمُوم المثقفين ، على هذه النسبة فما يذْكُر أحد منهم كتابَ القرطاس إلا مقرُوناً باسم ابن أبي زَرْع ، ولا يذكُر هذا الاسمَ

الا ويشير إلى انه مؤلّف كتاب القرطاس .. بل العَجيب في الأمر أن صاحب السلوة الذي كان اول من أشار إلى كلام ذلك المـــؤلف المجهول هو نفسُه بعـــد اعتماده لذلك الكلام يعود فيذكر القرطاس منسوباً لابن أبي زرع في بعض المواضع من السّلوة ، أما في كتابه الأزهار العاطرة الأنفاس ، لـمّا كان لم يقِفْ بعد على كتاب مشاهير أعيان فاس فانه لا ينسُبه الا لابن ابي زرع .. ومثل هذا وقع لبعض من قفاه من المؤلفين المعاصرين في اعتماد ذلك القول الذي بينّا ضعفه ، فانه لم يفتأ أن ذكـَر القرطاس ونسبه الى ابن أبي زرع بعد التأكيد على صحّة القول المشار اليه في تأليفه . . وهذا إنْ دلّ على شيء فهو عدم الاطمئنان الى ذلك القول ، وأن العقل الباطن يبقى محتفظاً بما تقرّر لديه من نسبة القرطاس لابن أبي زرع فلا يلْبَثُ أن يعيد الأمر الى نِصابه ، بتأكيد تلك النسبة ولو عن غير وَعي .

وأغـْرب كاتِبُ ترجمةِ ابن أبي زرع في دائرة المعارف الاسلامية وهو الأستاذ رِيني بَاسّي فجعل الرجلين شخصاً واحداً ، وقال إن أبا الحسن (أو أبا محمد) عليّ بن أبي زرع الفاسي مؤلف القرطاس وزَهْر البستان يُسمّى أيضاً أبا محمد صالح بن عبد الحليم الغرناطي . وغالبُ الظن أنه صدَر في هـذه الترجمة الفارغة عمّا كـُتِبَ بأول ورَقـَةٍ من طبْعة فاس الحجَريّة للقرطاس – وكمْ له من مِثْلها – وهي أقوال مختلفة نقلَـها مُصحّح هـذه الطبعة من هنا وهناك من

غير أن يجزمَ بشيء فآلت عند كاتِب المادّة في دائرة المعارف إلى هذا التحقيق الغريب !..

وإذا كان الأمرُ كما ذكَرنا فمن يكونُ صالح بنُ عبد الحليم هذا وما الذي أقحَم به في هذا الخلاف ؟ جاء في كتاب مَفاخِر البربر المجهول المؤلف ما يلي : « ومنهم الشيخ الفقيه الصالح العالم التاريخي أبو علي صالح بن الشيخ الصالح الولي الزاهد الورع أبي صالح عبد الحليم ، نزيل نفّيس ، وهو يعيش إلى وقتنا هذا وهو سنة 712 ، وقد جمَع اللهُ له بين العلم والعبادة ، وخصّه بالفضل والديانة ، اشتهر بالعفاف ، واقتصر من الدنيا على الكَفاف مع الانقباض عن أهل الدنيا ، والحلول من الوَرَع في الدرجة العُليا ، إلى ما يتميّز به من الكرم والسّخا ، والطهارة والتُّقى . وتلك أوصاف السلف الصالح رضي الله عنهم .

ولوْلَا أنْ يُظَنَّ بِنا غُلُوّ لَزِدْنَا في المقال من استِزَادا

وقد سألتُه عن قبيلته فذكر لي أنه إيلانِيُّ النّسب ، وإيلان اسم رجل وهو إيلان بن مصمود أبو إيلانة بن مازيغ بن تميلا بن كنعان.

إن هذه على كل حال ترجمة لصالح بن عبد الحليم لَيْتَنا نظفَرُ بمِثلها لابن أبي زَرْع . وقد أفادتنا زيادةً على صلاحه وصلاح أبوّتِه أنه

كان عالماً تاريخياً فتلاقت ضمناً مع ما أفاده عنه صاحبُ كتاب مشاهير أعيان فاس الذي نسب اليه تأليفين مهمين في التاريخ يعرفها القارىء ولكنّ وصفه بالتاريخي لا يكفي لنسبة ذينك التأليفين له ، بل اننا نرى أنهما لو كانا له لما سكت مؤلفُ مفاخر البربر عنهما أو عن أحدهما ولنوَّه بذلك أعظمَ تنويه ، وحيث لم يرِدْ لهما ذكر في كلامه وهو معاصر بل مُداخِل لصاحبنا ابن عبد الحليم ، مُطّلِع على أحواله ، عارفٌ بحَسَبِه ونَسبه فإن هذه النّسبة تبقَى في أقل تقدير على ما كانت عليه من عدم الثبوت . وهذا لا يمنعُ أن يكون لصالح كتاب أو أكثرُ في التاريخ ألّفَه فيما بعد هذا الوقت الذي تحدَّث فيه عنه صاحب مفاخر البربر – كما يُمكِنُ أن يقال – إنما الذي يَجِبُ أن لا يُنسى هو أن هذا الكتاب لا بد أن يكون غير القرطاس حتى ولو كان اسمُه الأنيس وإلاَّ وقعنا في المحظور السابق ، وهو نَبْذُ كلام الأئِمَّة المَوْثُوق بهم واعتمادُ خبَر لا يُعرف قائِلُه .

وإذْ قد ثبَت الآن أن القرطاس واحد ، وأن مؤلفه هو ابن أبي زَرْع فمن هو إذن هذا المؤلف المعروفُ بهذه الكُنية ؟ ..

لقد تمنَّيْنا آنِفاً أن لو ظفِرْنا بترجمة لابن أبي زَرْع مثل الترجمة التي ذكرناها لصالح بن عبد الحليم عن كتاب مفاخر البربر ، فهي على ضآلتها تُعطينا معلوماتٍ مضبوطةً عن اسمه واسم أبيه وحاله ومحل

اقامته ، وهذا قَدْرٌ يهمُّنا أن نعرفه عن مترجَمنا على وجْه الصحة فلا نجِدُه ، لأنه قد اختُلِف في اسمه واسم أبيه اختلاف كبير ، وكذلك وقع الاشتباه في حالِه فمِنْ واصِفٍ له بالعلم والصلاح والفقه والإفتاء وما إلى ذلك ، ومن مقتصر لا يزيد على وَصفِه بالثقة والعدالة شيئاً . ولذلك فنحن إزاءَ هذا الاختلاف وهذا الاشتباه لا نملك إلا أن نُقارِنَ بين الأقوال ونُرجّح بعضها على بعضٍ فنأخذ بما تأكدَ لدينا ونَدع غيره حتى تأتينا الأيام ببينة تقوم حُجتُها على ما ينبغي الأخذ به .

فأمّا اسمُه فقد رأينا النص السابق عن كتاب مشاهير أعيان فاس يَجعَلُه أحمَدَ ومن ثمّ فهو يُكنّيه بأبي العباس ، وكنّاه الجزنائي في زهرة الآس بأبي الحسن ، وسمّاه علي بن عبد الله ، وكناه ابن القاضي في لقط الفرائد بأبي عبد الله ولم يُسمّه ، وكذلك الحلبي في الدر النفيس ، وقال هكذا وجدتُه ويقال أبو الحسن . على أن ابن القاضي في الجذوة عاد فكنّاه بأبي الحسن وسماه علياً . وعلى تكنيته بأبي الحسن وتسميته بعلي اقتصر في كشف الظنون وزاد فقال ابن محمد بن أحمد بن عُمَر بن أبي زَرْع .. وجمَع في السلوة هذه الأقوال كلّها فقال أبو الحسن أو أبو عبد الله أو أبو العباس أحمد ، ولم يتبع كنية أبي الحسن باسم عليٍّ اتكالاً على المتعارَف في ذلك ، وبمقتضاه على تكنيته بأبي عبد الله يكون اسمه محمداً وقد سمّاه بذلك مصحح الطبعة الحجَريّة الفاسية .

هذا ما وقع من الخلاف في اسمه ، وهو كما ترى مُتشعّبٌ جداً يحارُ المرء فيما يأخذ منه وما يذَر غيرَ أننا بعد إمعان النظر في ذلك اعتمدْنا أن اسمه علي وكنيته أبو الحسن وباقي عَمُود نسبِه هو كما عند صاحب كشف الظنون .. أما أولاً فلكثرة من كناه بأبي الحسن وسماه بعلي مِمّن ذكرناهم فضلاً عمن أغفلناهم من المعاصرين ، وأمّا ثانياً فلأن ما في كشف الظنون يدُلُ على مزيد علم بأحوال المترجَم ومما هو مُقرّر أن زيادة الثقة مقبولة فكيف مع الضبْط وعدم التردد والرجلُ كان واسعَ الاطلاع فلعله وقف على نسخ عديدة وصحيحة من القرطاس فيها تسميةُ المؤلف على النحو الذي ذَكره .. على انه لا أحد غيره ممّن ذكرناهم سمّى والِده بلْه جَدّه باستثناء الجزنائي الذي جعل اسم والده عبدالله وهو يحتمل أن يكون ابن أبي عبدالله فلا ندع قول حاجي خليفة له .

بَقِيَ القولُ في أبي العباس أحمد بن أبي زرع الإمام والخطيب بالقرويين الذي نسَبَ اليه صاحبُ مشاهير أعيان فاس كتابَ القرطاس أو الأنيس الكبير على حدّ تعبيره . ونحن نرى أن هذا غلط نشأ من اعتقاد أن القرطاس الموجود هو الصغير وهو تأليف صالح بن عبد الحليم ، وبما أنه ذكر أبا العباس أحمد بن أبي زرع في جملة خُطباء القرويين وأئمتها ، وقد عُلِمَ أن الأنيس الكبير أو القرطاس الثاني هو من تأليف ابن أبي زرع ، فان الذين لم يعرِفُوا شيئاً عن ابن أبي زرع

هذا جعلوه هو أبا العباس المذكور . وأقول الذين وأعـــني الذي ، وذلك لأن أول من َنسبه اليه وآخرَه منفرداً بذلـــك هو صاحبُ مشاهير أعيان فاس فيا أعلم ، والحجةُ لا تقوم به وحده لِما علِمت من أنه شخصٌ مجهول وأنه من الناحية العلمية ليس لذلك .

وليس هذا فقط فانّ ما وُصِف به أبو العبـاس بنُ أبي زَرْع سواء لدي هذا المؤلف او لدى َقرِيبِـه أبي الحسن بن أبي زرع في القرطاس من الحِلى العِلْمِيّة الضّخْمة لا ُيجامِعُ ما ثبّت لدينا عن الثقات في شأن صاحِبنا أَبي الحسن من أنــه لم يكن ُمشَاراً اليـه بالعلم وإنما كان من العُدول الذين لم يبلُغوا مقام الفتوى والتدريس .

زِدْ على ذلك ما قررناه سابقاً من إطْنباق المؤرخين والمؤلفـــين ُعموماً من نسبة القرطاس المَوْجُود بأيْدِينـا إلى ابن أبي زَرع ، وهو قد ذكر الامام الخطيب أبا العباس بن أبي زرع وحلّاه بما حلّاه به من الأوصاف المحمودة فكيف يعقل أن يكون هو صاحب الكتاب ويتحدّث عن نفسه بهذه الطريقة ؟ . .

والدليلُ الأقوى من هذا كله هو أنّ الجزنـائي في زَهْرة الآس ذكرهما معاً َفسَمّى المؤرخَ صاحب القرطاس بأبي الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع كما ألمعنا إلى ذلك قبلُ وسمّى الإمام الخطيب أبا العباس بن أبي زرع وحلّاهُ بالشيخ الفقيه القارىء . فلم يبق شك في أنه غيره وأنه أحدُ قرابته فقط .

والعجَبُ من العلامة القادري حيث ذكرَهُما معاً في الدر السني باسم ابن أبي زرع فحسبُ ولم يفرق بينهما مع أنه على ما يُذكَرُ في ترجمته الـّف في التعريف بصاحبنا المؤرخ رسالةً صغيرة لم نعثُر عليها ولا وَجدْنا عند من عثَر عليها عِلْماً زائِداً بحال المترجم .

ولعلنا بعدما طَرْقناه من هذه الأبحاث نستطيعُ أن نقول مُطمئنّين إلى نتيجتها أن الاسم الكامل لمؤلف القرطاس هو أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع الفـــاسي . وابن أبي زرع هو النسب الذي عُرِفَتْ به اسرتُه بدليل انه نفسَه هو نسبُ قريبـه الخطيب والإمام بجامع القرويين أبي العباس .. ويظهر أن هذه الأسرة كانت من أهل العلم والفضل وإن لم يبلغْنا عنها خبر غير ما ذُكِر ، وكفى بوجود هذين الشخصيتين منها في زمن واحد دليلاً على ذلك .

ولا يطمعُ قارِئنا في أن نذكر له تاريخ ولادة المترجم ولا شيئاً عن نشأته ، وقد رأى أننا لم نصل إلى معرفة اسمه إلا بعد عَرَقِ القِرْبَة . نعَم نُشِير إلى بعض أحواله التي تُفهَم من كلام الشّيْخ أحمد زَرُّوق جاء ذِكرُه فيه عرَضاً ، وهو قوله أولَ شرحه لنظم المباحث الأصلية : « مؤلف هذه الأرجوزة هو الشيخ الفقيه الصـالح الناصح أبو العباس ابنُ البنّاء السّرُقسْطِي ، لم يكن مشهوراً بالعلم مع ما له فيه من القَدَم الراسخ الذي دل عليه كلامُه ، فعُـدّ من عجائب مدينة فاس إذْ كان من عامّتِها ، وألـّفَ كابْن أبي زَرْع

صاحب التاريخ وغيره ، كذا ذكَر لي بعضُ عدولَ بلَـدِنا عن صاحبٍ له عَدْل ، وأنه (١) ألّف في التاريخ وذكَره بما قلناه . ولم نقِفْ على تاريخ وفاته ولا زَمانِه ، غير أن الظن الغالب بأنه قريب العهد رحمة الله عليه » .

هذا كلام زروق في ابن البناء السرقسطي ، ويهمنا منه تلك اللمحةُ التي وردت أثناءه عن ابن أبي زرع صاحب التاريخ وهي أنه أيضاً كان غيرَ مشهور بالعلم مع أنه ذو مكانة فيه ، وعُدّ من عجائب فاس إذ كان من عامّتِها وألّفَ الكتُب .. وهذا كلام كثيراً ما كان يتردّد على الألسنة فيُقال أن بعض عامة أهل فاس ربما كان أعلم من فقهاء غيرها من البُلدان .. ولم يَزِدْ زرّوق على أن أثبت هذه الحقيقة وأعطى الدليلَ الماديّ عليها من شخصيّتيْن كل واحدة منها ذاتُ قيمة علمية لا تُنكَر .

إنما الذي ينبغي أن يُعرف ، هو أن المراد بالعامّية هنا هو عدم الشهرة بالعلم والتصدُّرِ في مناصبه المعهودة كالتدريس والفتوى والقضاء أو على الأقل عدَمُ المشاركة في فنونه المختلفة ولا سيما علوم الآلة التي لا يتِمُّ علم العالم إلا بها وبتحقيقها . هذا هو معنى العامّية إذا أُطلِق عند العلماء ، ومنه يؤخذ انهم يَعنُون بالعوام في هذا الصدد

---

(١) الضمير لابن البناء كما لا يخفى .

الذين لم يُحصّلوا القواعدَ ولم يُتْقِنُوا الأصول وإن كانوا على جانب من العلم لا يُستهان به لا الجُهّالُ والأغمار كما لا يَخفى .

ومن هُنا نعلَمُ سِرّ عدم ذكر هؤلاء في كتُب التراجم والطبقات لأن أصحابها لا يعترفون بعَالميّة أمثالهم ، وهُم حين لا تكون لهم شُهرة بالعلم في زمنهم لا يجرأون على إظهار آثارهم فتضيع أخبارُهم ، وربما ضاعت آثارُهم أيضاً كما وقع لصاحبِنا ابن أبي زَرْع

وعلى كل حال فقد أفَدْنا من كلام زروق أن ابنَ أبي زرع هو صاحب التاريخ ، وناهيك بها . وأنه وإن كان من أهل العلم ، إلا أنه كان مغموراً ليست له شهرة بذلك ، وهذا في نظرنا هو السبب في ضياع ترجمته . ثُمّ إنه كان من عُدول فَاس على ما يؤخَذُ من كلامٍ آخر للحَلَبي في الدر النّفِيس ونصه :

« ومنهم الماهرُ ذو السرّ الباهِر عُمْدَةُ أهل المغرب في التاريخ الشهير بكتاب الأنيس والقِرْطاس وهو أبو عبد الله بن أبي زَرْع ، هكذا وجدتُه . ويقال أبو الحسن ، ذكره الإمام الوليُّ الصالح العارف بالله تعالى سيدي أحمد زرُّوق ، وتعجّب من صنيعه ، في شرحه أرجوزةَ أبي العباس ابن البناء وأثنى عليها . وحسبَهُ الإمام ابنُ خلدون فيمن حسبَهُ من الذين يُعتَمد عليهم في الأخبار في كتابه في أول المقدمة منه ، وذكَره ابنُ الخطيب السّلْماني في أول كتاب

الإحاطة مع من ذكَرْتُهم ايضاً . وكان فيما أُخبِرْتُ ثقة عدْلاً في سِماط العُدول من فاس عند الجامع القَروِيّ . وهو ذو علم وبراعة ولفظُه يدل على ذلك وصنيعُه في كتابه ».

هذا هو قول الحلبي فيه ، وقد ذكره أثناء تعرُّضه لمصادِر كتابه الدر النفيس ، ونلاحظ تحليتَه له بقوله : « الماهر ذو السر الباهر عمدة أهل المغرب في التاريخ » فانها تحلية دالّة على ما سبَق من عدم شهرته بعِلْم إلا بكتابه التاريخي . ثم نشير إلى أن قـوله : في شرحه ارجوزة أبي العباس بن البناء » يتعلق بقوله قبل ذلك : « ذكره الإمام ، الخ لا بِقَوله : « وتعجب من صنيعه » لِيــلّا يُفهَم منه ان للمترجم شرحاً على ارجوزة ابن البناء المسمّاة بالمباحث الأصلية في التصوف ، فإن العشّ ليس بعُشه .

وعلى هذا فليس للمترجم إلا كتاب القِرْطاس المعروف ، واسمُه الكامل « الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبــار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس » وكتاب زهر ويُقال أزهار البستان في أخبار الزمان » وهو المسمى ايضاً « ذكر الموجود من أخبار الوجــود » وكثيراً ما يُحيل عليه في القرطاس ويقول فيه « كتابنا الكبير » مما يدل على أنه تاريخ عام وأوسعُ من القرطاس ، إلا أنه يُعتَــبر في حُكم المفقود من قديم ، فكما انه لا وجود له اليوم كذلك لم نَر من

نقل عنه شيئاً او ذكره من قبل إلا صاحب مشاهير اعيان فاس، وهو قد ذكره منسوباً إلى صالح بن عبد الحليم كما علمتَ .

ثم اننا يمكن ان نعُدّ في مؤلفات صاحب الترجمة كتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية المجهول المؤلف بحسب ما استنتجناه من البحث الذي كتبناه في هذا الصّدد ونشرناه بمجلة تطوان العدد الثاني الصادر في سنة 1957) والذي نُذَيِّلُ به هذه الترجمة ، فإذا صحّ ذلك فإن كتب ابن أبي زرع حينئذٍ تكون ثلاثةً ، الموجودُ منها اثنان .

وعلى كل حال فإن الحَصِيلَة الثقافية التي للمترجم هي التاريخ، والتاريخ المغربي بالخصوص ، يضاف إلى ذلك قدرٌ صالح من علم الفقه وصناعة التوثيق والحساب مما يقتضيه انتصابُه لوظيف العدالة أيْ الشهادة .. وقد عهِدنا في العدول ولا سيما المُبرِّزين منهم الاعتناء بفَنّ الإنشاء وتحسين الخط ومن ثَم فانهم يتوفّرُون على مادة أدبية ولُغَوية لا بأس بها . وإلى هذا نعزُو ما نجده عند صاحبنا من عبارات مُنتقَاة وجُمَل بَلِيغة وحسبُكَ منه هذه الخطبة البارعة التي جعلها لكتابه القرطاس .

فنَحنُ لا نذهب مذهب الذين وَصفُوا أسلوبَه بالهَلْهَلَة وألفاظه بعدم الفصاحة ، وإذا وقع شيء من ذلك في كتابه فإنه يرجع إلى

اختلاف النصوص وتبايُن مَراتِب الذين نقل عنهم من المؤرخين في صياغة الكلام .

ومما يدل على سلامة ذَوْقه الأدبي هذه الأسماء التي يتخيَّرُها لكتُبه فيُوازِنُ بين سجعَاتها ويتَخيَّل فيها تخيُّلا شعرياً جميلا كاسم الأنيس المطرب برَوْض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، وكاسْم أزهار البُستان في أخبار الزمان . . ومن اللَّطيف أن نشير هنا إلى ما زعمه الأديب أكنسوس في كتابه الجيش العرمرم من أن لفظ القرطاس كان لقباً لابن أبي زرع لا اسماً لكتابه أي مختَصرَ اسمِه ، على أنه إن صحّ هذا الأمر فإن ذلك الإسم يصير أكثر بلاغةً إذ يكون قد ارتكب فيه البديع المُسمّى بالتورية . وتتعزّز هذه الناحية الثقافية في المترجم بالمُيُول الأخلاقية فتَبْدو مَعالِمُ شخصيته واضحةً جليَّةً كأن بيننا وبينها صِلةً وطيدة وعهداً قديماً .

ومن أبرز صفاتِه الإيمانُ العميق ومحبّةُ أهل البيت وتعظيم العلماء ومشائخ الدّين ، وتجد شواهد ذلك مثبوتةً في مواضع كثيرة من كتابه كهذه الصفَحات الخالدة التي كتبها في تاريخ بناء القرويين والزيادات التي زيدت فيها على مرّ القرون والإصلاحات التي أُدخلت عليها ولائحة أسماء الأئمة والخطباء الذين تعاقَبُوا على مِحْرابها ومِنْبَرِها منذ تأسيسها وما يُسبِغُ عليهم من تقدير وإعجاب لِما اتّصفوا به

من الديانة المتينة والورَع والزهد والإخلاص مما لا نجِدُه عند غيره إلا عندَ ناقلٍ عنه لا يعدو ما عِندَه . ودَلالةُ هذا على إيمانه العميق مما لا يخفى ، وكذلك حديثه عن مجيء الإمام إدريس بن عبد الله إلى المغرب وقيامِ دَولة الأدارسة وبناءِ الإمام إدريس الثاني لمدينة فاس وما وَضع اللهُ في هذه المدينة من بَركة آل البيت ثم ما آل اليه أمرُهم بعد ثورة مُوسَى بن أبي العَافِية عليهم والعطف الذي يُحِيطـُهم به في نُكبَتِهم هذه ، كلُّ ذلك مما يعضُد ما قلناه في هذا الصدد ، ولا نغفُل عما تضمنه كتابُه من تتبع أخبار العلماء والصالحين وذكر وفياتهم وفضائلهم ومنَاقِبهم فإنه أيضاً من هذا الواد .

ومن صِفاتِه الاعتدال وعدَمُ التطرُّف فهو قد تكلّم أصلاً وعرَضاً على زُهاءِ عَشر دُوَل ومع ذلك لم ينَلْ من واحدة منهن مَنالاً ولم يُظهِرْ تَحَيُّزَه السافِرَ لواحدة منهن إلا ما كان من عطـْفِه على الأدارسة كما قلنا وعيْبِه على موسى بن أبي العافية تنكيلَه بالأشراف ، وقد كان في هذه الدول السُّنية والشيعيّة والعَربيّة والبربرية وغير ذلك ، وهو ينقُل من كتُبٍ مختلفة المشَارب والمذاهب ، ولكنّه بقِيَ محافظاً على خطته ولم ينقُل إلا ما يُوافِق مَنزَعه . وهو في النقول عجيب لأنه يختارُها أحسن اختيار ويُنزّلُها في محلها أحسن تنزيل ، ولقد أفادنا كثيراً بنقوله

هذه التي لم نكُن لِنظفَر بها لولا تضْمِينُه لها في كتابه ، لأن الكتب التي نُقِلتْ منها تُعتبر الآن في طَيّ العَدم .

وبعد استيفاء الكلام على النقطة الثانية مما تضمّنه نصُّ كتاب مشاهير أعيان فاس المتعلق بصاحبنا نختِمُ القول بالنظر في النقطة الرابعة وهي المتعلقة بوَفاته . فقد أشار ذلك النص إلى وفاة صالح بن عبد الحليم وجعلها سنة 726 عند انتهائه من تأليف الأنيس الصغير أي القرطاس الذي بيدنا ، وقد علمتَ أن هذا ليس من تأليف ابن عبد الحليم بل هو من تأليف صاحبنا ، كما أشار إلى وفاة أبي العباس أحمد ابن أبي زرع سنة بضع عشرة وسبعمائة ، وهو أيضاً على ما علمتَ غيرُ صاحبنا لأن هذا اسمه أبو الحسن عليٌّ ابن أبي زرع .. وقد كان من السهل أن يُعتبر تاريخ وفاة ابن عبد الحليم هو تاريخ وفاة أبي الحسن بن أبي زرع لا سيما والأنيس الصغير أو القرطاس الذي حققنا أنه له قد تمّ فعلاً في ذلك التاريخ .. ولكن المؤرخ الحافظ أحمد بن القاضي قد أثبتَ لنا تاريخ وفاة صاحبِنا في كتابه الصغير لَقْط الفَرائد من حِقَاق الفوائد أيْ وفياتِه التي ذيّلَ بها وفيات ابنِ الخطيب القُسَنْطِيني المعروف بابن قُنْفُذ فقال في سنة 741 بعد أن ذكر عدداً من المُتَوَفّين بها :

« والكاتب المؤرخ أبو عبد الله بن أبي زرع صاحبُ تاريخ فاس » فإذاً إن حياة صاحبنا قد امتدت إلى ما بعدَ التاريخ الذي انتهى

فيه تأليفُه خمسَ عشرَة سنةً . وهذا هو تفسير ما يُقال من أن بعض نسخ القرطاس تمتدُّ فيها الحوادث إلى سنة 732 كما في دليل مؤرخ المغرب .

أما أنه كناه بأبي عبد الله فقد تقدمت الإشارة لذلك وهو لا يضر مع التنصيص على أنه ابن أبي زرع صاحب التاريخ .. ومن المحتمل أن تكون هذه كنية ثانية له لا سيا وهو لم يُغفِل كنيتَه المشهورة أعني أبا الحسن فإنَّ بها ذكرَه في الجذْوة .

هذا ما تهيأ لنا كتابتُه من ترجمة ابن أبي زرع ، أو من تخطيطنا على الأصح ، راجين أن نكون أصبْنا فيه كبد الحقيقة ، وان يكون نقطةَ البَدْء في كتابة ترجمة مستوفاة له على قدر عمَلِه العظيم في خدمة تاريخ المغرب ، وذلك عندما يقعُ الاهتداء إلى مصادر جديدة تلقي ضوءاً كاشفاً على حياة هذا الجُندي المجهول .

بقي أن نقول كلمةً في كتابه القرطاس وقيمَتِه التاريخية وإن كان ذلك من الخَبر بمعلوم عند المشتغلين بهذا الفن ، إلا أنه ليس كلُّ الناس من المشتغلين بالتاريخ حتى يُقدّرُوه حقَّ قدْره ، ونحن نكتب هذه التراجم لِعمُوم المثقفين فكم منهم لم يُتَحْ له الاطلاع على هذا الكتاب القَيّم ولا أن يتّخِذَ عنه نظرةً ولو سطحية .

ان مَصادِرَ التاريخ المغربي قليلةٌ جداً وهي على قِلّتها نادرةٌ

الوجود بل أكثرُها يُعَدُّ في حكم المفقود . هذا حكم لا يُنازِعُ فيه أحد من الباحثين المُعْتَنين بهذه الناحية من المباحث العلمية ، وكُلَّما أوغل الباحثُ في عصور التاريخ البعيدة منّا كُلَّما ازدادَ يقيناً بهذه الحقيقة ، وصار يخبِطُ في مجاهل تلك العصور على غير هُدىً وَنحْصُرُ الكلام في التاريخ الإسلامي للمغرب تحريراً للمَنَاط فنجد أن زُهاءَ أربعة قرون منذ أشرقت شمسُ الإسلام على هذه الربوع لا تاريخَ لها بيَدِنا نرجع اليه ونعتمده في معرفة حوادث الأجيال المتعاقبة في تلك المدة الطويلة والدول التي حكمت المغرب أثناءها .

وليس معنى ذلك أنه لم يُكْتَب لهذه الحِقْبَة البعيدة المدَى تاريخ مُطلقاً ، بل الواقع أن هناك تواريخَ عديدة وضعَها أصحابُها في ذلك الوقت أو ما يُقارِبُه ، ولكنها فُقِدت ودخلت في خبر كان ومن جُملتِها تاريخُ الورّاق ، وتاريخ البُرْنُسي ، وتاريخ ابن جنّون وغيرهم ، فإذا قلنا أن ابن أبي زرع قد اطّلَع على هذه التواريخ ونقَل زُبْدَتها علِمْنا حينئذ القيمةَ العظيمة التي لتاريخه والفراغَ الكبير الذي سدّه كتابُه القرطاس .. وقد ظلّ فعلاً إلى يومنا هذا هو التاريخ الوحيد لدولة الأدارسة وبني أبي العافية ومَغْراوَة وبني يَفْرَن والمُرابطين والموحّدين وأوائل المرينيين إلى أيام أبي سَعيدبن يعقُوبَ المنصور منهم ، أيْ من قيام الدولة الأدريسية سنة 172 إلى سنة 726 وهي مدة تنيفُ على خمسة قرون ونصْف قرن ؛ تدخُل فيها الحِقْبَةُ التي ليس لها بأيدينا تاريخ خاص وما بعدها من تاريخ

الموحدين الذي عندنا مما وُضع فيه كتابُ المعجب للمراكشي ، ثم ما بعد ذلك من تاريخ المرينيين إلى زمن المؤلف ، وذلك باستثناء التواريخ العامة كتاريخ ابن عذارى وما أُلّف بعده كتاريخ ابن خلدون وهي مع ذلك لا تستوعبُ استيعابَه في كثير من المسائل .

ومن الجدير بالتنبيه عليه أنه قصّر تاريخه على المغرب الأقصى بحدوده المعروفة ، ولم يفعل ما فعلَه غيرُه ، كصاحب المُعجِب وابن عذارى وإن كانا مغربيَّيْن من التعرُّض لدُوَل افريقية والأندلس إلاّ ما دعتْ الضرورةُ اليه حين كانت هذه الدول تتدّخلُ في شؤون المغرب أو تتصدّى لحربه .

وأعجبُ من هذا أنه افتتَح تاريخَه بالكلام عن الدولة الادريسية مُباشرةً من غير تمهيد ولا مقدمة في ذكر فتْح المغرب وعهْد الوُلاة فهل يعني هذا أن فكرةَ الوطنية المغربية والاستقلال عن دولة الخلافة كانت من المبادىء المُسَلّمَة لديْه ؟ . .

ونُنهِي هذا الوصفَ لكتاب القرطاس باعطاء نُموذَج منه يطلِعُنا على أُسلوبه الإنشائي وطريقةِ تناوُله للموضوع ، وليكُن هذا النموذج هو وصفُه لمدينة فاس . قال :

« لم تزلْ مدينَةُ فاس من حين أُسّسَتْ دارَ فِقْه وعِلْم

وَصلاحٍ ودِينٍ ، وهي قاعِدَةُ بلاد المغرب وقُطْرُها ومَرْكَزُها وقُطْبُها ، وهي كانت دارَ مملكةِ الأدارسة الحسَنيّين الذين اختطُّوها ، ودارُ مملكة زِناتَة من بني يَفْرَن ومَغْراوة وغيرهم من ملوك المغرب في الإسلام ، ونزَلها لَمْتُونَة في أول ظهورهم على المغرب ثم بَنَوْا مدينة مرّاكُش فانتقلُوا اليها لقُرْبها من بلادهم بلادِ القِبْلَة فأتَى الموحدون بعدهم فنزَلوا مرّاكُش واتخذوها دارَ ملكهم لِقُرْبها من بلادهم ، وكوْنِها مبنيةً في جِوارهم وبين قبائلهم ومدينة فاس لم تزَل أمَّ بلاد المغرب في القديم والجديد ، وهي الآن قاعدةُ ملوك بني مَرِين أطال الله أيامهم ، وأعلى أمرَهم ، وخلّد سلطانهم ، فهي منهم في المحل الرفيع ، والشكل البديع ، وقد جمعت مدينةُ فاس بين عُذُوبة الماء ، واعتدال الهواء ، وطِيب التُّرْبة وحسن الثمرة وسَعَة المحْرَث وعظيم بَرَكته ، وقُرْب المحطَب وكثرة عدَده وشجَره ، وبها منَازِل مُؤنِقَة ، وبساتِين مُشرقَة ورياض مُورِقة وأسواق مرتّبة مُنسّقة ، وعُيُونٌ منهمرة ، وأنهارٌ متدفقة منحدرة وأشجار مُلتفّة وجنات دائرة بها مُحتَفّة ، وقال الحكماء أحسنُ مواضِع المدن أن تجمع خمسةَ أشياء وهي النهر الجاري والمحرَثُ الطيب والمحْطَب القريب والسُّور الحصين والسلطان ، إذْ به صلاح حالها وأمْنُ سُبلِها وكفُّ جبابرتها ؛ وقد جمَت مدينةُ فاس هذه الخصالَ التي هي كمال المُدن وشرَفها ، وزادت عليها بمحاسن كثيرة نذكُرها بعدُ إن شاء الله تعالى . فلها من المحْرَث العظيم سَقْياً وبعلاً

على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب ، وعليها المَحْطَبُ في جبل بني بَهْلول الذي في قِبلَتِها يُصبِحُ كلَّ يوم على أبوابها من أحمال حطب البلّوط والفَحْم ما لا يوصَف كثرةً ، ونهرُها يشقّها نصفَين ، ويتَشعّب في داخلها أنهاراً وجداولَ وخُلجاناً ، فتتخلل الأنهارُ ديارَها وبساتينَها وجنّاتِها وشوارعها وأسواقها وحمّاماتِها ، وتَطحَنُ به أرحاؤها ، ويخرجُ منها وقد حمَل أثقالها وأقذارها ورَماداتها وقد أنشد الفقيه الصالح الزاهد أبو الفضل ابنُ النّحوي في مدحها ووصفها :

يا فاسُ منكِ جميعُ الحُسْن مُسْتَرَقُ
والسَّاكِنُوكَ لِيَهْنُوا بِالَّذِي رُزِقُوا

هـذا نَسيمُكِ أَمْ رَوْح لِرَاحتِنا
ومَاؤكِ السَّلْسَلُ الصَّافي أَمِ ٱلوَرِقُ

أَرْضٌ تَخَلَّلُها الأَنهـارُ داخِلَها
حتى المَجالِسُ والأَسْواقُ والطُّرُقُ

وكان الفقيه أبو الفضل ابنُ النّحوي من أهل العلم والدّين والورع والفضل ، ذكره صاحب كتاب التّشوّف .

بَحْثٌ

بقلم المؤلف في أن : مؤلف الذخيرة السنية هو مؤلف القرطاس

الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية كتاب مفيد جـــداً في تاريخ هذه الدولة وملوكها الأولين ، عبد الحق وأبنائه الأربعـة ابي سعيد وأبي مُعَرّف وأبي يحيى وأبي يوسف ، والأحداث الهامة التي جرت في أيامهم سواء بالمغرب أو الأندلس أو المشرق ، ومنها وفيات بعض الأعيان من علماء وغيرهم . ولذلك أصبح هذا الكتاب مرجعاً معتمداً لدى الباحثين في هذه الشؤون منذ قام بنشره الأستاذ المرحوم محمد بن أبي شنب في سنة 1920 بالجزائر .

ولم يقدم له الناشر المذكور بمقدمة يعرف فيها بالكتاب ، وأين وجده ، وصفة المخطوطة التي نَشَرَهُ عنها ، وتاريخهـــا ، وما إلى ذلك مما يعين على معرفة هُوِيَة مؤلفه الذي لم يُذْكَر اسمه كذلك في هذه النشرة . ومن ثم فقد بقي هذا الكتاب المفيد مجهول المؤلف وكلما أشير اليه في مناسبة من المناسبات ، وهي كثيرة ، قيل أنه لمؤلف مجهول .

ولقد كنت منذ تملكت هذا الكتاب وقرأته ، وذلك لعدة سنين خلت ، اعتقدت أنه أخو القرطاس وشقيقه ، وأن مؤلفهما واحد . وظللت كلما مررت بذكره ورأيت نسبته لمؤلف مجهــول تعجبت من ذلك واستغربت عدم الاهتداء لمعرفة مؤلفه ، مع أن جميع صفحاته تكاد تعلن بالحقيقة وتقول : انني من إنتاج صاحب القرطاس ، وهذا هو الذي جعلني الآن أستعرض محتويات هذا الكتاب وأسلوبـــه ، وبعض العبارات الخاصة التي تعين شخصية مؤلفه ، مما يعتــبر دليـلاً قاطعاً على أنه هو مؤلف كتاب القرطاس نفسه .

(فأولاً) إن صاحب القرطاس الذي جعل كتابه تاريخـــاً لملوك المغرب ولمدينة فاس ، كان معاصراً لدولة بني مرين يعيش في َكنَفِها ويحيى تحت ظلها ، وكذلك صاحب الذخيرة السنيـة . وقـد انتهى بتاريخها في كتابه الجامع الذي هو القرطاس إلى مدة السلطان أبي سعيد بن أبي يوسف ، وكذلك فعل في تصميم كتابه الخاص ، الذي هو الذخيرة السنية ، فانتهى به إلى مدة أبي سعيد هذا .. وإنمـا قلت في تصميم كتابه ، لأنه قسم الذخيرة إلى عشرة أبواب ، الباب العاشر منها هو الخاص بأبي سعيد ولكن ماطبع منها يقف عنـــد الباب السادس المخصص للسلطان أبي يوسف . ولذلك جاءت هـذه العبارة في آخر طبعة الذخيرة : « هذا ما وجد من هذا الكتاب » فهو في تصميمه كان ينوي أن ينتهي به كما انتهى في القرطاس عنـد

دولة أبي سعيد ولكن الأقدار لم تساعده .. هذا إذا لم تكن المخطوطة التي نُشير عنها الكتاب مبتورة فتكون هي الناقصة لا الكتاب . وإلى أن توجد نسخة أخرى منه لا نستطيع أن نجزم بشيء في هذا الصدد . على أن مؤلفنا الذي أنهى كتابه القرطاس بالكلام على دولة أبي سعيد ووصفه بما يصف به المؤرخون المعاصرون ملوك زمانهم من تلك الأوصاف الضخمة ، ودعا له كما يفعلون، بأحرّ الادعية ، قد افتتح كتابه الذخيرة بذكر دولة أبي سعيد ، ووصفه بنفس الاوصاف ودعا له تلك الادعية ، فهو إن لم ينته اليه في آخر الكتاب ، لم يغفل أن يفعل ذكره اولاً . وبذلك تطابق الكتابان في نهاية تاريخهما لدولة بني مرين .

(ثانياً) ان ما يذكره الكتابان معاً في اصل بني مرين ونشأة دولتهم متشابه جداً، لا في الرواية فحسب ، التي من شأنها أن تتشابه في مثل هذه الحال بل في المصدر والنسق والعبارة . فهما معاً يبدآن بذكر مفاخر بني مرين ومآثرهم على الإجمال ، وتأتي أثناء ذلك هذه العبارات التي يقول فيها المؤلف باللفظ الواحد : « أما بنو مرين فهم أعلى قبائل زَنَاتَةَ حسباً ، وأشرفها نسباً ، وأغزرها كرماً ، وأحسنها شيماً ، وأرعاها زماماً ، وأرجحها أحلاماً ، وأشدها في الحروب بأساً وإقداماً ، وأقواها ديناً ، وأصحها يقيناً ، واوثقها عقداً ، واوفاها عهداً ، واوفرها عدداً ، واطولها في الشدائد يداً ... الخ .

وإذا كان المؤلف في الذخيرة يتوسع في هذه الحِلَى أكـثر من القرطاس ويطرزها ببعض الأبيات الشعرية المناسبة للمقام مما قيل فيهم من بعض شعرائهم ، فإن مما لا ينبغي ان يغيب عن الذهن أن الذخيرة كتاب خاص بمملكة بني مرين ، وهو لذلك اوسع دائرة في اخبارهم وحوادث ايامهم ، بل وتواريخ غيرهم من الممالك الإسلامية المعاصرة فلا عجب إذا رأيناه يفيض حتى في مدحهم اكثر مما فعل في القرطاس على انه من الناحية الخبرية الصرف لا يخل في القرطاس بشيء مما يتعلق بدولتهم وان آثر الإيجاز ، فالقرطاس لا يقل فائدة عن الذخيرة مطلقاً

وبعد الانتهاء من تَعداد هذه المناقب الجملة يتعرض الكتابان معاً كذلك لذكر « نسبهم الصريح وحسبهم العالي الصحيح » ويعتمدان في ذلك على النقل عن الفقيه ابي علي الملياني فيرفعان نسب مرين في عِدّاد قبائل زِنّاتة الكثيرة إلى قَيْس عَيْلان . وتتوسع الذخيرة فتذكر اسماء هذه القبائل وابياتا من الشعر تشهد بصحة هذا النسب ثم يتطرقان كلاهما لسبب تعجُّم السنتهم ورحلتهم عن بلاد العرب في قصة مِيثُلُوجية طريفة مُخَلّلة بالاشعار على العادة مع إفاضة من الذخيرة وانفراد ببعض الفوائد كذكر اصل المرينيين الأشراف وبني وطاس الذين يظن انهم من بني مرين ، وهم لمتونيون صنهاجيون يَمَنِيون لا قَيْسِيون ، وإنما انضموا إلى زِناتة بعد ذهاب دولتهم

وقيام الموحدينَ عليهم . وبعد هذا يذكران ايضا « كيفيـــة دخولهم للمغرب وظهور ملكهم السني المعجب » فيسوقان الخبر سياقا واحداً لا يختلف إلا في بعض الزيادات التي تأتي بها الذخيرة مما يقتضيه مقـام الإطناب والتوسع ، ويستشهدان معاً في تاريخ دخول بني مرين للمغرب ببيتين من الشعر من بحر الكامل سجل قائلها ذلك التاريخ نظماً ، وكذلك بأبيات من أرجوزة المَلْزُوزي الشهيرة في التاريخ ولا يلبثان حتى يختما هذا الفصل بعبارة واحدة هي هذه : « فضعف ملكهم (يعني الموحدين) بذلك وَضوِي ، وظهر أمر بني مرين واعتز وَقوِي » .

(ثالثاً) يساير القرطاس الذخيرة وتسايره في كل ما يؤرخان بـه للملوك الخمسة الأولين من بني مرين ، فالتواريخ باليوم والشهر والعام هي هي فيها ، والأوصاف الخَلقية والخُلقية لهؤلاء الملوك متحدة تماماً، والحوادث لا تختلف في قليل ولا كثير ، إلا ما سبق ان اشرنا اليه من زيادة البيان والتوسع في عرض بعض الأخبار التي عند الذخيرة. وكل ذلك بعبارة تكاد تكون واحدة ، بل إن ما ينقص منها في احدهما تجده تاماً فِي الآخر ، بحيث يمكن أن يُوصي بتصحيح أحد الكتابين على الآخر إذا أعيد طبعها .. ولا شك أن مؤلِّفاً مهمـــا بلغت جرأته في السطو على آثار الآخرين ، لا يستسيغ أن ينقل كلام غيره بنصه وفصه بل قُلْ أن ينسخه من غير تبديل ولا تغيير وينسبه لنفسه . فلم يبق إلا أن الكتابين معاً هما لمؤلف واحد ، يذكر في

القرطاس ما يناسب وضعه ومنهاجه ، من كونه تاريخاً لملوك المغرب من بني مرين وغيرهم فيقتصر على المهم من الأخبار وما يخص موضوع التأليف . ويذكر في كتاب الذخيرة ما يناسب فكرته وتصميمه من كونه تأليفاً خاصاً بمملكة بني مرين فيستوعب ما ذكره في القرطاس ويزيد على ذلك ما يقتضيه المقام من شروح وإيضاحات .

ويلفت نظرك في هذا الباب بعض الأخبار الخاصة والجزئيات التي تميز هذا الكتاب عن ذلك ، وبها تتفاضل الكتب فيما بينها ، فانها واحدة في كل من القرطاس والذخيرة لا ينفرد واحد منها عن الآخر بشيء منها . وذلك فيما يتعلق بملوك بني مرين طبعاً .. فمثلاً والد الامير عبد الحق كان ممن شهد غزوة الارك مع المنصور الموحدي متطوعاً فعقد له على جميع من كان في العسكر من زناتة وأبلى البلاء الحسن وتوفي متأثراً بجراحاته في تلك الغزوة وعبد الحق كان « قليل الولد فريداً في العدد » فرأى رؤيا فسرت له بأنه يلد أولاداً يملك المغرب منهم أربعة ؛ وانه لما قتل في حربه مع عرب رِيَاح اقسمت بنو مرين « الا يدفن حتى تأخذ ثأره ، وتحمي ذِمَاره ، فحملوا على رياح حملة الاسد على الثعالب ، وانقضوا في جيوشهم انقضاض البُزاة في اليعاقب ، وهزموهم ؛» هذا كله مما يتفق فيه لفظ الكتابين ومعناهما ويدل على أن شخصية مؤلفهما واحدة .

وفي ترجمة الامير أبي يعقوب يذكر الكتابان معاً من أوصافه ولا

سيما شجاعته ما يقرب بعضه من بعض ، ثم يعبران بهذه العبارة قائلين « فهو كما وصفه صاحب الارجوزة » يقصدان شاعر دولتهم عبد العزيز الملزوزي وارجوزته التاريخية التي سبقت الإشارة اليها . ويأتيان بعد ذلك بخمسة أبيات من هذه الارجوزة في وصفه .

وفي ترجمة الامير ابي يحيى يتفق الكتابان على انه لما قصد اليه السعيد الموحدي ؛ وهو بمكناس ، خرج ليلاً وحده فطاف بعسكر السعيد ، فلما راى ما هاله تخلى عن مكناس وبايع للسعيد ، وانه لما طلب منه هذا الاخير ان يمده بالعدد والعدة ويرسله لحرب يَغْمُراسِن ، شاور السعيد وزراءه فقالوا له « لا تفعل ، فإن الزّناتي اخو الزناتي لا يخذله ولا يُسلِمُه فنخاف ان يصطلحا عليك ويجتمعا على حربك » وان اهل فاس بعثوا إلى الامير ابي يحيى فبايعوه بالرابطة التي بخارج باب الشريعة ، واخرجوا والي الموحدين عنهم فأمنه ابو يحيى وارسله في خفارة خمسين فارساً إلى وادي ام الربيع ... كما انهم لما انتقضوا على واليه فقتلوه واراد الانتقام منهم قام اليه شيخ من بينهم يعرف بابن الخبا فدله على من تولى ذلك الفعل ، وهم ستة اشخاص من بينهم القاضي فقتلهم واخذ سائر اشياخهم بغرم المال الذي اخذوه من القصبة لما قتلوا الوالي « فذلوا ولم يبقَ فيهم من يرفع راساً بعدها إلى اليوم » بهذه العبارة تقريباً في الكتابين معاً .

وهكذا سجل الكتابان ايضاً اخص الانباء عن السلطان ابي

يوسف المنصور ... وابرز ما يلاحظه المطالع لهما ان المؤلف لما اتى بهذا العنوان المتشابه : « الخبر عن سِيَره الجميلة ومآثره الجليلة » قال في القرطاس : « نذكرها مختصرة وجيزة ، ونقتصر منهـــا على ما ذكر صاحب الارجوزة » وفي الذخيرة ما نصه : « اذكرها مختصرة وجيزة ، من نظم صاحب الارجوزة » ثم اتى في الكتابين معاً بسبعة وعشرين بيتاً مــن الرَّجزية خصصها الملزوزي لذكر يعقوب المنصور وسيرته . وحين عرضا لتاريخ سير هـــذا السلطان الى مدينة مراكش وحصاره بها للمرتضى الموحدي ، استشهدا معاً بأربعة أبيات من رجزية الملزوزي . وفي جوازه الاول للاندلس وايقاعه بزعيم النصرانية ضُون ُنونَة ذكر الكتابان معاً ان ابن اشقَيْلـُولة كان من جملة من هنأه بهذا النصر المبين ، وضمن كتاب التهنئة قصيدة عينية من وزن الكامل . فاورداها معاً بنصها التام الا بيتين انخرما من نسخة القرطاس ، وقد تكلمنا على هذه القصيدة ونسبتها في غير هذا المحل [١] . ويطول بنـا الكلام لو تتبعنا مثل هذه الجزئيات التي يتوافقان فيها بالنص والحرف من ترجمة المنصور ، ونحن انما نريد ان نقول ان شخصية الكتاب ، بمعنى خصائصه ومميزاتـه ، من شخصية المؤلف . ولو اختلف مؤلف الكتابين لما توافقا الى هذا الحد الذي ذكرناه .

(رابعاً) ترجم المؤلف في القرطاس لبعض الاعيان من العلمـــاء

---

١) انظر الحلقة العاشرة من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب .

وغيرهم الذين توفوا اثناء هذه المدة ، التي نشأت فيها دولة بني مرين ، كالعلامة ابن تاخميست والامير ابي مالك بن يعقوب المنصور ، وسجل بعض الحوادث المهمة في الاجتماع والعمران التي حصلت في هذه الاثناء كوقوع الغلاء والقحط وبناء باب المحروق بفاس مع بيان سبب تسميتها بذلك وبناء سور مدينة بادس والمزّمة ومَلِيلة .. وكل هـذه الامور مما اثبتته الذخيرة وبالعبارات نفسها التي وردت في القرطاس .

(خامساً) بالرغم من ان الاسلوب الكتابي في المؤلفين معاً اسلوب عربي فصيح ، لا يعكر عليه في بعض المـواضع الا التحريف الذي يرجع لعدم التصحيح وسقم النسخ الاصلية ، فان المؤلف قد يستعمل بعض الكلمات العامية المغربية مما يجري على الالسنة كثيراً ويستعمله الموثقون ، والمؤلف منهم فيما يقال ، رغبة في الايضاح ، ونجد هذا في الكتابين معاً .. وذلك كالقطائن بمعنى القيود والدخيل بمعنى الشفيع والمحلة بمعنى الجيش . فهما اذاً يستمدان من مصدر واحد .

(سادساً) وهو اقوى الادلة : ان المؤلف لـمـا تعرض لاولية بني مرين قال في القرطاس : « نقلت من تقييد الفقيه أبي علي الملياني بخط يده » وقال في الذخيرة : « ذكر الفقيه الكاتب البارع ابو علي الملياني رحمه الله في نسبهم ما نذكره ان شاء الله ، ونقلتُه من تقييد بخطه » وعندما تكلم على دخول مرين للمغرب قال في القرطاس : « حدثني من اثق به من اهل التاريخ انه لما دخلت مرين المغرب تفرقت قبائلهـا

في انحائه ...» وقال في الذخيرة : « اخبرني من اثق به من اهل العلم والمعرفة بالتاريخ وأيام الناس ، وهو الشيخ الفقيه ابو العباس بن الجبر ، وادركته وقد اخذت منه السن العالية : ان بني مرين ، انجدهم الله تعالى ، لما دخلوا المغرب تفرقت قبائلهم في جهاته وانحائه . . » فزاد في الذخيرة تسمية الشخص الذي نقل عنه الحديث ومطط العبارة على عادته فيها وان كان المؤدى واحداً . وفي ترجمة الامير عبد الحق ، وهو بصدد الكلام على اخلاقه وصفاته ، يقول في القرطاس : « اخبرني الفقيه القاضي ابو محمد عبد الله بن الوَدُّون واخوه الفقيه ابو الحجاج يوسف ، انهما قدما على امير المسلمين ابي يوسف بن عبد الحق رحمه الله في وفد اهل مدينة فاس من الشرفاء والفقهاء والصلحاء بمدينة رباط الفتح ، وذلك في شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين وستمائة للسلام عليه حين قدم من حضرة مراكش يريد الجواز الى الاندلس برسم الجهاد فجرى في مجلسه رحمه الله ذكر والده الامير ابي محمد عبد الحق فقال امير المسلمين : كان والله الامير عبد الحق صادق اللسان ... » ويقول في الذخيرة : « اخبرني الشيخ الفقيه القاضي المبارك ابو محمد عبد الله الودون انه قدم على امير المؤمنين ابي يوسف يعقوب بن عبد الحق المذكور في وفد اهل مدينة فاس ..» فهذه احاديث تلقاها المؤلف مباشرة من رواتها وذكرها بصيغة واحدة في الكتابين معاً ، مما يدل دلالة قاطعة على أنه المؤلف لها وانهما من انتاجه بغير شك ولا ريب.

هذا كله بالنسبة لمقـــابلة الكتابين ومحتوياتها المتعلقة بتاريخ بني مرين ، وثم ادلة اخرى منها :

(سابعاً) ان مؤلف الذخيرة فاسي ، كما يظهر لمن يتتبع كلامـه فيها من اعتنائه باخبار عاصمة العلم وذكره لرجالهـا وحركة العمران فيها واحوالها الاجتماعية . وغير ذلك مع اظهاره لمزيد العطف وعظيم المنّ نحوها مما لا يصدر الا ممن يُكِنّ لها وداً مكيناً وحباً راسخاً عملت على تكوينه وإنمائه النشأة وطول السنين ... وهكذا كان شأن صاحب القرطاس . ألم يجعل مؤلفه القيم يحتوي على موضوعين اثنين : تاريخ ملوك المغرب ومدينة فاس ؟ وهاك مثلاً مـا يقوله في الذخيرة بشأن بنـــاء المدينة الجديدة (فـــاس الجديدة) عاصمة بني مرين : « وكان تأسيسها في طالع سعيد ووقت يُمْن وبَرَكَـة ومَزِية ، دل على طول بقائها ، وكثرة عمارتها واتصال خيْراتها ، وما يجيء اليها من الأموال . فكانت والحمد لله مدينة مباركة . فاتخذهـا (يعقوب المنصور) دار ملكه وملك بنيه وعَقِبه من بعده ، يجيء اليها جميع خراج المغرب . ومن بركاتها وسعادتها ويُمْن طالعها أنها لا يموت فيها خليفة ، وأنها لم يخرج منها قط جيش إلا ظفِر ولم يُعقد بها قط لواء إلا نـُصِر ، ومصداق ذلك أن أمير المسلمين أبا يوسف الذي اختطها وبناها وشيدها وبنى أسوارها وجامعها وأسواقها واتخذها دار ملكه وقرار سلطانه توفي رحمه الله غائباً عنها في المدينة التي بناهـــا أمام

الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس . ثم ولده الخليفة بعده أمير المسلمين أبا يعقوب توفي بقصره في بلدته الجديدة التي بناهـا بتلمسان وهو محاصر لها فاستوطنها ومدّنها واتخذها حضرته إلى أن توفي بهـا على ما يأتي بيانه . وكذلك حفيده الخليفة بعده وهو الأمير أبو عبد الله ابن أبي يعقوب المذكور توفي بقصره بقصبة طنجة . وكذلك أخوه الوالي بعده أبو الربيع سليمان فانه توفي أيضاً بقصبة رباط تازة » .

وقد ذكر في القرطاس هذه المزية أيضاً ، ولكنـه لم يستعرض أماكن وفيات هؤلاء الملوك . ونحن آثرنا ذكر نص الذخيرة بكامـله لتأكيد ما قدمناه من أن تصميمها كان يشمل بقية ملوك بني مرين إلى أبي سعيد الذي انتهى اليه القرطاس ، فإما انه لم يَتِمّ وضعاً وإما أن النسخة المطبوع عليهـا كانت مبتورة ... وعلى كل حال فإن الكتابين هما من نَبْعَة واحدة بهذا وذاك .

(ثامناً) تمتاز الذخيرة عن القرطاس كما قلنا بالتوسع في حكاية بعض الأنباء المتعلقة ببني مرين ، وذلك مما يقتضيه كونها كتاباً خاصـاً بدولتهم ، كما تمتاز بالتعرض لبعض أخبار الممالك الإسلامية في المشرق وترجمة بعض العلماء المشارقة بمناسبة ذكر وفياتهم ، فمما نجده فيها من ذلك اخبار عن مملكة بني أيوب والحروب الصليبية ، وهجمات التتار على بُخَارى و سمَرْقَنْد ثم بغداد وقتل الخليفة المعتصم العباسي وانقراض الخلافة العباسية مع ذكر مدة بقائهـا ، وتراجم للفخر الرازي وابن

الصلاح وابن الحاجب وأمثالهم مما ينبىء عن ثقافة تاريخية واسعة تـُعِدُّ صاحبَها لأن يكون مؤرخاً عمومياً ومن أصحاب الموسوعات التاريخية الكبيرة ... وهو ما يشير اليه ويتحدث به صاحبُ القرطاس حينما يُحيلـُنا في بعض المواضع من كتابه المذكور على مُؤلـَّفه الكبير الذي سماه (زهر البستان في أخبار الزمان) فما في الذخيرة من ذلك إنما هو أثارة من علم هذا المؤرخ الضليع الواسع الاطلاع .

ويظهر أن تأليفه للذخيرة متأخر عن كتابيه المذكورين ، فانه في القرطاس يُحيِـلُ على زهر البستان ولا يذكر الذخيرة ، وبطبيعة الحال إن الذخيرة أوفر مادة من القرطاس في موضوعها فلا محل للاحالة فيها عليه . وأما عدم الإحالة على زَهْر البستان في الذخيرة فلأن ما يذكره من الأخبار العارضة الخارجة عن موضوع الكتاب إنما هو تبرع منه فما قل منه يكون كافياً في توسيع دائرة معلومات قارئه ، وإذا لم يكن مقصوداً بالذات فلا موجب للاحالة على البستان ولا على غيره فيما لم يقع فيه الاستيعاب .

وبعد فإن بالمكتبة الوطنية بمدريد أوراقاً عدتها 15 صفحة من الحجم الكبير يوجد في أولها هذا العنوان : « ذكر الياقوتة الجلية » في الذرية السعيدية المرينية المباركة العبد الحقية (كذا) أطالها (كذا) الله تعالى وخلدها ، وأعلى كلمتها وأيدها » وهي تشتمل على أولية بني مرين وأخبار الملوك الأولين منهم المترجمين في الذخيرة بمثل نسَقِها وبالعبارات نفسها الواردة فيها ، ولكن على سبيل الإختصار مع

تحريف بعض الأسماء والخطأ الشنيع في بعض العبارات ، وهلهلة الأسلوب واضطراب حبل الارتباط بين الجمل .. وفي نظرنا أن هذه العبارات المتشابهة إن لم تكن نقلاً عن تاريخ سابق أو تقييد رسمي استمد منه كل من صاحب القرطاس والذخيرة ، وصاحب هذه الأوراق فانه لا مَعْدى عن أن تكون هذه الأوراق شِبْهَ اختصار للذخيرة من أحد المتطفلين على التأليف ... وعلى كل حال فلا علاقة بينهما وبين مؤلفنا صاحب الذوق الفني الجميل وخاصة في تسمية كتبه . فأين يقع هذا الإسم المهلهل من اسم الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، وانظر إلى التزام النون في السجعتين الذي تم به تناسقهما . ومن اسم الأنيس المطرب بروض القرطاس ، في تاريخ ملوك المغرب وبناء مدينة فاس ، فإنه أيضاً اسم منسق تنسيقاً بديعاً ، وصاحبه لا يقول الياقوتة الجلية في الذرية السعيدية المرينية الخ ...

وإنما قلنا ان هذه الأوراق ربما كانت اختصاراً للذخيرة لمسايرتها لها في الأخبار التي تتضمنها عن بني مرين مقتصرة على المادة التاريخية الخاصة بهم لا تتجاوز إلى غيرها ، ولاسمها هذا الذي يفيد انها تقف عند أبي سعيد أيضاً وإن كان الموجود منها يقف عند أبي يوسف ، فكادت أن تكون مسخاً من الذخيرة . وربما رجح وقوفها عند أبي يوسف كون الذخيرة لم تكمل وضعاً وان المطبوع منها هو ما كتبه صاحبها الذي وضح انه هو صاحب القرطاس رحمه الله .

مطابع دار الكتاب اللبناني
بيروت ـ ص. ب. : ٣١٧٦

أبو حفص بن عمر

الطبعة الثانية

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

AD 1994 - H 1414

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.م.ع

ت : ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٢٤٢٠١ - ص.ب ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١

برقياً: كتامصر - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

TELEX No : 23081-23381-22181-21881

ATT: MR.HASSN EL-ZEIN

FAX : (202) : 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت : ٨٦٠٧٩٢ - ٨٦١٥٦٣ - ص.ب : ٨٣٣٠ / ١١

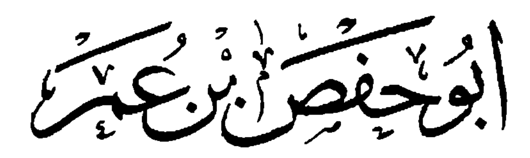
برقياً « دكالبان »

TELEX : DKL 23715 LE

بيروت - لبنان FAX (9611) 351433

موسوعة مشاهير رجال المغرب

30



بقلم

عبد الله كنون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

تصويب

وقع في الحلقة 29 بعض الخطأ المطبعي نرجو تصويبه كما يلي : ص 19 ليس بذاك . ص 20 كلام للشيخ . ص 26 وفضائلهم . ص 28 مخططنا . ص 35 يجعل . ص 35 ذماما . ص 44 تارة .

أبو حفص ابن عمر

اسمه ونسبه ، بيته ، مولده ونشأته ، شيوخه ، نبوغه في صباه ، تقلبه في المناصب ، صفاته واحواله ، شعره العاطفي وما كان له من اثر في تألب الحساد عليه ، ترتيب ولاياته للقضاء ، ثناء الناس عليه وتنزيهه عما رمي به ، وفاته ، اثاره الادبية ، الشاعر الانيق ، نماذج من شعره ، نثره

هو القاضي الأديب الشهير أبو حفص عُمر بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن عُمر السُّلَمي الأغماتي ، بها ولد وسكن مدينة فاس ، ولذلك يُنسَب اليها أحيانا ، ويُعرف بابن عُمر نسبةً الى جده الأعلى . وكان بيته بيت علم وحسب ، أمّا والده عبدالله فكان فقيها حافظاً جليل القدر سريِّ الهمة عاقداً للشُّروط بصيراً بها ، كتب عن صهره أبي محمد بن علي اللّخمي أيام استقضائه بأغمات وساكَنه فيها مدةً طويلة ، واستُقضي بفاس فعُرف بالعدل في أحكامه والنزاهة في قضائه . وأما جده لأمه فهو أبو محمد المذكور ، وكان سِبْطَ الحافظ ابي عُمَر بن عبد البَرّ ، فناهيك بها جزالة وأصالة .

وقد وُلد مترجمنا في حدود سنة ثلاثين وخمسمائة ، ونشأ في حجْر والده وكنَف جدّه لأمه بأغمات ، وبها بدأ طلب العلم ، يدلنا على ذلك اجازةُ جده له ، وقـــد توفي جدُّه وهو صبي صغير ، وكانت أغمات من مراكز العلم والرواية في ذلك العهد ، فلا بدْعَ أن ينشط الناشئةُ للطلب في وسط علمي خصوصاً اذا كانوا مـــن بيت عريق . ولما تولىّ والدُه قضاءَ فاس بعـــد وفاة صهره أبي محمد ، انتقل مع والده الى العاصمة العلمية وهناك أتمّ تحصيلَـه ، وأخذ عن كبار علمائها ، كما أخذ عن غيرهم من علماء المغرب والأندلس. وممّن سُمّيَ من مشائخه أبو مروان ابن مسرّة وأبو عبدالله بن الرمّامَة وأبو بكر بن طاهر المعروف بالخِدَب[1] ، قرأ عليه كتاب سيبويه تفهما ، وما عتم أن نبغ وصار من أهل المعرفة والتفنُّن ، وغلب عليه الأدبُ فشُهِـر به مع جودة الخط وبراعة الأدوات.

ومما ظهر من نجابتـه وهو بعدُ في صباه أنه خرج مع أبي ذَرّ الخُشَنى النحوي وشيخِهما معاً أبي بكر بن طاهر الخِدَب الى ظاهر المدينة (ونظنُّها مدينة فاس) فأثّـرَت الشمسُ في وجهه وكان وسيماً ، فقال له أبو ذر :

وَسَمَتْكَ ٱلشمسُ يا عُمَرُ   سِمَـةً بالْحُسن تُعتبَر

فقال أبو حفص :

عِلِمَتْ قدَر ٱلذي صنعت   فانثنتْ صفراء تعتذر

---

(1) الطويل .

وتُروى هذه الحكاية من سياق آخر على أنها وقعت مع القاضي أبي يوسف حجّاج بن يوسف الهوّاري وكان خرج الى أغمات من مراكش وبصحبته أبو حفص في حال شبابه ووسامته ، فاستقبلتهم الشمس آخر النهار بلفْحها المؤثر في الوجوه فقال له أبو يوسف أجز :

وَسمتْك ٱلشمسُ يا عمرُ

فقال هو : سمةً يَبقَى لهـــا أَثَرْ

عرفتْ قدْر ٱلذي صنعت فانثَنَتْ صفْراء تعتذِرُ

واكتملت رجولة أبي حفص وبرزت شخصيتـــه في المجتمع بحيث جلّ بين قومه بمدينة فاس مقداره ، وقضيتْ بها في الجاه والمـــال أوطاره ، الى أن كان هنالك من أهل الفُتْيا ، ثم صار من جلســاء أصحاب الأمر وأرباب العُليا ، ثم ترقّى الى الخطابة والقضاء ، وصار ذا ابرام وامضاء كما قال عنه ابنُ سعيد المغربي في الغصون اليانعة .

واذا علمنا أن ذلك كان في صدر عصر الموحدين في أيام عبد المومن ويوسف ابنه ويعقوب المنصور ، والدولة في منتهى القوة والعظمـة ، والمغربُ فى أوج الرقي والحضارة ، زادت قيمة الرجل في نظرنا وعرفنا انه كان على جـانب عظيم من العلم والفضل ، فان العصر كان عصر

نضج ونبوغ ملياً بالعبقريات وأهل الكفايات ، فبطبيعة الحال لا يحلي فيه الا من تحلى بأوصاف الكمال وكان راسخاً في فنون المعارف .

ويقول ابن سعيد أيضاً متحدثاً عن بعض الصفات والأحوال الشخصية لصاحبنا ما نصه : « وكان على غاية من الظرف ، اذا أقبل شُمَّت رائحة الطيب منه على بعد ، واذا غُسِلَت ثيابه لا يكاد يفارقها ، كان منزلهُ كأنه الجنّة ، حتى وجد فيه أعداؤه مطعنا ورفعوا للمنصور أنه غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزّله واشتهار مقطّعاته وانهماكه في العشق » . والذي يؤخذ من هذا الوصف في دلالته الأولى هو أن الرجل كان واسع النعمة ، عظيم الرفاهية ، مهذّب الذوق متأنقاً في لباسه ومسكنه ، ميالاً الى الأدب مؤثراً له على سائر العلوم حتى الشرعية التي كانت هي المؤهّل لولايته القضاء . ولرقة عاطفته فانه كان مكثراً من قول الشعر الغزلي ومجوّداً فيه حتى اشتهرت مقطعاته في ذلك وسارت كلّ مسار . واذا كانت كل نعمة عليها حسود فان صاحبنا لم يعدم من معاصريه ومنافسيه من يناصبه العداء ويمشي له الضرّاء حسداً وبغيا من عند أنفسهم . وهذا ما يستفاد ثانياً من كلام ابن سعيد المارّ ذكره ، على أننا لا نغفل عن طابع العصر وحالة المجتمع اذ ذاك من غلبة التصوّن على أهل العلم والدين وتقيُّدهم بقيود الشرع في السلوك ، والأخلاق ، فلم يكن من المستجاز لمن يشغل منصب القاضي وهو نائب امام

المسلمين مع القيام بوظيفة الخطابة الجمعيّة وهي وظيفة دينية مدارُها على الوعظ والارشاد ، أن يتظاهر بالمظاهر المُخلّة بهذا الناموس فيتدلّه في العشق ، والعشق المادي السافر ، ويعبّر عن تدلّهِه بأشعار صريحة في تصوير مشاعره ، وهي مع ذلك بديعة الصنع بحيث تصبح على كل لسان ، ويُتَغنّى بها في مجالس اللهو والطرب ، حتى اذا قيل لمن هذا الشعر ؟ قيل انه لفضيلة القاضي وخطيب الجمعة ، ناهيك اذا كان ذلك في مدينة محافظة مثل مدينة فاس التي فيها جرت الحكاية على صاحبنا ، فالأمر اذاً قد يكون مُتعلّقاً بتجاوز الرجل لحدود مكانته الاجتماعية أكثر مما يتعلق بمؤامرة أعداء وعريضة حساد .

ويضيف ابنُ سعيد عاملاً آخر الى عامل مجاهرة المترجم بهـواه ، كان بمثابة القَطْرة التي يفيض بها الكأس وهو أن ابن أخ له رمَى يده في امرأة وغصبها على الدخول لمنزله ، وشهد بذلك عند أبي موسى ابن رمانة حافظ فاس جماعة ، فأمر باحضار المذكور بعد صلاة الصبح وضرب عنقه ، وطلع القاضي ليتكلم فيه وقد بلغه انه مُثَقّف[1] فقيل له في الطريق انه قد فات الأمر فرجع ، وكتب فيـه الحافظ واعلم أن فقهاء فاس أجمعوا على تأخيره عن الأمانة والخطابة ، وولوا غيره حتى يصل الاذن العالي اما باستقرار النائب أو بتعويضـــه ،

---

(1) اي محبوس .

فوصل الأمر بوصول أبي جعفر الى الحضرة فما جُهِلَ مكانهُ ولا صغر شأنه ، وولاه المنصور قضاء اشبيلية ، فشُكِرت فيها سيرتُه وحمدت سريرته .

ويظهر أن الأمر أثار فتنة بلغت بالعامة الى حد الثورة ، فاذا اذا فسرنا حكم الحافظ أبي موسى على ابن أخ المترجم بالقتل ، لكونه اعتبر تعرضه للمرأة واغتصابها من الحِرَابَة فكيف ساغ له تنفيذ الحكم واقامة الحد الذي لا يقوم به الا الامام أو نائبه ؟ لا شك أن اضطراب حالة العامة هو الذي دفع بكبير فقهاء فاس الى تنفيذ الحكم في الجاني وعزل القاضي عن وظائفه وتولية غيره انقاذاً للموقف ، اذ كان الأمر قد آل الى شبه ثورة . ولهذا غضّ المنصور الطرف عن فعل أهل فاس لأنه كان في سبيل المصلحة ، وعامل أبا حفص بما تقتضيه السياسة من البرّ والاكرام لأنه قاضيَه على كل حال ، لم يعزْله هو ، وانما عُزِل من طرف خصوم ربما كان فيهم متسخّطُون للدولة نفسها .

ويفهم من ابن سعيد أن المنصور ولاّه إثرَ ذلك قضاء اشبيلية ، ونشير الى أن ولايته لقضاء اشبيلية سبقتها ولايته لقضاء أغمات على ما يأتي قريباً ، ويذكر ابنُ الزبير في حِلَتِه ولاياتِ المترجم ويرتبها من البداية فيقول : « ولي قضاء مدينة فاس بعد أبيه ، ثم ولي قضاء تلمسان ثم أعيد لقضاء فاس ثم ولي قضاء اشبيلية ثم اخر وبقي بها ثم اعيد واستمر الى أن مات » ولكنه أغفل قضاء اغمات وهو ثابت كما سنرى

ذلك . وفي كل من هذه الولايات كان محمود السيرة حسن الذكر باتفاق كل مترجم له . قال ابن سعيد « ومن المشهور عنه في قضائه العدل في الأحكام وقِلَّةُ النَّزَق عند اختلاف الخصام » وقال أبو القاسم العزفي في كتابه الاشادة : « هو من مفاخر المغرب ، لم يذكره أحد ممن لَقِيَه وتعرَّض لذكره الا اطنب في الثناء عليه ووصفه بالعلم والفضل والعدل في القضاء ، مع براعة النظم والنثر » اللهم إلاَّ ما وقع له في فاس وقد علَّلْناه بما قد يُبَرِّرُه ، على انه في فاس نفسها لم يستطع خصومه أن يثبتوا عليه شيئاً فيه مس بطهارته وخُلُقه فأحرى بنزاهته في الحُكم وإلاَّ لَمَا تَوانَوْا عن البطش به ومدِّ اليد فيه كما فعلوا بابن أخيه .

ومن ثناء المحدث أبي عبدالله محمد بن عبد الرحمن التُّجِيبي عليه في قضائه بتلمسان كما في أزهار الرياض . قال : « لقيتُه بتلمسان حرسها الله ، قَدِمَها علينا قاضياً فشمل أهل البلد كلهم أجمعين بفضله وأدبه وعدله واجلاله واكباره وحسن خلقه لا سيما مع طائفة الطلب ، وأهل الادب والحسب ، فجزاه الله عن نفسه وعنهم أحسن الجزاء فلا يعرف الفضل الا فاضل ، ولا يكرم الناس الا كريم » ثم يقول بعد ذلك بما يفيد أنه بعد انفصاله عن فاس ولي قضاء أغمات فضلاً عما فيه من الافادة عن حسن خلقه وكرمه : « ثم قدَّر الله تعالى بوصولي بعد انفصاله عن مدينة فاس وتوليته لقضاء أغمات ، الى

حضرة مراكش ، حرسها الله تعالى ، وكان بالحضرة المذكورة فسمع بذلك ، وكنتُ نزلت بفندق من فنادقها يقال له فندق الشُّكْر ، فوصل اليه واجتمع بي فدعوت له وشكرت ، ثم أولاني من بِرِّه وتأنيسه ما عهدت قبل منه وزاد عليه ، ورغب في الوصول اليه الى أغمات ، فوصلتُ اليه بعد ذلك ، فرحّب وسهّل وأنزل وأثنى عليَّ عند الأصحاب والاخوان خيراً ، وقال ما يصدر عن مثله ، فالعنصُر الطيب لا يخرج منه الا طيب ، وكنت معــه في داره في خِصْب وسعة وطلاقة وجه ، وحسن خلُق وطيب حديث ، وكريم مُشاهَدة ومُناشَدة لنفسه ولغيره » .

وممن اكثر الثناء عليه ومدحه نظما ونثرا الفقيه الأديب أبو العباس أحمد بن شُكَيْل الصَّدَفي الشَّرِيشي ، وكان قد صحبه زمانا وولاه قضاء بعض الكُوَر كما عند ابن الابار ، ويحدثنا عنه أنه ورد عليه وهو غلام لم يكتمل بعدُ فأدناه منه ونوّه به مما أطلق لسانه بحمده وشكره ، ونظن أنه اشتغل معه مـدةً كاتباً أو شاهداً حتى ولاه القضاء على بعض ايالته ، إلا أن البلدة التي استعمل فيها كانت خشنة المَسَارِك ، على حد تعبيره هو في الفذْلَكة التي قدّم بهـا للقصيدة التالية وهي مما ثبتَ في أزهار الرياض ، قال « فكنتُ أتقلّبُ فيها على جمْر الغَضا وأخاطبه بما لو ألقي على الحجَر لانفجَر ، وكانت الأناة غالبة على طباعه ، وخائلةً على نظره وسماعه ، وكان مع ذلك

مكدوداً بالشفاعات ، ومُضَيَّقاً عليه في الجهاد والطاعات ، فخلعت عن عاتقي نِجَادَ تلك الخطة ، ودار فلك أمري على غير تلك النقطة ، وهو – عفا الله عنه – يقابل تعوُّقي بالانبساط ، وفترتي بتجـــديد الانشاط ، ... فقطع عليه غرضه تأخُّرُه عن الخطة ، فما قطعت عنه امتداحاً ولا نسيتُ أيامه حنيناً وارتياحاً ، ثم أعيد الى الولاية فعدت اليه ، وقد أتى الهرم والسقم عليه ، فعاقت منيته عن بلوغ الآمال ، وسلبتنيه عِلْقاً نفِساً لـمَّا تخلفه الأيام والليال » وقد جلبنا هـــذه الجملَ من كلام ابن شُكيْل في علاقته بصاحبنا لما تضمنته من بيان لأحواله في ولايته كتعلق الناس به في قضاء مآربهم ، وغلبة الأناة عليه في تصرُّفاته ، وقيامه على ساق في الوظائف الدينيـــة التي كانت مَنُوطـَـةً به الى جانب القضاء وهو ما يشير اليه بأنه كان مُضَيَّقاً عليه في الجهاد والطاعات ، ولا شك أن ابن شكيل انما وفد عليـه في الأندلس ، لأنه من مواليد سنة 578 ﻫ وهو لا يفِدُ عليه قبل سنة 593 أي قبل استكماله الخامسة عشرة من العمر ، حين كان صاحبنا يلي قضاء اشبيلية للمرة الاولى من قبل المنصور ، فقرّ بـــه واستعمله على بعض الكُوَر حيث نَبا بِه المحَل ، ثم وفد عليـه في ولايته الثانية لها فلمْ ينتفع به لما ذكره . ومن المُهِمّ أن نعرف أن تأخير صاحبنا لم يستمر اكثر من عام كما تُفِيدُه عبارةٌ لابن فَرْقَد عند المقري في أزهار الرياض يقول فيها : « وتوفي باشبيلية .. وهو يتولى قضاءها بعد صرف محمدبن حوط الله ، وكان أبو حفص قد صُرِفَ

بأبي محمد ، بعد ذلك بعام أو أزيد ، على شرط أن تُصَوَّب هـــذه العبارة فيقال : قبل ذلك بعام أو أزيد كما يقتضيه السِّيَاق .

وقد قلنا ان الجُمَل السابقة مقتبسة من "فذلكة قدَّم بها ابنُ شُكَيْل لقصيدة في مدح المترجم ، وها نحن نورد أبياتاً من هـــذه القصيدة الطويلة ، تؤكد ما سبق من ثنـــاء الناس عليـــه والتنويه بمكارم أخلاقه :

قالت بنو ثُعَل[١] نفِسْتَ مكارماً تُعزَى لحاتمها فقلت وما عسى؟

جيئُوا بواحدة لحاتم طيِّىء مِن هذه وعليَّ ألا أنفسا

أو سائِلُوا مَن في ٱلأَنام سوى أبي حفْص فهل تجدون عنه مُعَرَّساً

بل فاحملوا بعض ٱلذي هو حامل لِيَردَّكم عنه يَلَمْلَمُ[٢] قد رسا

الناسُ أشباهٌ ولكن بينهم في الفضل ما بين الذؤابة والنَّسا[٣]

أَحسِبتُم كلَّ أمرىء عَمْرَ الندى ما كلُّ بيت بالشَّآمِ ٱلمَقْدِسا

---

(1) قال في الأساس : وان دعوت على ابناء رجل اسمه عمر او زفر فقل : أُتيح لكم يا بني فعل رام من بني ثعل . فهذا وجه ذكر الشاعر بني ثعل في مدح ابن عمر.
(2) يلملم اسم جبل . (3) اي الرأس والذنب .

يا خجلةَ القَمرِ المُنير وقد رآى ... عُمَراً بأنواع الجَلالة مُلْبَساً
لو يستطِيعُ لجاءَ مقتبِساً لها ... مِن أُفقِه واذاً لصادف مَقْبِسا
طيَّبْتُ أفواهَ الرُّواة بمدحه ... فكأنَّ عطَّاراً يُضَمِّخُ مُعْرِسا
وعلَوتُ قدَرَ الناطقين بشكره ... وَلِئنْ تَمادَى في نداه لأَخْرسَا

وما دمنا في صَدَد الثناء عليه ووصفه بما ينفي عنه كل ريبة سواء في سلوكه الشخصي أو عمله الحكومي ، فانا نروي هنا قصَّةً تعرَّض فيها ضميره لامتحان عسير ، لو كان ما أشيع عنه من انهماك في العشق حقا لما ثبت على تجربته لحظةً واحدة ، ولكن بما أن الرجل انما كان يُصوِّر عاطفته ويُدارِي هواه في اشعاره السائرة ، فقد خرج منه عفيف النفس طاهر الذيل . واليك القصة كما رواها القاضي أبو القاسم الشريف في شرح مقصورة حازم قال : « وذكر الاستاذ الجليل أبو جعفر بن الزبير رحمه الله قال أنشدني أبو الخطاب بن خليل قال أنشدني القاضي أبو حفص عمر بن عمر الفاسي لنفسه ، وقد أهدِيتْ اليه جاريه فوجدها ابنة سُريَّة كان قد تسَرَّاها فردها وكتب الى مُهدِيها :

يا مُهدِيَ الرَّشأ ٱلذي الحاظه ... تركتْ فؤادي نُصْبَ تلك الأَسهم

ريحانة كلُّ المُنى في شمِّهـــا لولا المهيمنُ واجتنابُ المَحْرَم

ما عن قِلًى صُرِفَتْ اليك وانما صَيْدُ الغزالة لم يُبَحْ للمُحْرِم

ان الغزالة قد علِمْنا قبلَها سِرَّ المَهَاةِ وليتَنا لم نَعلم

يا وَيْحَ عنتَرَة ألذي قد شفَّه ما شفَّنى فشَدا ولم يتَكَلَّم

(يا شَاةَ ما قَنصٍ لمن حلَّت له حرُمت عليَّ وليتَها لم تحرُم)

ثم قال الشريف « ضمَّن بيتَ عنترة ، والعرب تطلق الشاة على البقرة الوحشية ، فكَنَى عنترةُ بالشاة عن المرأة تشبيهاً لها بها . ويقال انها كانت زوجةَ لابيــه فبذلك حرمت عليه » وهذه القصة على ما تفيده من عفــة المترجم ومتانة دينه فان فيهــا أدباً غضاً وفناً جميلاً سنرى منهما لدى صاحبنا كنزاً ثميناً وذخيرة قيّمةً فيما نعرض مـــن انتاجه بعد .

وكانت وفاةُ أبي حفْص فيما حكي عن الحافظ الكلاعي أبي الربيع ابن سالم ، وهو ممن أخذ عنه ، باشبيلية فجأة في الخامس من ربيع الاول سنة ثلاث وستمائة ، وهي كذلك عند أبن الابّار وابن سعيد ، وغلط ابنُ فرقد فقال عام اثنين وستمائة كما غلط في مولده فقال انه

كان في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، نبّه على ذلك المقري رحمهم الله جميعاً . على أنه في صِلَةِ ابن الزبير جعلها سنة 604 وأخشى أن يكون ذلك تطبيعاً ، وقد اتفقوا انه توفي وهو يلي قضاء اشبيلية .

هذا ما علمناه من ترجمة أبي حفص وتقلُّبات الايام بـه ، ولئن كان ذلك كله مما يتعلق بالجانب المادي من حياته فان الجانب الادبي منها هو الذي به ذكر وعليه قامت شهرته ، وقد اضمحل الجاه والمال وذهبت ولاية القضاء والمكانة الاجتماعية ، ولم يبق الا هـذه النتف الادبية القليلة من انتاجه وعمل قريحته ، فلننظر فيها بما تستحقه من عناية واحتفال للتعريف بأدب أبي حفص وتجليته على منصّة التقدير .. وبذلك نكون قد وضعنا الخطوط الاولى لترجمته الكاملة التي ستبقى رهناً بذمة الزمن حتى يكشف لنا عن جملة صالحة من آثاره يصح معها الحكم ويتم بها القول في حياته المادية والادبية معاً .

وما لابي حفص من انتاج أدبي في علمنا ، ينقسم الى شعر ونثر ، وقد سبق وصف أبي القاسم العَزَفِي له بالبراعة في النظم والنثر . وشعره على ما يؤخذ من كتاب الغصون اليانعة لابن سعيد المغربي ينقسم الى مُوشّح وقصيد فهو مـن أوائل الوشّاحين المغاربة الذين نعرفهم ، وكان يجيد في التوشيح اجادته في القصيد ، ولذلك اشتهرت موشّحاته وتلقفها الناس باستحسان ، وكان المغنُّون يفنون بهـا في

الاقطار على قول ابن سعيد ، وهل تكون هـذه الاقطار الا ما جال فيه ابنُ سعيد من بلاد المشرق والمغرب ؟ خاصةً وأن التوشيح كان له في عصر صاحبنا صدى بعيد بين أدباء المشرق الذين تلقوه باعجاب كبير ، ونبغ فيـه منهم القاضي ابنُ سنَاء المُلْك ووقف عليه كلّ مواهبه حتى ألف فيه كتابه المشهور دار الطراز ، وعليه فان موشحات المترجم كان لها من السيرورة والانتشار ما جاوز حدود بلاد المغرب والاندلس إلى سائر أنحاء العالم العربي ، وما ذلك الا لبراعتها وجودتها وظهور فنّ شاعرنا الأنيق فيها بمظهره الأخّاذ ، ولكنها اليوم تعتبر في حكم الضائعة فأنا لم نظفر بشيء ولذلك لا نستطيع أن نقدم للقارىء ولا مثالاً واحداً منها مع الأسف . وأما المُقصَّد من شعره فقـد بقيت لنا منه صُبابَةٌ مفرّقَة في دواوين الادب ومنهـا استجلينا نفَسَه وعرفنا مذهَبه فاذا هو كما قيل عنه من أهل التفنن والبراعة ، ومن الشعراء الذين يكاد شعرهم يكون مرآة حياتهم فانه يمثّل تَرَف الحضارة وغضارَة النعيم الذي كان قائله يمرح فيه ويتمتع بـه المتاعَ كلَّه ، وهو يعبّر عن عاطفة غرامية مشبوبة وحب مادّي عارِم لاجَرَم أن يثير حوله الشكوك ، ويبثّ في شأنه الظنون ، من غير أن يكون بِدْعاً في طبقته من الشعراء المترفين فانـه يحفِلُ بفنون البديع من الجِناس والطبّاق والتلميـع وغيرها أعظم الحَفْل ، ولكنه يتأنّقُ في استعمالها أعظم التأنق كذلك ، مما يجعلنا نَصِفُه بالشاعر الانيق ، ونحن نعني أناقة شعره لا أناقة شخصـه أو مظهره ، وان كان هو في

هذه أيضاً جدّ عريق . وهذا كلّه انما نلمَسُه في مقطّعاته الغرامية التي وصلتنا ، وقد سبق قولُ ابن سعيد فيها إنها كانت من أسباب الطعن عليه والدفع فيه .

فلينظر القارىء الى هذه القطعة وما فيها من جمال المقابلة وحسن التعليل :

هُمُ نظروا لواحظَها فهاموا　　وتشرَبُ عقلَ شاربها المُدام

يخاف الناس مقلتَها سواها　　أيذعَرُ قلبَ حاملِه الحُسام ؟

سما طرفي اليها وهْوَ باكٍ　　وتحت الشمس ينسكِبُ الغَمام

وأذكُر قدَّها فأنوحُ شوقاً　　على الأغصان تنتدِبُ الحَمام

وأعقَب بينُها في الصدر غمّاً　　اذا غرَبتْ ذُكاءُ أتى الظلام

وأظن أنها قصيدة طويلة انما حفظ الرواةُ لنا منها هذا القدر ، فان العبّاسي في معاهد التنصيص أنشد بيتين من هذا الوزن وهذه القافية لا نرى أنهما الا من تلك القصيدة ، لا سيما وهو قد نسبهما لبعض شعراء المغرب ، وهما :

وعندي من لواحظها حديثٌ　　يُخبِّر أن رِيقَتها مُدام

وفي أعطافها النَّشوَى دليل　　وما ذُقنا ولا زعَم الهُمام

اشارة الى قول النابغة في المتجرّدة :

زَعَم الهمامُ بأنّ فاها بارد عذْب مَقبَّلُه شهيٌّ المــورد
زعم الهمام ولم أذُقه أنّه عذبٌ اذا ما ذُقتَه قلت ازدَد

ألا يرى القارىء معي أن نفس أبي حفص يــتردد في البيتين ، وأن شاعريته الانيقــة تضفي عليهما حلةً تجملهما والقطعــة التي قبلهما من نَبْعَةٍ واحدة ؟

وهذه قطعة من قصيدة أخرى يقول ابن سعيد في البيتين 2، 3 منها أنهما مما اشتهر في الغرب والشرق :

مَشتْ كالغُصن يَثنِيه النسيم ويعدُوه النسيم فيستقيم
لها رِدفٌ تعلق في لطيف وذاكَ الردفُ لي ولها ظلُوم
يعذبني اذا فكرتُ فيه ويُتعِبُهَا اذا رَاحتْ تقوم
وما حُبِّي لها الا عذاب عليه من نَضارتها نعيم

ومن هذه القصيدة :

أعيذُكِ يا سُلَيْمَى من سُلَيْمٍ قتلتِ فَتاهُم وَهْو الكريم

بلى أنتِ الغَزَالةُ في سَنَاها فَرامِيها بعيدٌ مـــا يَرُوم
ومالَكِ طالبٌ بِتِراتِ نفسي اذا قتَل الغرامُ فلا غَرِيم

ومنهـــا :

فؤادي سار نحوكِ عن ضلوع بهـــا يَا رِيمُ حبُّك ما يَرِيم
وِدادُك صحَّ في قلب سقيم كطَرْفِك صَحَّ ناظرُه السقيم
اذا أعرضتِ تَسْودُّ الأماني وان أقبلتِ تبْيَضُّ الهموم

وما أبدع هذا البيت الأخير الذي يصور اعراض الحبيبة باظلام الأماني ، وهي الأماني شأنُها أنْ تُضفي على النفس بهجـــة وسرورا تضيىء منها الحياة ويشرق الافق ، فاذا بها مع اعراض الحبيبة تصبح سُوداً تتقزز منها النفس وليس بعد الحبيبة من أمنية ، ولذلك فانها اذا أقبلت تنقلب الحال وتصير الهموم السود بيضـــاء جميلة في نظر الشاعر لانه ليس مع وصال الحبيبة هم مطلقاً .

ولا تقِلُّ بقية أبيات القصيدة في جمال التعبير وحسن التنظير عن هذا البيت ، فان فنّ شاعرنا يتدفق كالماء الرقراق في كل مقطع من

مقاطعها ، وأعظم ما يتجلى فيه هو هذه المقابلة بين المعاني والالفاظ التي يشكل صوراً حيّة وأخيلة جميلة لا تحس معها بادنى تكلف مما يصحَبُ المقابلة غالباً ، لانه لا يتعَمَّدها ولا يُغرِب فيها فتأتي كأنها طبيعية لا استكراه فيها ولا تصنع .

وهذه قطعة أخرى من شعره :

هذا فؤادي أحصدته الأَسهم　　مَن ذا يرى تلك الجفون ويَسْلَمَ

يا غُرَّةً حكم الجمالُ لهــا على　　شمس الضحى وأصابَ فيما يحكم

يحكي الجآذِرَ جيدُها ولِحاظها　　هيهات دون العالِم المُتعلِّمِ

وكأن قامتَها ونغمة لفظها　　غصنٌ عليه بلبل يــترنم

يُضحِي الخَلِيُّ اذا رآها عاشقا　　والعشق توقِظُه اللّحاظ النُّوَّم

ومن شعره يصف جمال الاعرابيات :

مَهَــا القَفْر لا دُمْيَةُ المَرْمَر　　وفي العُرْب لا في بني الأَصفر

بنفسي يَعافِيرُ تِلك الخِيام　　ومَسْرَحُها في النَّقَا الأَعفر

ملاعِبُ يصبو اليهــا الحليم　　ويُسلَب فيها فُؤادُ الجري

وفيها الظِّباءُ بناتُ الأُسود غُيارَى مـــتَى بغَمَتْ تَزْأَر

فخِيسُ الهِزَبْرِ كِناسُ الغَزا ل بِهِ الشِّبْلُ نَاشٍ مع الجُؤْذَر

تُخــالِسُها نظراً تحته غرامٌ بـــه الحَيُّ لم يشعر

وباللحظ يُقدَحُ زَنْدُ الهوى فطَرْفٌ غرٍ وفؤادٌ بَرِي

وقال في الحب وأحوال المحبين ، ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خبير :

أَغار على الصب من أَنَّبَه هو الحبُّ من يُطفِهِ أَلْهَبَه

نأى القَلْبُ عني وشوقي معي فَلِلَّه أمريَ مـــا أَعجَبه

يحِنُّ فؤادي الى قـــاتلي كذاكَ الهوى عند مَن جرَّبه

ترِقُّ شمائلُ مَن ذاقـــه وتلطُف شمْألُ من هذَّبه

يجُود لِمُسْخِطه بالرضا ويطلب راحةَ من أَتعبه

إِذا شفَّ قلبي غرامُ الهوى دعَـــا بالنعيم لِمَن عذَّبه

وقال في عواقب النظرة :

بقلبك يا غـــافِلاً فانظر وعَيْنَيْك غمِّضها تُبصِر

اذا أُرسِل الطَّرفُ هام الفؤاد   وبعض المَرائي عَمى البَصر
وآفـــةُ قلب الفتى عينه   فان تَرْعَ قلبك لا تنظُر

ولأبي حفص الى جانب شعره الغرامي أشعار في الموعظة والاعتبار وهي أيضاً مما يلُوح عليها طابَعُه الفني ، ولعلها مما صدر عنه بعد تقدمه في السن تكفيراً لِغَرامِيـّاته وغزَلِيـّاته ، كما قال المقّري في هذه الابيات الاخيرة : إنه كفر بها قطعتـــه في جمال الاعرابيات . ومن ذلك قولـه :

أيها المغترُّ بالزمن   في هواه خالِعَ الرَّسَن
حبُّك الدنيا وزينتَها   فتنةٌ عمَّتْك بالفتن
ظَلْتَ والحالاتُ شاهدة   عاكفا منها على وثَن
فاهجرَنْها إن زينتها   زينةٌ شانتْ ولم تَزِن
خدعتك إنها قَبُحَتْ   باطناً في ظاهرٍ حسَن
ولْتُقَدِّم مـــا تُسَرُّ به   قبل طُول البث والحَزن
فكأنْ أُخراك ما برِحتْ   وكأنْ دنياك لم تكُن

ومنه قوله :

ولا تُنسَبْ إلى كِبْرٍ فهذا   أبوكَ التُّربُ يخفِضُكَ انتسابا
ولا تصحب أخا كِبْرٍ وقدِّمْ   على النفس الأَعادِيَ والصِّحابا
ولا تُجْبِب مُحاباةً بمدح   كفى بالمرء حُوباً أن يُحَابَى
وحاذر أن تُرَى في القوم رأساً   ولا تنس الذنوبَ وكُن ذُنابا
تُراباً كُنْ هنا فعساكَ أن لا   تَمَنَّى أن تكون غداً تُرابا

ومنه قوله في مدح العلم :

العلم يكسو الحُلَل الفاخرة   والعلم يُحيي الأَعظم الناخرة
كم ذَنَبٍ أصبح رأساً بــه   وَمِذْنَبٍ أبحُــرُه زاخره
ما شرَفُ النسبة الا التقى   أين تَهِيمُ الأَنفس الفاخره
من يطلُب العزَّ بغير التقى   ترجِعُ عنه نفسه داخره
أعرِضْ عن الدنيا تكن سيدا   بل مَلِكاً فيها وفي الآخره

وله في المدح أيضاً قصائد مطولة يروي بعضَها الرواة ، ويروون أبياتاً من بعضها الآخر ، ولا يخرج شعره في المدح عن نمَط شعره في غيره ، بل هو طِرازُه المُعْلَم ومذهبُه المُحْكَم الذي غلب عليه وعُرِفَ به . والى القارىء مِنْه مطْلعَ قصيدة أنشدهـا الخليفةَ يوسفَ بنَ عبد المومن الموحدي :

اللهُ حسبُك والسَّبْعُ الحَوامِيمُ تحوي بها سبعةً هي الأقاليم

سبع المثاني التي لله قُمتَ بهـا عليك من سرِّها معنى وتقديم

وأنت بالسُّوَر السبْع الطِّوال عـلَى كلِّ الورى حاكم بالله محكوم

وسبعة الشُّهْبِ لم تَخفِل بها ثقةً بوعد ربك هيهات التَّنَاجِيم

تسمُو بنفس على السبع الشِّداد سمَتْ فينا ، وثَمَّ لها زُلْفَى وتكريم

فهذا المطلع كما ترى كله مقارنات يستعملها الشاعر على طريقتـه فيستخرج منها معاني أشْباهاً في ألْفاظٍ أشْباهٍ تأنقـاً في التعبير وتفنُّناً في التصوير ، ولعله انما ضمّنَه هذه المُسبّعات التي سَلكها في نسَقٍ لمناسبةٍ لم يذكُرْها لنا رواةُ القصيدة ، وعلى كل حال فهو يقول بعد ذلك في مدح الخليفة جارياً على منواله في حسن التقسيم:

فؤاده بضياء العلم منشرح ووجهُه بجمال النور موسوم

وكفُّه بطنُها بالخـــير منهمر وظهرُها لعهود الله ملثوم

والعلم قِيمتُه والحلم شِيمتُه طابت أرومَتُه والنفسُ والخِيم

لطالبي العلم ما شاءوا بخِدْمته غِنىً وعزٌّ وإرشاد وتعليم

سُحْبُ العلوم عليهم من سماحته تهمِي ففي بحرِها هُمْ شُرَّعٌ هِيمُ

يُفْضِي أناةً وحِلْما عالمـــا وله في موضع الحق إقدام وتَصْميم

تشتدُّ فيمن عصَى أوخانَ وطأُته وفي الثِّقاف لذات الزَّيْغ تقويم

الدهرُ في أنْفِه من حُكْمِه بُرَةٌ بها الزَّمان عَنِ الأَبرار مخزُوم

الى أن يقول :

عطفاً على حُسْن أمداحي وإنْ عجزَتْ

إنَّ الجمال على العِلَّات مَرْحوم

فلا ينسى حتى في هذا المقام الجمَالَ وتعلـَّقَ قلبه به . ثم يقول:

يا سامِعِين أماديحَ الإمـام ألَا
فاجْثُوا على رُكَب الإعظام أو قوموا

ويُحكَى أنه لما أنشد هذا البيت قام جميعُ من في المجلس وكان فيهم الشاعر أبو العباس الجراوي فاحتاج الى مشايعتهم لذلك ، وثقُل عليه اضخامته فجعل وهو يحاول القيام يسُبُّ القاضي أبا حفص وكان الجراوي سَلِيط اللـّسان . ومنه مطلع قصيدة اخرى وهو بارع :

مَن لم يَزَعْه واعظُ القرآن — يَزَعُ الإلٰهُ بسطوة السلطان
هَذِي يَمانِيَّةٌ وذاكَ يَمانٍ — أخوَان إمّا حكمةٌ أو مُرهَفٌ
بُرهانُ من يَعْمَى عن البُرهان — شُدُّوا اليراعةَ بالحُسام فـانه

ومن بديع مديحها هذا البيت :

يهدِي البريَّةَ مُمسِياً أو مُصبِحاً — فكأنّما في وجهِهِ القَمران

ومن قصيدة له يمدح بها يعقوب المنصور ويهنئه بانتصاره في موقعة الارك الشهيرة :

أطاعتْك الذوابلُ والشِّفارُ   ولبّى أمرَكَ الفلَكُ المُدار
بِبُشْرَى مثلما ابتهجت رياضٌ   وسعدٍ مثلما وضَحَ النهار
وفتحٍ مثلما انفتحت كِمَامٌ   وشُقَّتْ عن صُدور مَهاً صِدار
وآمالٍ كما مُدَّتْ ظِلالٌ   وأفعالٍ كما مَدَّت بِحار
وأعلامٍ بنصرك خافقات   لها في كل جوٍّ مُستطَار
لِيهنيء أرضَ أندلس بدورٌ   من السَّرَّاء ليس لها سِرار

ومنها في وصف جموع العدو :

وكم رامُوا الفرار من الرزايا   ولكن أين من أجل فرار
تُدار عليهمُ خُمْرُ المنايا   بكأس فيه عَقْرٌ لا عُقَار
اذا ما الليثُ أصبح في مَحَلٍّ   فما لِطَرِيدة فيه قَرار

وهذه القصيدة هي من السَّهْل المتنع ونَفَسُه فيها عالٍ جداً ، فان كانت رُقْعَتُها مما طُرِحَ أمامَ المنصور بدون إنشاد[١] فلا شك أنها بُخِسَتْ حقَّها . ونحب أن ننبه القارىء الى ما في قوله « وشُقَّت عن صُدورها صِدار » من مزج المدح بالغزل نزوعاً من الشاعر الى طبيعته الهائمة بالجمال المتهالكة على تملّيه ، فهي تتخيله في كل شيء حتى في نتيجة الأعمال الحربية ، فاذا ذكرت الفتح وشبهته بتفتح الأكمام عن الأزهار لا تلبث أن تذكر تفتح الازرار عن صدور الغواني وما تحوي من إغراء وفتون . ومن هذا القبيل ما تَنِمُّ به المساجلة الشعرية التي جرت بينه وبين الشاعر الجراوي والقاضي أبي بكر بن ميمون ، وكان الثلاثة قد اجتمعوا في مجلس أنس ، فقال الجراوي :

ما زِلتُ أضرب بالقنا المنآد   حَلقَ الدروع وأنفسَ الحساد

وقال ابن ميمون :

وحسبت أني لا أُراع لحادث   حتى بُليتُ بسطوة الحساد

---

(1) يذكر المؤرخون ان المنصور لما رجع من غزوة الارك جلس للشعراء وكانوا من الكثرة بحيث جعل كل واحد انما يلقي من قصيدته مطلعها ويلقي برقعتها امام المنصور ، فما استتموا الإنشاد حتى حالت الرقعات بين المنصور وبين الناس .

فقال أبو حفص :

مَن لم يبتْ والبينُ يصدع قلبه   لم يدر كيف تفتُّتُ الأَكباد

فلم يخرج عن طبيعته ولم يجد مجالاً للقول إلا في الحب وذيوله .

وعلى ذكر ما وقع له مع الجراوي ، نقول ان هذا الشاعر الذي كان كثير الهجاء لا يسلم من لسانه أحد ، تناول صاحبنا في أبيات تمس كرامةَ ابنةٍ له تسمى عمْرة – على ما يفهم من هذه الأبيات – وكانت أديبة كأبيها تقول الشعر ، وهذا نص تلك الأبيات :

نبغتْ عَمْرَةُ بنتُ ابنِ عمر   هذه فَلْتعجَبُوا إِحدى العِبَر

قل لهـــا عنّي اذا ما جئتَها   قولةً تترك صدْعاً في الحجَر

هَبْكِ كالخنساء في أشعارها   أوكلَيْلَى هل تُجَارِينَ الذَّكَر ؟

فغضب ابنُ عمر لشرف بيته وأجاب الشاعر بقوله :

نهاني حلمي فما أظلِمُ   وعزَّ مكاني فما أُظلَم

ولا بد من حاسد قلبُه   بنور مآثرنا مظـــلم

قفَانَا[1] الحسودُ ولسنا كما   يقول ولكن كما يعلم

---

(1) قفاه : اتهمه بالفجور وقذفه .

فهذا ما ناسب سياقه من شعر المترجم الذي وقفنا عليه ، ونظن أن فيه بلاغاً لتعرُّف شاعريته ولو على سبيل الاجمال . وأمـــا نثره فبيدنا منه نموذجان لا غير ، أحدهما خطبة في ذم الفلسفة ومذهب أهلها ، ونظن أنه ألقاها في الفترة التي تنكر فيهـا المنصور للفلاسفة ونكب كبيرهم أبا الوليد بن رشد ، والثاني رســـالة في ذم الدنيا والتحذير من الاغترار بها ختمها بشعر من نظمه في الموضوع . ومع أن المقري في أزهار الرياض تردد في نسبة هذه الرسالة له ، فانـّا نجزم بذلك اعتماداً على الشريشي الذي أنشد القطعة الشعرية المختومة بهـــا معزوةً الى أبي حفص من غير تردد . وكلا النموذجين مـــن النثر المسجوع المحلـّل ببعض الآيات القرءانية الكريمة في تنزيلٍ أحسنَ من تنزيل الدرر في الحلى الذهبية الجميلة مع تأنـّق كبير في مناسبة الاسجاع ومطابقة الالفاظ للمعاني على مثال ذلك التأنق الذي رأيناه في شعره ان لم يكن أفضل ، وذلك لمواتاة الامر في السعة أكثر مـــن الضيق ، وهكذا يكون نثره في أعلى مُستوَيات النثر الفني وتَتَساوَقُ قدرتُه على الكتابة والخطابة مع قدرته على القريض قصيداً وتوشيحاً بدليل ما وصل الينا من انتاجه وبشهادة أهل المعرفـة من معاصريه الذين يقدمونه الينا بصفته علماً من أعلام الادب ورئيساً من رؤساء الصّناعتين:

وهذه هي خطبته المشار اليها :

(إياكم والقدماء وما أحدثوا ، فانهم عن عقولهم حَدَّثـُوا ، أتوْا

من الافتراء بكل اعجوبة ، وقلوبُهم عن الاسرار محجوبة ، الانبياء وُنورهم ، لا الاغبيـاء وغرورهم ، عنْهُم يُتَلقّى وبهم يُدرك السُّول « عالمُ الغيب فلا يُظهِر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رَسُول» الدِّينُ عند الله الاسلام ، والعلمُ كتاب الله وسنة محمد عليـه السلام ، ما ضرَّ من وقف عندهما ، ما جهل بعدهما ، خيرُ نبي في خير أمة ، « يُزكّيهم ويعلّمُهم الكتابَ والحكمة » دلّهم من قرب عليـه ، واختصر لهم الطريق اليه ، فما ضر تلك النفوس الكريمة ، والقلوب السليمة ، والالباب العظيمة ، ما زُوِيَ عنها من العلوم القديمة ، نقّاهُم من الاوضار والادناس ، وقال « كنتم خيرَ أمة اخرِجَت للناس » كتابُهم أعظم كتاب أنزل ، ونبيهم أكرم نبي أرسِل ، السيد الامام لَبِنَةُ التّمام ، خير البرية على الاطلاق ، بُعِث ليتمم مكارم الاخلاق انزل الكتاب اليه « مُصدّقا لما بين يديه من الكتاب ومُهَيْمِناً عليه » هو الشفاء والرحمة ، وفيه العلم كله والحكمة ، مُعجِزٌ في وصفـه ، عزيز في رَصْفه ، « لا ياتِيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفه » اياتُه باهرة قائمة ، ومعجزاته باقية دائمة ، ماذا اقول ، وقد بهر العقول ، حَسْبِي حَسْبِي « قل لو كان البحرُ مِداداً لكلمات ربي لنفدَ البحر قبل ان تنفد كلماتُ ربي » .

وهذا نص الرسالة :

« هذه الدنيا ــ حفظك الله ـ كما قد عَلِمْته ، فأعرِض بحِلمْك

عن جهلها ، وارغَبْ بنفسك عن أهلِها ، واذكرْ قبائح أنبائهـــا ، واصْرِمْ وصْلَ ابنائها ، لا ترْتَعِ في روضهم ، ولا تكْـرَعْ في حوضهم ، « قل اللهُ ثم ذَرْهُم في خوضهم » واذا مررت باللّاغين بذكر محاسنها اللاهين بحسن ظاهرها عن قُبْح باطِنها ، فالـهُ عن لهوهم ، ومُرَّ كريماً بلغوهم مَرَّ المهتدي في سيره « أعرِضْ عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيْره » فالسيادة والسعادة في نبذِهـا ، لا في أخذِها ، وفي تركها لا في دَرْكها ، واليك عن وصلها إليْك ، وعليك بهجرها عليْك ، واتلُ قوله تعالى « ولا تمدَّن عينيْك » وقوله تعالى « ولا تَعْدُ عيناك عنهم » واحْرص أن تكون منهم ، فزُخرفُ الدنيـــا في نظر العين زَيْنٌ ، وفي نظر العقل شَيْنٌ ، فغمِّضْ عينيك تُبصِر ، ولا تمُدَّهُمَا وأقصِر ، جعلنا الله ممن نظر بقلبـه ، وابصر بلبّـه ، فأولوا الالباب والفكر ، المخصوصون بالذكر ، والعلم ارفعُ المزايا ، واوسعُ العطايا ، هو غايةُ المنال والمُدرَك ، من ناله أي شيء فاته ومن فاته ايّ شيء أدركه ، ولا عِلْمَ إلا علمُ الكتاب والسنة ، هما افضـــل العطايا والمِنَّة ، فمن علِمَهُما ، ونظر فيهما وعمل بهما نال غايةَ السعادة ، وأدرك مُنتَهى السيادة ، قال الله تعالى لنبيه الكريم « ولقد أتيناك سَبْعاً من المثاني والقرءان العظيم » هذه المزايا العالية ، والعطايا الواسعةُ الباقية ، لا ما نهتْ عنه الآية الثانية [1] جعلنا الله ممن أبصرَ رشدَه ، وذكر

---

(1) اي التي جاءت بعدها مباشرة وهي قوله تعالى ولا تمدن عينيك الخ .

مُرادَه ، وَوجَّه اليه قصده ، ورآى في أول أمره آخره ، وابتغى فيما أتاه اللهُ الدارَ الآخرة ، بمنه وفضله آمين .

يا راكضاً في طِلابِ دُنيا ليس لمن تصرع انتِعاشُ

تَنَحَّ يا عُرضــةً لِرَامٍ أسهُمُه بالردى تُراش

لم تخشَ ناراً هوى لظاها لِمَن له نحوهــا انْحِياش

أعْذَرُ منك الفَراشُ حالا علمتَ مـا يجهل الفَراش

تطلبُها لا تنـــام عينٌ عنها ولا يستَقِرُّ جَاش

مَن لك بالرِّيِّ من شراب يَشْتَدُّ من شُرْبه العُطاش[1]

دعهـــا فطلابُهَا رَعاعٌ طاشت بألبابِهم فَطَاشُوا

واظمأْ لِتَرْوَى وكن كقومٍ ماتُوا بِها عِفَّةً فعاشُوا

لم يَرِدُوهـــا فهم رِوَاءٌ ووَارِدُوهَا هُم العِطاش

(1) العطاش بالضم ، يصيب الانسان فيشرب الماء ولا يروى .

كأنَّ آمالَنا ظِبَاءٌ ونحن من حيرَة خِرَاش[1]

إن لآمالِنَا انبساطاً بـه لأَعْمَارِنا انكِمَاش

كأنَّ أَجالَنا صُقُور ونحن من تحتِهَا خَشَاشُ

---

(1) تلميح لقول الشاعر :

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

المجلد الأول	المجلد الثاني	المجلد الثالث	المجلد الرابع	المجلد الخامس
عبد العزيز الفشتالي	عثمان السلاليجي	أبو القاسم الشريف	إبن الياسمين	أحمد بن شعيب الجرنائي
أبو القاسم الزياني	ابن غازي	ابن الحاج الفاسي	ابن البناء العددي	ابن هاني السبتي
الوزير ابن ادريس	ابن زكور	أحمد زروق	الإمام إدريس	محمد المسناوي
إكنسوس	ابو الطيب العلمي	الشريف الإدريسي	أبو عمران الفسي	محمد بن المدني كنون
أبو جعفر بن عطية	ابن الونان	ابن بطوطة	السلطان محمد بن عبدالله	عبد الملك المعتصم
ابو العباس الجراوي	ابن عبدون المكناسي	عبد المهيمن الحضرمي	الأصيلي	محمد الخامس
ميمون الخطابي	أبو بكر بن شبرين	ابو العباس العزفي	عبدالله بن ياسمين	محمد بن عبدالكريم الخطابي
مالك بن مرحل	إبن رشيد	عبد الواحد المراكشي	يوسف بن تشفين	سابق البربري
عبد العزيزالملزوزي	أبو موسى الجازولي	ابن أبي زرع	ابن حبوس الفاسي	النابغة الهوزالي
الأمير سليمان الموحد	ابن أجروم	أبو حفص بن عمر	ابن زنباع الطنجي	أبو الحسن المسفر